مسلمة بن عبد الملك بن مروان

فاتح شطر الأنضول ومحاصر القسطنطينية

تـأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي – المجلد 28 – ص 117 – 152 + المجلد 29- ص 71 – 93 + المجلد 30- صفحة 128-177 (ثلاثة أقسام)

1397هـ - 1977م الى 1399 هـ - 1979م

مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ

فاتح شطر الأنضول (١) ومحاصر القُسْطَنْطِينِيّة (٢)

بقلم اللواء الركن محمود شيت خطاب

القسم الاول

نسبه وايامه الاولى

هو مَسْلَمَة بن عبدالملك بن مَرْوَان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شَمْس بن عبد مَنَاف بن قُصَي القُرَشِي الأمَوِي (٣)

أبوه : أمير المؤمنين عبدالملِك بن مَرْوان (٤) ، وامه من أمّهات الأولاد (٥)، ويريدون بكلمة أمّهَات الأولاد : الجواري والاماء اللّواتي ولدن لمواليهن ذكرانا. وقد ذكر الامام ابن حَزْم الاندلسي (٦) في رسالته : (أسماء الخلفاءوالولاة

---

(١) الأنضول اوالانطول ، لفظة يونانية ، معناها : المشرق ، اسم لشبه جزيرة كبيرة ، هي عبارة عن آسيا الصغرى كما نطلق عليها اليوم . يحدها من الشمال الغربي الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الا سود ، ومن الشرق جبال إرمينية وفروعها الجنوبية الغربية إلى الا سكندرونة ، ومن الجنوب البحر الا بيض المتوسط ، ومن الغرب الا رخبيل اليوناني ، وهي ما نسميه : تركيا ، عدا القسم الاوروربي منها انظر التفاصيل في منجم العمران (٢/٦٣-٦٥) والجغرافية العمومية (١٨١-١٨٥)

(٢) القسطنطينية : مدينة شهيرة جداً ، كانت عاصمة الا مبراطوربة البيزنطية الشرقية ، بناها قسطنطين سنة (٣٣٠م) ، وهي مسورة بسور حصين ، ارتفاعه ما بين اربعة عشر قدماً وعشرين قدماً ، ومحيطها أكثر من اثني عشر ميلا ، انظر التفاصيل في منجم العمران (٢/٢٩٩ - ٣٠١) .

(٣) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ - ١٠٥) وفوات الوفيات (٢/٣١) وقادة فتح المغرب العربي (٢/٩٥) .

(٤) انظر سيرته المفصلة في : قادة فتح المغرب العربي (٢/٩٥ - ١٥٢) .

(٥) ابن الأثير (٤/٥١٩) وابن عساكر - تاريخ دمشق - نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٩٢) - تاريخ - (٢٢/٤٨٩) وانظر الطبري (٦/٤٢٠) .

(٦) الامام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الا ندلسي (٣٨٤ هـ - ٤٥٦ هـ) .

وذكر مُدَدهم) ما نصّه : « وفي أيامه – يريد أيّام سليمان بن عبدالملك – حوصرت (القُسْطَنْطِيْنِيّة) وحاصرها أخوه مَسْلمة ، وسنُّ مَسْلَمَة أربع وعشرون سنة »(١)

وكان حصار القسطَنطينية سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢) (٧١٧م) .

ومعنى ذلك أنّ مسلمة ولد سنة أربع وسبعين الهجرية (٦٩٣م) .

ولست مع الامام ابن حزم الأندلسي فيما ذهب إليه ، لأنّ أوّل قيادة تولاّها جيش مسلمة كانت سنة ست وثمانين الهجرية (٣) ، وليس من المعقول أن يتولى مسلمة قيادة جيش من جيوش المسلمين ، في أخطر جبهة من جبهات القتال بالنسبة للدولة الأموية ، وهي جبهة مقاتلة الروم في عقر دارهم ، وهو في سن الثانية عشرة ! ! والمعقول أن يكون عمره حينذاك عشرين سنة على الأقل ، أي أنّ ولادة مسلمة كانت حوالي سنة ست وستين الهجرية (٦٨٥م) .

ومهما يكن من أمر تاريخ مولد مسلمة الذي أغفله المؤرخون ، فانأبناء الخلفاء لم يكونوا يتولون القيادة ويشهدون المعارك الطاحنة قبل أن يبلغوا السّادسة عشرة من سنيّ حياتهم ، ولكنهم لا يتأخرون عن العشرين إلا نادرا ، خاصة إذا كانوا من ذوي الكفايات القيادية العالية التي تظهر عليهم مبكراً – كما هو الحال في مسلمة وأمثاله من بني أميّة ومن الذين تولوا القيادات العسكرية في عهدهم كمحمد بن القاسم الذي تولى القيادة وعمره سبع عشرة سنة كما هو معروف .

نشأ مسلمة وترعرع في ظروف ملائمة لاستكمال متطلبات شخصيته فكرياً وإدارياً وسياسياً وعسكرياً : فهو من بيت السُّلطة والملك – بني أميّة ، وأهله أمراء وقادة وخلفاء ، وظروفهم الادارية والعسكرية والسياسية لا تخلو من مشاكلٍ وصعوبات تعين على التعلّم والتدريب ، وكان التعليم لاستيعاب الثقافة المتيسّرة حينذاك ميسوراً لبني أميّة ولغيرهم من الناس ، لذلك نشأ في دمشق عاصمة الخلافة ليتعلّم القرآن ويروي الحديث ويحفْظ الأخبار ويتقن علوم اللّغة وفنون الأدب شعراً ونثرا ، ثم ليمارس القضايا الادارية والسياسية عن كثب ويرى كيف تُصرّف

---

(٧) أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم (٣٦٢) – ملحق بكتاب جوامع السيرة .

(٨) ابن الأثير (٥/٢٧) وابن خلدون (٣/١٥٥) وفتح القسطنطينية (٣٨) والامبراطورية البيزنطية (٣٦٦) .

(٩) ابن الاثير (٤/٥٢٤) والعبر (١/١٠١) .

الأمور وتُعطى القرارات . كما تدرب على ركوب الخيل والفروسيّة والسباحة والرمي بالنبال والضرب بالسيف والطعن بالسنان ، حتى أضحى في الميادين الثقافية والادارية والسياسية والعسكرية ذا مرتبة سامية ومكانة مرموقة ومنزلة رفيعة .

ولعلّ مما زاد في فرص تعليم وتدريب مسلمة ، أنه تلقّى علومه وتدريبه في كنف والده أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان بعد استقرار ملكه في الدولة الاسلامية واستعادة (الوحدة) سنة ثلاث وسبعين الهجرية ، إذ قضى على الخوارج في (البحرين) وأعاد بناء (الكعبة) بمكّة المكرّمة على ما كانت عليه قبل عبدالله بن الزبير ، فانطلقت الجيوش الاسلامية للفتح واسترداد المناطق التي سُيْطِر عليها في إيران وبلاد الروم وإفْرِيقيّة، وكان من ثمرات استعادة (الوحدة) أن أعادت الدولة الاسلامية بقيادة عبدالملك بعد ما عاناه من فتن داخلية واضطرابات وحروب أهلية ومشاكل خارجية ، كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون ، بعدما كان عبدالملك يدفع الأتاوة لامبراطور القسطنطينيّة منذ تولّيه الخلافة حتى استعاد(الوحدة) أيام الفتن الداخلية والحروب الأهليّة (١) .

وتربّى مسلمة في كنف أبيه بعد استعادة (الوحدة) للدولة الاسلامية بجوٍ كله استقرار وأمن ودعة وبناء علمي وإداري وسياسي وعسكري، في بداية العصر الذهبي لحكم بني أميّة ، برعاية والده الحصيف العالم الداهية الذي يُعَدُّ بحق أبرز خلفاء بني أميّة في الشام علماً وعملاً ومقدِرة وذكاءً ، فأفاد مسلمة من رعاية والده في وقت تفرّغ فيه عبدالملك لرعاية شؤونه الخاصة أكثر من السّابق – يوم كان في دوامة الفتن والقلاقل والاضطرابات ، وبقي يحظى بالرعاية الأبوية والعائلية الكاملة ، حتى توفي عبدالملك سنة ست وثمانين الهجرية (٢) (٧٠٥م) ، فأرسى عبدالملك أسس شخصية ابنه مسلمة، وبدت ملامحها واضحة جليّة في وقت مبكّرٍ من عمره ، تلك الأسس التي كانت عبارة عن: الدين والتفقه فيه والتمسك بتعاليمه والعربية واتقان علومها ، والسياسة وممارسة قضاياها ، والادارة وحلّ مشاكلها ،

(١) انظر التفاصيل في : قادة فتح المغرب العربي (٢/١١٣ – ١١٤) وانظر ابن خلدون (٣/١٥٢)
(٢) تاريخ بغداد (١٠/٢٩١) وتاريخ الخميس (٢/٣١١) .

والعسكرية والتدريب على متطلباتها ، فكان مسلمة بحق نسخة طبق الأصل من والده عبدالملك واشبه الناس به عدا الخلافة التي حرم منها ، لأن أمّه من أمّهات الاولاد ، وكان لا يتولى الخلافة إلا أمويٌّ أمه عربية حرة ، بالرغم من : « انه كان أحق بالملك من سائر إخوته (١) » .

وحين اشتد مرض عبدالملك جمع بنيه وهو على فراش الموت وأوصاهم قائلا : « أوصيكم بتقوى الله ، فانها أزين حِلية وأحصن كهف ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حقّ الكبير ؛ وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه ، فانه نابكم (٢) الذي عنه تفترون ، ومَجنكم (٣) الذي عنه ترمونه ؛ فأكرموا الحجّاج فانه الذي وطّأ لكم المنابر ، ودوَّخ لكم البلاد ، وأذل الأعداء . وكونوا بني أم بَرُدة لا تدبّ بينكم العقارب ، وكونوا في الحرب أمراراً ، فان القتال لايقرِّب ميتة ؛ وكونوا للمعروف مناراً ، فان المعروف يبقى أجره وذكره (٤) ؛ وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب ، فانهم أصون له وأشكر لما يُوْتَى إليهم منه ، وتمغدوا (٥) ذنوب أهل الذنوب ، فان استقالوا فاقيلوا ، وإن عادوا فانتقموا (٦) . » .

لم يذكر الخليفة الداهية عبدالملك بن مروان ، في وصيته لبنيه وهو يحتضر تلك الوصية التي تعتبر خلاصة تجاربه في الحياة ، صاغها بكلمات معدودات ، غير مسلمة من بين أولاده ، وقد ذكره بالثناء العاطر والتقدير البالغ ، مما يدل على مبلغ ثقته به واعتماده عليه .

وليس من السهل على أحد أن يحوز على ثقة شخصية فذّة واعية كعبدالملك ، ولولا أنّ مسلمة كان حَرّياً بالثقة الكاملة والاعتماد المطلق ؛ لما أشاد به أبوه — وهو على فراش الموت — هذه الاشادة النادرة .

لقد تهيّأ لمسلمة الطبع الموهوب والعلم المكتسب والتجربة العملية ، فنال مانال من تقدير والده بخاصة وأهل بيته بعامة والمؤرخين من بعده ، فكان الرجل المناسب للمناصب المناسبة التي تولاّها سياسياً وإدارياً وعسكرياً .

---

(١) دول الاسلام (١/٦٢) وانظر الأعلام (٨/١٢٢) ومسلمة بن عبدالملك (٤٥) .
(٢) الناب : السن في جانب الرباعية ، وللانسان نابان في كل فك . وناب القوم : سيدهم .
(٣) المجن : الترس . وفلان مجنكم : حاميكم
(٤) في رواية : ذخره . (٥) تمغد الشيءْ : امتصه ، استوعبه
(٦) ابن الأثير (٤/١١٧ — ١١٨) .

جهـــاده

١ – في ارض الروم

في سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م) غزا مسلمة أرض الروم (١)،وفي سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٦م) غزا الروم فأثخن فيهم بناحية (المَصِّيْصَة)(٢) وفتح حصوناً كثيرة منها :حصن (بُوْلَق) و (والأخْرم) (٣) و (بُوْلُس) و (قَمْقِيم) (٤(وقتل من المستعربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم (٥) .

وفي سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) غزا مسلمة والعبّاس بن الوليدبن عبدالملك بلاد الروم ، وكان الوليد بن عبدالملك قد كتب الى صاحب (إرْمِيْنِيَة) يأمره أن يكتب إلى ملك الروم يُعَرِّفه أنّ (الخَزَر) وغيرهم من ملوك جبال (إرمينية) قد أجمعوا على قصد بلاده ، ففعل ذلك ،وأكثر الوليد من قواته القاصدة أرض الروم ، فساروا نحو (جزيرة ابن عمر) ثم عطفوا منها إلى بلاد الروم . واصْطدم الطرفان ، فانهزم الروم ،ثم أعادوا الكرّة فانهزم المسلمون ،ولكنّ العباس بن الوليد بن عبد الملك ثبت على رأس (السّاقة) صارخاً : « أين أهل القرآن الذين يريدون الجنّة ؟ ! » ، فقيل له : نادهم يأتوك ، فنادى : يا أهل القرآن ! فاقبلوا جميعاً ، فهزم الله الروم حتى دخلوا (طُوَانة) (٦) ، وحاصرهم المسلمون في هذه المدينة ، وفتحوها في

---

(١) الطبري (٦/٤٢٦) وابن الأثير (٤/٥٢٤) وابن خلدون (٣/١٥٣) ، والنجوم الزاهرة وفيه افتتح مسلمة بن عبدالملك حصن بولق وحصن الأخرم ، وانظر العبر (١/١٩١) وفيه : افتتح مسلمة حصنين في بـلاد الروم ، وفي تاريـخ الاسلام للذهبي (٤/٣٠٢) : واول ما ولي غزو الروم في اخر دولة ابيه ، فافتتح ثلاثة حصون ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/٢٩٣)

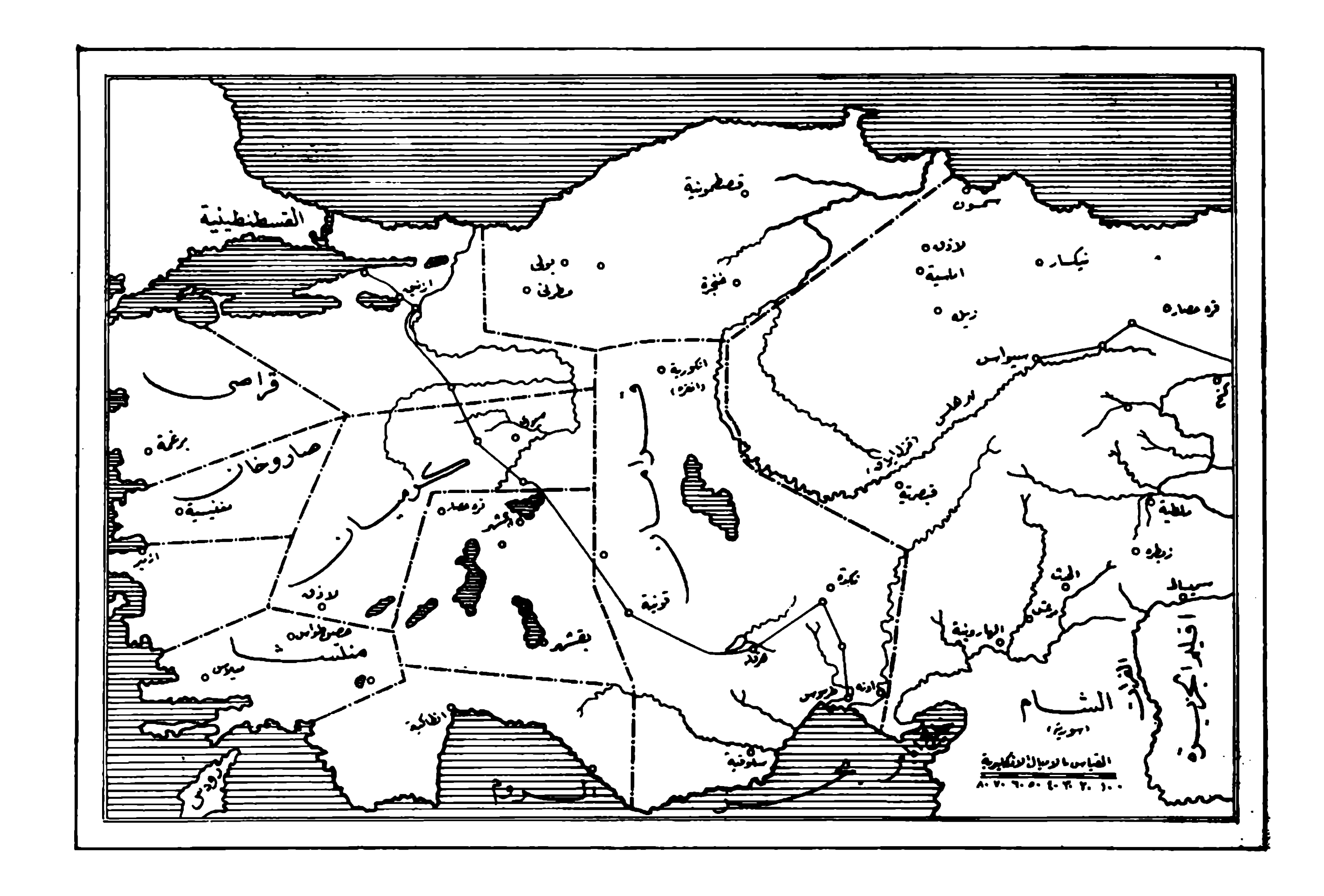
(٢) المصيصة : مدينة على شاطئ نهر (جيحان) من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم وتقارب طرطوس ، وكانت ذات سور وخمسة أبواب ، انظر معجم البلدان (٨/٨٠) والمسالك والممالك (٤٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) .

(٣) انظر الطبري (٦/٤٢٩) وابن الأثير (٤/٥٢٨) ، وفي ابن خلدون (٣/١٥٥) : الأخزم ، وهو حصن في منطقة المصيصة لا ذكر له في الكتب الجغرافية التي بين أيدينا .

(٤) قمقيم : وردت كذا في ابن خلدون (٣/١٥٤) ، ووردت في الطبري (٦/٤٢٩) وابن الاثير (٤/٥٢٨) : قمقم .

(٥) ابن خلدون (٣/١٥٥) ، وانظر الطبري (٦/٤٢٩) وابن الأثير (٤/٥٢٨) ، وحصون بولق والأخرم وبولس وقمقم ، ولا ذكر لها في الكتب الجغرافية القديمة التي بين أيدينا ، ومن الواضح أنها حصون صغيرة في المنطقة الجبلية المحيطة بالمصيصة .

(٦) طوانة : بلد بثغور المصيصة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٦٥) والعبر (١/١٩٣) وفي المعارف (٣٥٩) : وفي سنة ثمان وثمانين فتحت الطوانة .



القسطنطينية
قسطمونية
قراصي
صاروخان
برغمة
مغنيسية
كرميان
قرامان
قونية
بقشهر
منتشا
سيواس
قيصرية
ملطية
الشام
(سورية)
المقياس بالأميال الإنكليزية

جمادى الأولى من هذه السنة وشتوا فيها (١)، كما فتح مسلمة في هذه السنة (حرثومة)(٢)
وفي هذه السنة غزا مسلمة الروم أيضاً ففتح، ثلاثة حصون: أحدها حصن (قُسْطَنْطِيْن) و (غزالة) و (والأخْرَم) وقتل من المستعربة نحو ألف واخذ الأموال (٣).

وقد تكرر فتح حصن (الأخْرَم) سنة سبع وثمانين وثمان وثمانين الهجريتين، ومن المحتمل أنّ الروم استعادوه فعاد إليه مسلمة وفتحه ثانية.

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م)، غزا مسلمة والعبّاس بن الوليد بن عبدالملك الروم، ففتتح مسلمة حصن (عَمّوْرِيّة) (٤) ولقي من الروم جمعاً فهزمهم. وقيل: إنّ مسلمة قصد (عَمّورية)، فلقى جمعاً من الروم كثيراً، وافتتح (هِرْقَلة) (٥) و (قَمُوْنِيّة) (٦)

وفي هذه السنة أيضاً، غزا مسلمة الترك حتى بلغ (الباب) (٧) من ناحية (أذَرْبيَجان) (٨) ؛ ففتح حصوناً ومدائن هناك (٩)

---

(١) الطبري (٤٣٤/٦) وابن الأثير (٥٣١/٤) والعبر (١٠٣/١) وفي الطبري (٤٣٤/٦) : أنه فتح طوانة كان في جمادى الاخرة.

(٢) العبر (١٠٣/١) والظاهر أنها قرية أو بليدة في منطقة طوانة لا ذكر لها في الكتب الجغرافية القديمة التي بين أيدينا.

(٣) في الطبري (٤٣٦/٦) : حصن قسطنطينية، وانظر ابن الأثير (٥٣٢/٤).

(٤) عمورية : بلد من الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٦/٦ - ٢٢٧)، وكان اسمها : Ammorium

(٥) هرقلة : مدينة ببلا د الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٤٣/٨ - ٤٤٤).

(٦) الطبري (٤٣٥/٦) : وفيه : قمودية وابن الأثير (٤٣٤/٤)، وفي ابن خلدون (١٥٤/٣) قمولية : ، ولم أجد لقمونية ذكراً في الكتب الجغرافية التي بين أيدينا في منطقة بلاد الروم، بل ذكرها في إفريقية، انظر معجم البلدان (١٦٢/٧).

(٧) الباب : مدينة باب الأبواب، ميناء كبير على بحر الخزر، وهي مدينة كبيرة محصنة، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٠٩ - ١١٩) ومعجم البلدان (٩/٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٦)، وهي مدينة دربند كما يطلق عليها في الوقت الحاضر.

(٨) أذربيجان : كلمة اذربيجان في الفارسية معناها : ارض النار أو معابد النار، وقد أطلق عليها هذا الا سم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك. وأذربيجان : صقع جليل ومملكة عظيمة، والغالب عليها الجبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٩/١) والمسالك والممالك للا صطخري(١٠٨) وآثار البلاد واخبار العباد (٢٨٤).

(٩) الطبري (٤٤١/٦) وابن الأثير (٤٤٩/٤) وابن خلدون (١٤٤/٣). وفي فتوح البلدان (٢١٨). ولما كانت سنة (٨٩) اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم، وأتاهم قوم من الروم من قبل -

وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩ م)، غزا مسلمة أرض الروم ، ففتح الحصون الخمسة التي بـ (سورية) (١)، ومن تدقيق سير الفتح التي نهض به مسلمة في تلك الايام ، يتضح أنّ الحصون الخمسة تقع شمالي (جزيرة ابن عمر) متاخمة لمدينة (ديار بكر) من الشمال .

وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) غزا عبدالعزيز بن الوليدبن عبدالملك الصائفة (٢) ، وكان على ذلك الجيش مسلمة . وفيها عزل الوليد بن عبدالملك عمّه مسلمة ، فغزا مسلمة الترك من ناحية (أذْرَبْيجَان) حتى بلغ (الباب)، وفتح مدائن وحصوناً ونصب عليها المجانيق (٣) .

– الاسكندرونةوررودس ، فوجه الوليد بن عبدالملك اليهم مسلمة بن عبدالملك ، فأناخ عليهم في حلق من الخلق ، فافتتحها على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجري على كل امرئ منهم ثمانية دنانير ، وعلى عيالاتهم القوت والقمح والزيت ، وهو مديان من قمح ، وقسطان من زيت ، وعلى أن لا يكرهوا ولا أحد من أولادهم على ترك النصرانية ، على أن يلبسوا لباس المسلمين ، ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية او وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينقلوا أسلاب من يقتلون مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم واموال موسريهم ما يؤخذ من اموال المسلمين ، فأخرب مدينتهم ونزلوا مناطق (حمص) ، ونزل بطريق الجرجومة في جماعة معه انطاكية ، ثم هرب الى بلاد الروم . . . انتهى

وفي معجم البلدان (٣/٨٠) : الجرجومة : مدينة يقال لأهلها الجراجمة ، كانت على جبل اللكام بالثغر الشامي فيما بين بياس وبوقة قرب انطاكية . والجراجمة : جيل . . . انتهى

اقول : وهؤلاء كانوا يسكنون ما يسمى : جبل لبنان في الوقت الحاضر مع امتداده الى انطاكية وكانوا نصارى وما يزالون ، ولكن من الصعب تصديق : أن مسلمة نهض بالقضاء على هذه الفتنة الداخلية سنة (٨٩) هـ ، لأنه كان مشغولا في تلك الأيام بغزوتين كبيرتين ، ومن المحتمل أنه قضى عليها في فرصة سنحت له قبل خوضه لتلك الغزوتين أو بعدهما .

وفي تاريخ الاسلام (٤/٣٠٢) : غزا مسلمة (عمورية) والتقى بالمشركين فهزمهم .

(١) الطبري (٦/٤٤٢) وابن الأثير (٤/٥٤٧) وابن خلدون (٣/١٥٤) والنجوم الزاهرة (١/٢٢١) والعبر (١/١٠٤) . وسورية : موضع الشام بين خناصرة وسلمية والعامة نسميها : سوية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٧١) ومن الواضح أن الحصون الخمسة التي فتحها بسورية هي التي تقع في الاقليم المتاخم لجزيرة ابن عمر من الشمال ، أي شمالي مدينة ديار بكر الحالية في الواقعة في الجمهورية التركية ، وانظر تاريخ الاسلام (٤/٣٠٢) وانظر تاريخ ابن خياط(١/٣٠٦)

(٢) الصائفة : الغزوة في الصيف ، وبها سميت غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفاً أثناء البرد والثلج .

(٣) الطبري (٦/٤٥٤) وابن الأثير (٤/٥٥٥) وابن خلدون (٣/١٤) والنجوم الزاهرة (١/٢٢٢) وتاريخ الاسلام (٤/٣٠٢)

وفي سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١٠م) غزا مسلمة أرض الروم، ففتح حصوناً ثلاثة ، وجلا أهل (سُوْسَنه) إلى بلاد الروم (١) .

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) غزا مسلمة الروم ، فافتتح (ماسة) وحصن (الحديد) و (غزالة) و (بَرْجَمة) (٢)من ناحية (مَلَطْيَة) (٣)، وكان مسلمة قد فتح حصن (الغزالة) سنة ثمان وثمانين الهجرية كما ذكرنا سابقاً، والظاهر أنّ الروم استردوها من المسلمين ، فاستعادها مسلمة ثانية .

وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) ، غزا مسلمة أرض الروم، فافتتح (سَنْدَرَة) (٤) ، وهي حصن من حصون الروم التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن عاصمتهم (القسطنطينية) من الجنوب ، ومن الغزو عاد إلى الديار المقدسة، فحج بالناس في هذه السنة (٥) .

وفي سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣م) ، غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب) وفتحها وخرّبها ثم بناها بعد ذلك (٦) بعشر سنين (٧) أو تسع سنين (٨) . وكانت هذه المدينة للمسلمين من قبل ، وقد انتقض أهلها فأعادها مسلمة للمسلمين .

---

(١) الطبري (٤٦٨/٦) وابن الأثير (٥٦٩/٤) وابن خلدون (٣/ ١٤٥) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢) وسوسنة حصن من حصون الروم ، هو اكبر الحصون التي فتحها مسلمة في تلك الغزوة ، وفي النجوم الزاهرة (٢٢٥/١) نص علي : ويقال إنه بلغ الخليج ، والخليج بحر دون القسطنطينية انظر معجم البلدان (٤٦٠/٣) ، ومعنى هذا أن سوسنة تقع في المنطقة الجنوبية لمدينة القسطنطينية وأحد الحصون المنيعة للدفاع عنها من الجنوب .

(٢) برجمة : حصن للروم ، ورد ذكره في شعر جرير ، انظر معجم البلدان (١١٢/٢).

(٣) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم بلا د الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٠/٨) واثار البلاد واخبار العباد (٥٦٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٩٧)، والبلدان (٢٥) لابن الفقيه وتقويم البلدان (٣٨٤) ، وانظر ما جاء عن هذه الغزوة في الطبري (٤٦٩/٦) وابن الأثير (٥٧٨/٤) وابن خلدون (١٥٤/٣) والنجوم الزاهرة (١ / ٢٢٦) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٠٩/١) .

(٤) العبر (١٠٩/١) ، ولا ذكر لسندرة هذه في الكتب الجغرافية القديمة .

(٥) الطبري (٤٩١/٦) وابن الأثير (٥٨٢/٤) وانظر تاريخ ابن خياط (١٣٠/١) .

(٦) والنجوم الزاهرة (٢٢٩/١) والبداية والنهاية (٣٢٨/٩) .

(٧) البداية والنهاية (٩ / ١١٧) ، والصحيح بتسع سنين لانه بناها سنة ثلاث عشرة الهجرية انظر المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٣١١/١) .

(٨) البداية والنهاية (٩ / ٣٢٨)

وفي سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤م) غزا مسلمة الصائفة (١) في بلاد الروم.

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) ، غزا مسلمة أرض (الوضّا حيّة)، ففتح الحصن الذي فتحه الوضاح (٢) . وفيها أيضاً غزا مسلمة (بَرْجَمَة)وحصن (ابن عوف) وافتتح أيضاً حصن (الحديد) و (سرورا)(٣) وشتى بأرض الروم (٤) ، وكان مسلمة قد فتح حصن (الحديد) وحصن (برجمة) سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، والظاهر أنّ هذين الحصنين انتقضا ، فأعادهما مسلمة للمسلمين سنة سبع وتسعين الهجرية .

٢ - حصار القُسْطَنْطِينيّة

أدرك المسلمون أنّ حدودهم الشمالية مهددّة بالروم ، وأنّ فتح القسطنطينية يزيح عن كاهل الفاتحين أعباء الدفاع عن تلك الحدود .

والمغرب العربي من جهة أخرى ، كانت من أملاك الامبراطورية البيزنطية الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية ، وقد عانى المسلمون ماعانوا من أهوال في فتحها وفي الحفاظ عليها ، وما دامت القسطنطينية بيد الروم ، فهذه الأصقاع الواسعة معرضة للغزو وكلّما ضعف المسلمون أو تفرّق شملهم ، قوي الروم واشتدّ ساعدهم.

لذلك جرت عدّة محاولات لفتح هذه المدينة .

أول تلك المحاولات جرت سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٠م) في عهد عثمان ابن عفّان رضي الله عنه ، وكانت هذه الحملة بقيادة معاوية بن أبي سفيان أمير الشام آنذاك (٥) .

---

(١) البداية والنهاية (١٤٢/٩) والنجوم الزاهرة (٢٣٣/١) وتاريخ ابن خياط (٣١٨/١) .

(٢) الوضاح : قائد من قادة مسلمة ، انظر ابن الأثير (٨١/٥-٨٢)، والظاهر أنه من القادة المرموسين غير المشهورين ، وانظر ابن الأثير (٢٦/٥) حول هذا الفتح .

(٣) برجمة وحصن ابن عوف وحصن الحديد وسرورا ، حصون في منطقة (ملطية) ، انظر الطبري (٤٦٩/٦) وابن الأثير (٥٧٨) وابن خلدون (١٥٤/٣) .

(٤) البداية والنهاية (١٧٠/٩) والنجوم الزاهرة (٢٣٤/١ - ٢٣٥) ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٣١٩/١) .

(٥) العبر (٣٢/١) .

والمحاولة الثانية جرت في أيام معاوية بن أبي سفيان سنة خمسين الهجرية (٦٦٣م) ، وكانت هذه الحملة بقيادة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (١) .
ولكن هاتين الحملتين لم يكتب لهما النجاح (٢) .

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) بدأ سليمان بن عبدالملك بتجهيز الجيوش لفتح القسطنطينية (٣) بعد أشهر معدودات من توليه الخلافة ، فقد توفي سلفه الوليد ابن عبدالملك في جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين الهجرية (أواخر شباط — فبراير — ٧١٥م) ، فاقتفى سليمان خطة سلفه بضرب عاصمة الروم ضربة كبيرة بقوة جسيمة (٤) ، تلك الخطة التي لم يستطع سلفه تحقيقها في أيامه لانشغال جيوشه في حمل مهمة الفتح بجبهات مختلفة شرقاً وغرباً وشمالاً ، بالرغم من أنه مهّد لفتح القسطنطينية بتعرضه المستمر طيلة أيام حكمه بالجبهة الرومية على حدود دولته من الشمال .

---

(١) العبر (٥٦/١) ، وشارك في هذه الحملة عدد من كبار الصحابة ، منهم : الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وابو أيوب الانصاري الذي توفي في أثناء الحصار ودفن قرب القسطنطينية حيث يوجد قبره الآن ، وعبدالله بن العباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم.

(٢) بعد حصار القسطنطينية سنة خمسين الهجرية وإخفاق هذا الحصار ، عسكر المسلمون في ميناء كيزيكوس (Cyzicos) واتخذوه قاعدة أمامية لأعمالهم العسكرية في سبع سنوات ، وإلى ذلك يشير ابن الأثير في حوادث سنة أربع وخمسين الهجرية : « وفيها كان مشتى محمد بن مالك بأرض الروم وصائفة معن بن يزيد السلمي ، وفيها فتح المسلمون ومقدمهم جنادة بن أبي أمية جزيرة (أرواد) قرب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين ، وكان معهم مجاهد بن جبر فلما مات معاوية وولي ابنه يزيد أمرهم بالعود فعادوا قرب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين ، انظر ابن الأثير (٤٩٧/٣) ، ومما يفهم منه أن المراد بجزيرة أرواد هي جزيرة كزيكوس .

(٣) النجوم الزاهرة(٢٣٥/١) وابن خلدون(١٥٥/٣) والبداية والنهاية (١٦٩/٩) وأبو الفدا (٢٠٠/١) وانظر الطبري (٥٢٣/٦)

(٤) ولهاوزن — الدولة العربية وسقوطها (٢٠٩) ، والواقع أن المسلمين كانوا يستهدفون فتح القسطنطينية فقد ذكر(فازلييف) في تاريخه الكبير للدولة البيزنطية ، « أن العرب بعد أن أخفقوا في الاستيلاء على القسطنطينية سنة (٦٧٠ م) في عهد قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥») بسبب استعمال الروم للنار الاغريقية التي اخترعها إذ ذاك رجل سوري يدعى (جالينيكوس) ظلوا يترددون على القسطنطينية كل عام حتى سنة (٦٧٧م) ، وقد منى الأسطول العربي بكارثة كبيرة ، اذ هبت عليه عاصفة عنيفة ، فتحطمت معظم سفنه على الشاطئ الشمالي لآسيا الصغرى » . وفي نفس الوقت اخفقت كل المحاولات البرية التي قام بها العرب إذ ذاك ، فاضطر الخليفة الى استرجاع جنده =

وكان حرص سليمان على فتح القسطنطينية عظيماً، حتى كأنه لم يتول الملك أو لم يخلق . إلا لتحقيق هذا الحلم الذي راود الخلفاء من قبله من أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أيامه. والواقع هو أنّ الخلفاء جميعاً الذين واتتهم ظروفهم الداخلية والخارجية فكروا في فتح القسطنطينية ، والسبب أن البيزنطيين لم ينسوا أبداً البلاد الشاسعة الغنية التي كانت تابعة لهم وفتحها المسلمون ، وأنهم بذلوا قصارى جهدهم لاستردادها ، وأن هذه البلاد لا تكون آمنة من غزو الروم واستردادها ما بقيت للروم دولة عاصمتها القسطنطينية ، وهي البلدة الحصينة التي يسهل الدفاع عنها براً وبحراً

وكانت الخطة السَّوْقية (١) للمسلمين تتلخّص في مهاجمة الروم في عقر دارهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، لأن الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع .

وامضى سليمان سنة سبع وتسعين الهجرية في اعداد قواته الضاربة مادياً ومعنوياً لتكون قادرة على النهوض بواجب فتح القسطنطينية (٢) .

واستشار سليمان القادة المجربين ، ومنهم موسى بن نُصَير اللّخمي (٣) بالخطة المناسبة لفتح القسطنطينية ، فأشار عليه موسى بأن يفتح مادونها من المدن والرساتيق (٤) والحصون ، حتى يبلغ المدينة ، فلا يأتيها إلا قد هدمت حصونها ، ووهنت قوتها ، وقال موسى : « فاذا فعلت ذلك ، لم يبق بينك وبينها مانع ، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد » (٥) .

= وعقد معاهدة مع الدولة البيزنطية تعهدت الدولة بمقتضاها أن تدفع له ضريبة سنوية » . انظر :
(Vasiliev: Hist, de L'E mpire Byzntin, I,pp, 283 - 284)

(١) الاستراتيجية (Strategy) ، انظر المعجم العسكري الموحد (٨٤٢) – انكليزي – عربي .

(٢) ورد في تاريخ : العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٢٤) : « وقيل : إن سليمان لما ولي الخلافة حدثه جماعة من العلماء ، أن الخليفة الذي يفتح القسطنطينية اسمه اسم نبي ، ولم يكن من ملوك بني أمية من اسمه اسم نبي غيره ، فطمع فيها ، فاستعد لذلك ، ولم يشك أنه الذي يلي ذلك » ، وليس لذلك سند تاريخي أو علمي ، وقد حاصر القسطنطينية قبل أيام سليمان المسلمون في عهد عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان ، واسماهما ليسا اسم نبي ! ! .

(٣) انظر سيرته في : قادة فتح المغرب العربي (١/٢٢١ – ٣٠٩) .

(٤) الرساتيق : جمع رستاق ، وهي كلمة فارسية ، وهو كل موضع فيه مزارع وقرى ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٧ – ٣٨) .

(٥) انظر البداية والنهاية (٩/١٧٤ – ١٧٥) .

ثم استشار أخاه مسلمة : فأشار عليه بأن يدع مادونها من البلاد ويفتحها عَنْوة فمتى ما فتحت فان باقي ما دونها من البلاد والحصون تصبح بيد المسلمين، فقال سليمان : « هذا هو الرأي » (١) .

وأمضى الخليفة سليمان بن‌عبدالملك سنة يعمل بكل جد ونشاط وعزم لانجاز استحضارات قواته ، وكان الخليفة حين يعتزم أمراً خطيراً له ما بعده في مجال الاعداد العسكري تطبيقاً لخطة سَوْقِيّة حاسمة، يكتب إلى أمرائه على الأمصار ليعد كل أمير أو والٍ الجيش المناسب للعمل العسكري المناسب ، وهذا مافعله سليمان سنة سبع وثمانين الهجرية ، واتخذ من مدينة (دَابِق) (٢) بعيداً عن عاصمته (دمشق) مقراً له ، لئلا يشغل بأمور الدولة الأخرى، وليكون كل وقته من أجل إعداد القوات العسكرية القادرة على الفتح ، إذ تفرّغ لهذا الهدف الحيوي تفرغاً كاملا ، وبذل كل طاقاته المادية والمعنوية لتحقيقه .

وحَسْب سليمان أنه قضى مدة خلافته بـ(دابق)، من أجل انجاز استحضارات قوات فتح القسطنطينية قبل الحملة ، ومن أجل الاشراف على سير القتال في أثنائها حتى توفاه الله هناك ، فدفن فيها شهيداً بحق ، من شهداء فتح عاصمة الروم .

لم يبق أمام سليمان بعد اكمال استحضارات قواته وحشدها غير اختيار القائد المناسب لمثل هذه المهمة الحيوية ؛ فاختار أخاه مسلمة .

ففي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م — ٧١٧ م) ولّى سليمان أخاه مسلمة قائداً عاماً للقوات الغازية للقسطنطينية (٣) ، فسار مسلمة على رأس جيشه اللّجب

---

(١) انظر البداية والنهاية (١٧٥/٩) ، العنوة : أخذ الشيء بالغلبة ، وهو ضد الصلح ، انظر معجم البلدان (٤٠/١) .

(٢) دابق : قرية بقرب حلب من اعمال (عزاز) ، بينها وبين (حلب) أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب كان ينزله بنو مروان ، إذا غزوا الصائفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤)

(٣) الطبري (٥٣٠/٦) وابن الأثير (٢٧/٥) والبداية والنهاية (١٧٤/٩) وابو الفدا (٢٠٠/١) والعبر (١١٦/١) وابن خلدون (١٥٥/٣) مختصر تاريخ الدول لابن العبري (١١٤) ، وفي تاريخ الاسلام للذهبي (٣٠٢/٤) : « قال زيد بن الحباب : أنبأ الوليد بن المغيرة عن عبيدالله ابن بشر الغنوي عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الامير أميرها) ، قال : فدعاني مسلمة فحدثته بهذا الحديث ، فغزاهم » ، رواه أبو كريب واحمد بن الفرات عن زيد .

المؤلف من مائة وعشرين ألفاً (١) في رواية ، ومن مائة وعشرين ألفاً في البر ومائة وعشرين ألفاً في البحر (٢) يؤيد ذلك المصادر غير العربية (٣) ، وأرجح الرواية الاولى ، لصعوبة حشد مثل هذه القوات الجسيمة بالنسبة لذلك الوقت في جبهة واحدة ، كما أنّ المصادر الأجنبية تبالغ تعداد قوات المسلمين - خاصة البحرية منها - لتبرز أهمية النصر على تلك القوات وردها خائبة عن القسطنطينية دون أن تحقق أهدافها المرسومة .

لقد زعمت بعض تلك المصادر الأجنبية ، أن المسلمين حملوا قواتهم البحرية التي تعدادها مائة وعشرون الف مقاتل على ألف وثمانمائة سفينة (٤) ، وهذا ما لا يتيسر للمسلمين حينذاك .

ومع هذا ، فقد كان جيش مسلمة المؤلف من مائة وعشرين ألفاً ، برياً في اكثره وبحرياً منقولاً بالسفن في أقله ، حتى يستطيع فرض الحصار براً وبحراً في آن واحد ، كما سنجد ذلك في خطة مسلمة في الحصار حسب مجرى الحوادث للمعركة .

وكانت مدينة (دابق) هي القاعدة المتقدمة لحشد جيش مسلمة ، فقد سار مسلمة حتى نزل (دابق) وجاءته الأجناد من كل ناحية (٥) : من الشام والجزيرة (٦) ، فسار إلى أرض الروم وانضم إليه فيها جيش المسلمين الذين كانوا هناك (٧) ، وسلك طريق (مَرْعَش) (٨) فافتتح مدينة (الصَّقَالِبَة) (٩) . وهجم الشتاء ،

---

(١) دول الا سلام (٥٨/١) ومختصر تاريخ الدول (١١٥) والبدء والتاريخ (٤٣/٦) .

(٢) البداية والنهاية (١٧٥/٩) وانظر خطط الشام (١٢٣/١) .

(٣) فتح القسطنطينية (٣٨) : « تعلم المسلمون من حصارهم تجربة الحصار الأول ، أن ليس في استطاعتهم خرق الاسوار المنيعة ، لذلك بنوا خطتهم هذه المرة على إنزال بحري ، ويقال : إنهم أعدوا لذلك ألفاً وثمانمائة سفينة تنقل مائة وعشرين الف محارب جاهزين للانزال

(٤) فتح القسطنطينية (٣٨) . (٥) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥) .

(٦) البداية والنهاية (١٧٥/٩) . (٧) البداية والنهاية (١٧٤/٩) .

(٨) مرعش : مدينة الثغور بين الشام وبلاد الروم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥/٨) وهي مدينة صغيرة ، انظر تقويم البلدان (٢٦٢) بينها وبين مدينة (الحدث) وهي من الثغور خمسة فراسخ ، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (٢١٦) .

(٩) الصقالبة : جيل حمر الألوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٢/٥) والقاموس المحيط (٩٣/١) ولسان العرب (١٤/٢) ، وهم السلاف (Slaves) أو الجنس السلافي ، وجبال الروم هي : جبال طوروس ، ومدينة الصقالبة : مدينة تقع بين (دابق) و (عمورية) في جبال طوروس .

فانحرف مسلمة بجيشه إلى مدينة (أفْيِق)(١) وشتى بها ، وهي ليست القرية من (حوران) في طريق (الغور) وهو غور (الأرْدُن) المعروف ، إذ ليس من المعقول أن يعود إلى (الأردن) ليقضي الشتاء فيه ، والظاهر أن (أفيق) تقع في منطقة (عمورية) في السهل الواقع شمالي جبال (طوروس) ، وهذا السهل أقل برداً في الشتاء من جبال (طوروس) التي تغطيها الثلوج شتاءاً وفي اكثر شهور الربيع أيضاً .

ولما خرج الشتاء ، سار مسلمة إلى (القسطنطينية) حتى نزل (عمورية) ، وبطريقها (٢) (لِيُون) بن قُسْطَنْطين المَرْعشي ، فوادعه مسلمة وأعطاه رَهْناً وأخذ منه مثل ذلك ، على أن يناصحه ويظاهره على أهل (القسطنطينية) ويكون عوناً له ، وملك القسطنطينية يومئذ (تيودوس) وهو (ثيودوسيوس الثالث) الذي حكم من سنة ٧١٥م الى ٧١٧م وهو من أسرة (هِرَقل) (٣) .

وكان (ليون) أو (ليو) هذا ، نصرانياً من سكان مدينة (مَرْعش) وله بهـا كنيسة مشهورة تنسب إليه ، أتى القسطنطينية في أيام الفتن التي كانت بها ، فصار مشهوراً ببيع الخمر ، وكان فصيحاً بالعربية والروميّة . ثم إنه انخرط في سلك الجندية وشهد المعارك الدائرة بين المسلمين والروم وأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة ، فقدمه الروم ، ولم يزل ينتقل في المنزلة الى أن صار (بطريق)مدينة (عموريّة) وقيل : إنه لما جاء إلى (عموريّة) بكتاب الملك على أنه (بطريق) ردّوه وقالوا له : مثلك لا يلينا ، لأنك نبطي من أنباط العرب . فقال لهم : « إني لا أتولى عليكم إلا بأمركم ، وقد بلغكم حالي ورُجلتي وغَنائي ،وحالكم مختلط ، ومُلككم مضطرب ، والفتن كثيرة ، وهذا مسلمة بن عبدالملك قد شارف بلادكم ، وهو يُوقِع بكم ، فأدخلوني وفوِّضوا اليَّ أمركم ، فان قمتُ فيه كما تُؤثِرون وإلا فأخْرجوني واصنعوا بي ما أردتم » . فقالوا صدق : فأدخلوه إليهم وولّوه أمرهم ، فنزل به مسلمة وهو يريد (القسطنطينية) (٤) .

---

(١) أفيق : قرية من حوران في طريق الغور (الا ردن) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٠٧/١)
(٢) البطريق : رتبة عسكرية في جيش الروم ، وهو قائد فرقة ، والفرقة في جيش الروم تتألف من عشرة آلاف رجل بقيادة بطريق ، ويشابه البطريق في التنظيم الحديث قائد فرقة . برتبة لواء ، انظر عقبة بن نافع الفهري (٥٨) – الطبعة الرابعة .
(٣) انظر : الامبراطورية البيزنطية (٤٠١ – ٤٠٣) .
(٤) العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٣٦ – ٣٧) ، انظر : سنى ملوك الارض والانبياء (٦٩)

ولا تختلف هذه الرواية العربية كثيراً عن الرواية الأجنبية التي جاء فيها : أن (ليو) نشأ فلاحاً ثم اصبح جندياً مرتزقاً ، وتقدم في الجندية لشجاعته في القتال ، حتى توصل إلى القِمّة بفضل مقدرته وحدها ، وكان ما يزال شاباً (١) .

ولكن كيف اتصل مسلمة بليون : هل اتصل به مباشرة كما ذكرنا ، باعتبار أنّ مسلمة كان قد فتح (عموريّة) سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) فهو يعرف مداخلها ومخارجها وأهلها (٢) ؟

هناك رواية تذكر : أنّ (ليون) أتى الخليفة سليمان بن عبدالملك من(أذْرَبِيْجَان) وضمن له فتح الروم ، فوجّه مسلمة معه ، فسارا إلى (القسطنطينية) (٣)

وأرجح أنّ مسلمة اتصل مباشرة بليون ، الذي كان المسؤول عن المنطقة الأمامية للدفاع عن (القسطنطينية) بصفته بطريق (عموريّة) ، لذلك لم يذكر المؤرخون أنّ مسلمة صادف مقاومة تذكر في صفحة مسير الاقتراب أثناء تقدمه من (عموريّة) حتى (القسطنطينية) ، مما يدل على نجاح مسلمة في استمالة (ليون) إلى جانبه ومن الواضح أنّ (ليون) كان طموحاً جداً ، وكان يتطلّع إلى أن يكون امبرطورا الروم ، فوادع مسلمة كمرحلة لتولي السلطة تحقيقاً لمطامعه ـ خاصة بعد وفاة امبراطور الروم السابق (ثيودوسيوس الثالث) آخر اباطرة أسرة (هرقل) .

واستصحب مسلمة (ليون) ليدله على الطريق والعورات ، واخذ عهوده ومواثيقه على الوفاء والمناصحة (٤) ، وكان (ثيودوسيوس) ضعيف الرأي ، سيئ التدبير عاجزاً فيما تقلده من أمر الروم ، وكان أمر الروم مضطرباً وأيامهم أيام هرج ومرج (٥) .

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٨ – ٣٩) ، وفي تاريخ خليفة بن خياط (٣٢١/١) : أن مسلمة شتى بضواحي الروم .

(٢) جاء في البداية والنهاية (١٧٤/٩) : « ثم ان مسلمة داخل رجلا من النصارى يقال له : إليون وواطأه في الباطن ليأخذ له بلاد الروم » ، وانظر أيضاً البدء والتاريخ (٤٣/٦ – ٤٤) .

(٣) ابن الأثير (٢٧/٥) وابن خلدون (١٥٥/٣) وانظر الطبري (٥٣١/٦) الذي ذكر أن (ليون) قدم من (إرمينية) .

(٤) البدء والتاريخ (٤٤/٦) .

(٥) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٣٦)

أما جيش المسلمين بقيادة مسلمة ، فقد كان موضع اهتمام الخليفة سليمان بن عبدالملك ـ أخرج لهم الأعطية ، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، وأعلمهم بغزو (القسطنطينية) والاقامة إلى أن يفتحوها ثم سار سليمان من (بيت المقدس) الى (دمشق) وقد اجتمعت له العساكر ، فأمّر عليهم أخاه مسلمة ثم قال : « سيروا على بركة الله ، وعليكم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف » . ثم سار سليمان حتى نزل (مُرْج دابِق) ، فاجتمع إليه الناس أيضاً من المتطوعة والمحتسبين أجورهم على الله ، فاجتمع له جند عظيم لم يُرَ مثله (١) .

وانطلق مسلمة بهذا الجيش ، فلما دنا من (القسطنطينية) ، أمر كل فارس أن يحمل معه مُدَّيْن (٢) من طعام إلى عجز فرسه إلى (القسطنطينية) ففعلوا ، فلما أتاها أمر بالطعام فألقى أمثال الجبال ، وقال مسلمة للمسلمين : « لا تأكلوا منه شيئاً ، واغيروا في ارضهم وازرعوا » ، وعمل بيوتاً من خشب ، فشتى فيها وصاف ، وزرع الناس وبقى الطعام في الصحراء ، والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات ومن الزّرع (٣) .

هكذا كان جيش مسلمة من الناحية الادارية منظماً تنظيماً جيداً ، وكانت خطته الادارية خطة جيدة أيضاً ، وللخطة الادارية الجيدة أثر بالغ في احراز النصر ، لأن الجندي يمشي على بطنه كما يقول المثل العسكريّ المشهور .

ولكنّ أرزاق جيش مسلمة لم تقتصر على ذلك ، بل جاء ته العُلُوفَة والأطعمة

---

(١) البداية والنهاية (١٧٥/٩)

(٢) المد : من المكاييل الاسلامية ، يختلف من قطر اسلامي الى اخر ، والمد السوري يساوي (٢٫٨٤) كغم ، انظر التفاصيل في هنز (Walther Hinz) – المكاييل والاوزان الاسلامية (٧٤ – ٧٧) – منشورات الجامعة الأردنية – ترجمة الدكتور كامل العسلي – عمان – ١٩٧٠ وانظر ترتيب القاموس المحيط (١٩٢/٤) ومعجم متن اللغة (٢٦/٥) ، وتنفيذاً لأمر مسلمة يحمل كل فارس مدين ، أي يحمل ما يساوي (٥٫٦٨) كغم ، وحمل مثل هذه الكمية القليلة غير معقول ولا يؤدي الى الغرض المطلوب ، وهو تكديس كيات من الطعام لغرض حصار طويل وارى أن مسلمة في قوله : يحمل كل فارس مدين ، لا يريد المعنى الحرفي ، بل يريد : أن يحمل كل فارس ما يستطيع من ارزاق ، والمقدار الذي يحمله الفارس هو عشرون كيلوغراماً كمعدل ، وهذا نتيجة لخبرتي الشخصية باعتباري ضابطاً في صنف الخيالة (سلاح الفرسان) .

(٣) الطبري (٥٣٠/٦) وابن الأثير (٢٧/٥) ، وفي التنبيه والاشراف (٢٩٠): وكان مسلمة بن عبدالملك لما بنى مدينته التي على خليج القسطنطينية كما سماها : مدينة (القهر) .

ونقلت إليه من الضواحي ومن رساتيق الروم وجاءته في المراكب (١) ؛ كما حشد لجيشه السِّلاح ، فجمع آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك(٢) وهكذا استكمل مسلمة قضاياه الادارية تسليحاً وتجهيزاً وارزاقاً وعلفاً وإسكاناً ، فأعدّ بخطته الادارية هذه متطلبّات النصر إدارياً .

تلك هي مجمل خطة مسلمة الادارية ، فما هي خطته العسكرية في الحصار ؟

تحتل مدينة (القسطنطينية) موقعاً سَوْقياً (استراتيجياً) فريداً ، حبته الطبيعة بأهم عوامل الدفاع الطبيعية التي تساعد المدافعين عنها على الثبات . تحوطها من الشرق مياه البسفور ، وتحـــدها من الغرب والجنوب مياه (المرمرة)،ويقسمها (القرن الذهبي)الى قسمين عظيمين هما ؛ (بيرا) وهو القسم الشمالي الشرقي ، و (إستانبول) (٣) وهو المدينة البيزنطية الحقيقية . وتحتل (استانبول) مثلثاً عظيماً المرتفعات الصخريّة ، تشرف قاعدته على (المرمرة) وضلعه الأيمن على ميـــاه (القرن الذهبي) والميناء ، وكان كل من هذين الجانبين يحرسها سور واحد . أما الضلع الثالث وطوله ستة أميال ، فهو الجانب المتّصل بالقارة الأوروبية ، يحميه خط مزدوج من الأبراج والحصون المنيعة ، وخندق واحد مزدوج ، وفيه عدة أبواب ، وفي كل زاوية من زوايا المثلّث الثلاث قلعة منيعة ، وكانت مياه القرن الذهبي الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي ، تغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور (غَلَطة) وسور (إستانبول) .

وهكذا تهيأت أسباب الدفاع المديد لهذه المدينة : أسباب طبيعية ، واسباب صناعية ، مما جعلها موقعاً حصيناً وقلعة آمنة ،من الصعب على الغزاة احتلالها (٤) .

---

(١) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٤) .

(٢) العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٢٦) .

(٣)استانبول : يسمى المسلمون(Constan Tinople) بالقسطنطينية ، أما فيما يتصل باسمها البيزنطي الذي يقال إن منه اشتق لفظ (استانبول) وهو الاسم التركي الحديث ، فان المسعودي في النصف الأول من المئة الرابعة الهجرية والعاشرة الميلادية كتب في كتابه : (التنبيه) ص ١٣٨ الروم في أيامه كانوا يسمون عاصمتهم : (بولن) – Polin أي Bulin ومعناها : المدينة : واذا ارادوا عنها أنها دار الملك لعظمها قالوا : (استن بولن) ، ولا يدعونها القسطنطينية ، وانما المسلمون تعبر عنها بذلك » ، واستن معناها : دار الملك أو العاصمة ، واستن بولن معناها مدينة دار الملك ، المدينة العاصمة . و (استن بولن) هي : (استانبول) .

(٤) بين العقيدة والقيادة (٣٥٥ – ٣٥٦) وانظر مواقف حاسمة (١٧٥) .

وكان بنو أميّة دولة وجيشاً ، يهتمون كثيراً بجمع المعلومات المفصلة الدقيقة عن اعدائهم ، وكانت وسائلهم واساليبهم للحصول على هذه المعلومات كثيرة ومتعددة ، كالعيون والأسرى والتجار والمرابطين والمجاهدين ونحوهـم ، فكانت القيادتان السياسية والعسكرية لبني أميّة في الشّام تعمل لتحقيق أهدافها الحيوية وهي على بصيرة من أمرها ، فهي تعمل مفتوحة العينين في النور لا مغمضة العينين في الظلام

لقد كانت مخابرات المسلمين تعرف كل شيء عن الروم : قواتهم ، قياداتها ، تنظيمها ، تسليحها ، تدريبها ، ما تعانيه من ثغرات ، طبيعة بلادها ، مواردهـا التموينية ، مشاكلها الداخلية والخارجية ، وغيرها من المعلومات المفصّلة الدقيقة .

جعل مسلمة من (عمورية) قاعدة متقدّمة ، واتّجه شمالاً نحو (القسطنطينية) فلاقى مقاومة في طريقه (١) تغلّب عليها ، حتى وصل إلى (الخليج) وهو المضيق الذي يصل بين بحر (بُنْطُس) (٢) ، وهو البحر الذي نطلق عليه اليوم (البحر الاسود) وبين (القسطنطينية) والبحر الابيض المتوسط ، فقطع (الخليج) حتى نزل (القسطنطينية) ، وعبر من موضع يقال له (أبِدُس) (٣) ، يكون عرض (الخليج) هناك غَلْوَة(٤)سهم ـ مقدار ثلاث مئة ذراع الى أربع مئة ـ وهو الخليج الذي يدعى بحر (بُنْطُس) يقبل من (إرْمِينِيّة) ، حتى إذا صار إلى (القسطنطينية) افترق من وجهين : شمالاً وشرقاً ، فاذا بلغ (أبِدُس)ضاق حتى يصير مقدار غلوة بين حبلين وبين (أبدُس) والقسطنطينية مئة (الميل العربي = كيلو متران) (٥) في مستوى من الارض وسهولة (٦) .

---

(١) انظر M-A Cheira- (La Lutte Entra Arabes Et Byzantins) (١٨٠ – ١٨١) وفيه : قامت الحملة باعمال ضد نيقيا وبرغر وساردوس .

(٢) بحر بنطس : بحر يعرف بهذا الاسم عند اليونانيين ، وهو البحر الذي يتفرع منه خليج القسطنطينية أوله في أطراف بلاد الترك في الشمال ويمتد الى ناحية المغرب والجنوب حتى يتصل ببحر الشام ، وقبل اتصاله ببحر الشام يسمى : بنطس ، انظر معجم البلدان (٦٦/٢) و (٢٩٣/٢) ، وهو البحر الاسود .

(٣) لم أجد لها ذكراً في المصادر الجغرافية العربية القديمة التي بين ايدينا ، والموجود هو (اندس : مدينة على غرب خليج القسطنطينية .

(٤) الغلوة : مقدار رمية سهم ، وتقدر بثلاث مئة ذراع الى اربع مئة .

(٥) الميل : أربعة آلاف ذراع شرعي ، انظرمعجم البلدان (٣٥/١) وهو كيلو متران ، انظر المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري (٩٥) .

(٦) العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٢٦) وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤) .

ومن الواضح أنّ مسلمة عبر من غرب القسطنطينية ، فمدينة (أبِدُس) تقع بعد القسطنطينية بالنسبة للبحر الاسود استناداً الى نص ما جاء عن العبور : « حتى إذا صار إلى القسطنطينية (يريد البحر الأسود) افترق من وجهين : شمالاً وشرقاً، فاذا بلغ (أبِدُس) ضاق . . . الخ » ، فهو — أي مسلمة قد عبر من المضيق الغربي للقسطنطينيةلى كما أنه لا مضايق شمال هذه المدينة يمكن عبورها بسهولة ويسر . ثم إنّ (أبِدُس) التي ورد ذكرها في هذا النص هي مدينة (أنْدُس) ، وهي مدينة على غربي خليج القسطنطينية بين جبلين ، بينهما وبين القسطنطينية ميل في مستوى من الأرض (١) .

ولا أتصور أنّ هناك مسوّغاً لعبور مسلمة على بعد مئتي كيلومتر (مئة ميل عربي) من القسطنيطينية ، فهذه مسافة شاسعة جداً من ناحية ، ولا وجود لمضيق على بعدمئتي كيلومتر من القسطنطينية شمالاً أو جنوباً يمكن عبوره بجيش ضخم مع تجهيزاته العسكرية ووسائل تنقله البرية ومواده الاعاشية ونحوها ، والظاهر أنه عبر من مسافة ميل واحد عربي (كيلومترين) من غرب القسطنطينية . لانه عبر من (أندُس) وهذه المسافة مناسبة حقاً ، والموقع بين جبلين يخفي العبور عن رصد العدو ، وقد استفاد مسلمة من السفن التي رافقت حملته في العبور ، والظاهر أنه لم يلق مقاومة تذكر في عبوره .

وبذلك أنهى مسامة مرحلة (مسير الاقتراب) (٢) من خطته التي رسمها لفتح القسطنطينية ، وبدأ مرحلة جديدة ، هي مرحلة : فرض الحصار في سنة ثمان وتسعين الهجرية (١٥ آب — أغسطس ٧١٦م) (٣) .

طوق مسلمة بقواته البرية والبحرية مدينة (القسطنطينية) ، فقد طوّقت قواته البرية هذه المدينة بالقرب من الخندق الذي يحيطها من جوانبها البريّة يجري الماء فيه (٤) . كما سدّت هذه القوات المنافذ البحرية من الشمال ، بوضع مراكز مراقبة

---

(١) انظر معجم البلدان (٣٤٧/١) ، ومن المحتمل أن تكون مدينة (ابدس) قد حرفت الى (أندس)

(٢) مسير الا قتراب : تقدم الجيش من قواعده الرئيسة أو قواعده الامامية أو المتقدمة الى ساحة القتال حتى التماس بالعدو .

(٣) La Lutte entre arabes E7 Byzantin.s)
انظر التفاصيل (١٨٠ — ١٨٥)

(٤) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٧)

بريّة قوية على الساحل مزوّدة بالمنجنيقات ، ومن المحتمل جداً أن تستفيد هذه المراكز من السفن المحلية التي يعمل فيها المسلمون أو المرتزقة للمعاونة في سد المنافذ البحرية للقسطنطينية من الشمال ، ولكن هذه المراكز لم تكن كافية ، وهي ثغرة في خطة الحصار ، لأنّ تلك المنافذ البحرية يجب أن تغطّى بمراكز مراقبة بحرية قويّة لا مراكز بريّة قويّة وقوات بحرية غير كافية .

أما البحرية الاسلامية التي جاءت من سورية ومصر ، فقد قاتلت أسطول الروم في (رودس) وأسرت بعض سفنه ودمّرت أخرى ، وكان بحّارة الأسطول الرومي في عصيان حينذاك ، ينقصهم الضبط والنظام ، كما هاجمت البحرية الاسلامية سواحل آسيا الصغرى حتى وصلت إلى قرب القسطنطينية ، فسدّت المنافذ البحرية لهذه المدينة استكمالاً لخطة تطويقها .

وعند حلول موسم الشتاء أمر مسلمة أن يبني رجاله بيوتاً من الخشب (١) ، لتقيهم المطر والثلج والبرد ، وأمر الناس بالزراعة ، فصاف وشتى وهم يأكلون من زراعتهم وطعامهم الذي استاقوه مُدَّخَراً .(٢)

وكان هدف مسلمة من خطته الادارية وخطة العمليات ، هو ما ذكره علناً لرجاله : « إنالا نرجع عن هذا البلد إلاّ أن نفتحها إن شاء الله » (٣) ، وكان سبيله لتحقيق هدفه : فرض الحصار المديد ، لكي يستسلم المحاصَرون جوعاً .

ومنذ فرض الحصار على القسطنطينية حتى انسحب المسلمون إلى قواعدهم ، جرت حوادث القتال في صفحات ثلاث .

الصفحة الاولى من تاريخ فرض الحصار في اواخر صيف سنة ثمان وتسعين الهجرية (١٥ آب – أغسطس ٧١٦م) حتى تولى ليون الثالث عرش القسطنطينية في سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢٥ – مارت – مارس – ٧١٧م) (٤) ، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم : صفحة (المبادرة) .

وبالرغم من أنّ المصادر الجغرافية العربية وغير العربية لا تذكر معلومات وافية عن اعمال الجيوش الاسلامية والرومية ، إلا أننا نستطيع أن نذكر أنّ مسلمة في هذه الصفحة هاجم أسوار القسطنطينية مرتين : الأولى بحشد أربعة آلاف مقاتل ، وكان اتجاه

---

(١) الطبري (٥٣٠/٦) وابن الاثير (٢٧/٥) وابن خلدون (١٥٥/٣) والبداية والنهاية (١٧٤/٩)

(٢) ابن خلدون (١٥٥/٣) وانظر الطبري (٥٣٠/٦) وابن الاثير (٢٧/٥) والبداية والنهاية (١٧٤/٩)

(٣) البداية والنهاية (١٧٤/٩) .

(٤) البحر الزاخر (٣٦٧/٢) .

هجومه منطقة (باب الذهب) ، والثانية بحشد ثلاثة آلاف مقاتل ، ولكنه لم ينجح في هذين الهجومين (١) .

واستطاع المسلمون أن يؤثروا في الروم المحاصرين تأثيراً شديداً ، فأرسل الروم إلى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً ليرحل عنهم ، فلم يقبل مسلمة (٢) بهذا العرض ، واصر على فتح المدينة .

وأقام مسلمة محاصراً القسطنطينية قاهراً لأهلها (٣) ، مانعاً لهم من كل مرفق براً وبحراً (٤) ،وكان معتمداً على جيش المسلمين وعلى جماعة من الروم على رأسهم ليون ، الذي عاون مسلمة في هذه الصفحة حتى استحوذ على ثقته التامة .

وبعث مسلمة ليون إلى أهل القسطنطينية في رسالة ، فلما دخل عليهم ليون قالوا له : ردّه عنا ونحن نملكك علينا (٥) ، فاستوثق منهم وتولى عرشهم (٦) ، وبذلك تكللت جهود ليون التي بذلها لتولي العرش بالنجاح .

---

(١) La Lutte entre arabes Et Byzantine
انظر التفاصيل في (١٨٠ – ١٨٥) .

(٢) ابن الاثير (٢٧/٥) وابن خلدون (١٥٩/٣) .

(٣) الطبري (٥٣٠/٦) . (٤) العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٢٧) . .

(٥) البداية والنهاية (١٧٤/٩) وفي ابن الاثير (٢٧/٥) : فقالت الروم لليون : إن صرفت عنا المسلمين ملكناك .

(٦) ابن الاثير (٢٧/٥) والبدء والتاريخ (٤٤/٦) ، وقد جاء في ابن الأثير (٢٧/٥) : اتى ليون مسلمة فقال له : « إن الروم قد علموا أنك لا تصدقهم القتال ، وانك تطاولهم ما دام الطعام عندك ، فلو أحرقته أعطوا الطاعة بايديهم » ، فامر به فاحرق فقوي الروم وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون . وقيل : إنما خدع ليون مسلمة بأن يسأل أن يدخل الطعام الى الروم بمقدار ما يعيشون به ليلة واحدة ليصدقوه بأن أمره وامر مسلمة واحد ، وانهم في امان من السبى والخروج من بلادهم ، فأذن له ، وكان ليون قد أعد السفن والرجال ، فنقلوا تلك الليلة الطعام فلم يتركوا في تلك الحظائر إلا ما لا يذكر ، واصبح ليون محارباً ، وقد خدع خديعة لو كانت امرأة لعيبت بها . وفي ابن خلدون (١٥٥/٣) : قال ليون لمسلمة : « لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنك قصدتهم بالقتال ، فتأخذهم باليد ، وهم الا ن يظنون مع بقاء الزرع أنك تطاولهم » ، فأحرق الزرع ، فقوى الروم ، وغدر ليون ، فاصبح محارباً ، وجاء في الطبري (٥٣١/٦) ما جاء في ابن الأثير (٢٧/٥ – ٢٨) ، ومن المعلوم أن ابن الأثير نقل نص ما جاء في الطبري . وفي البداية والنهاية (١٧٤/٩) : قال ليون لمسلمة : « إنهم – أي أهل القسطنطينية – ما داموا يرون هذا الطعام يظنون أنك تطاولهم في القتال ، فلو أحرقته لتحققوا منك العزم ، وسلموا إليك البلد سريعاً » ، فامر مسلمة بالطعام فاحرق ، ثم انشمر ليون بالسفن ، فأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيش في الليل ، واصبح في البلد وهو محارب المسلمين . –

لقد كان بامكان مسلمة أن يحقق إنجازات عسكرية في هذه الصفحة أكثر مما حققه عملياً فيها ، لولا ثقته بليون الذي منّاه بفتح القسطنطينية بالمكر والخداع فاستنام مسلمة لتلك الأمانيّ العِذاب ، واخيراً ظهر له أنّ ليون لم يكن حرياً بكل هذه الثقة ، وهو يعمل لنفسه مسخراً مسلمة لتحقيق مصالحه الذاتية .

والمهم هو أن نذكر أنّ قسماً من المؤرخين صوروا أن مسلمة كان ضحية لمكيدة من مكايد ليون جعلته يحرق اكداس الأرزاق والعلف لجيش المسلمين ، وهذه مكيدة لا يقع بها عاقل كمسلمة ، بل لا يقع بها اي عاقل ، كما أنّ اختلاف الروايات لمختلف المؤرخين ، يؤدي الى زعزعة الثقة بتلك الروايات ، هذا بالاضافة إلى أنها روايات متهافتة لا يصدقها عاقل : فهي أقرب إلى حكايات الأخبار بين الاخباريين منها إلى حقائق المؤرخين .

ولعل مصدر تلك الروايات أعداء الأمويين ، وما أكثرهم عدداً وما أشد عداوتهم واعظمهم لددا . تلك هي الصفحة الأولى من صفحات حصار القسطنطينية وهي صفحة (المبادرة) ، وهي المبادرة التي لم يستفد منها مسلمة كما ينبغي ، لتحقيق نصر عسكري وسياسي للمسلمين ؛

— وفي البدء والتاريخ (٥/٤٤) : قال ليون لمسلمة : « لا يفتحون ما لم يتنح عنهم » ، فارتحل مسلمة وتنحى إلى بعض الرساتيق ، فدخل ليون ولبس التاج وقعد على سرير الملك وأمر بنقل الطعام والعلوفات من خارج ، فملأوا الأهراء وشحنوا المطامير . وفي العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٢٨) : أن مسلمة أرسل ليون مع جماعة من أهل ثقاته الى أهل القسطنطينية يقول لهم : لست أرحل عنكم حتى تملكوا مولاي ليون ويسلم اليه ملككم ثم أرحل عنكم وادعكم وبلادكم ودينكم وكنائسكم . . .

وارى أن هذه أشبه بالاساطير منها بالحقائق التاريخية ، فليس هناك قائد يحرق مواد جيشه الغذائية ، وليس هناك قائد يفسح المجال لعدوه بأخذ مواد جيشه التموينية ، وليس هناك قائد يتخلى عن الحصار ويذهب بعيداً تاركاً غلات جيشه نهباً للعدو كما أن الحجج التي قدمها ليون لمسلمة لا تقنع عاقلا ، إذ كيف يستسلم العدو لجيش اذا أحرقت المواد التموينية لذلك الجيش ، بينما المعقول أن يستسلم العدو إذا وجد خصمه قد كدس الارزاق الكافية لادامة حصار طويل ، وكل محاصر يستسلم غالباً من الجوع ، ولا نعرف أحداً استسلم من الشبع ! !
وليس إجماع المؤرخين حجة دامغة على صحتها ، فالخلف ينقل عن السلف ، وقد اتهم بنو امية بكثير من التهم – خاصة وان تاريخهم سجل بعد زوال ملكهم وتولى أعدائهم من بعدهم ، فلا يستبعد أن يفتري مفتر ، فيروي ما سمعه المؤرخ ، فيأتي من بعده فينقلون تلك الفرية . ، وقد كان مسلمة معروفاً بالدهاء ، فكيف تجوز عليه خدعة لا تجوز على أي إنسان حتى لو كان من أغبى الاغبياء !

أما الصفحة الثانية فتبدأ بتولي (ليون الثالث) (١)عرش القسطنطينية في سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢٥ مارت — مارس — ٧١٧م) إلى حلول شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (كانون الأول — ديسمبر ٧١٧ م) ، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم : صفحة (المصابرة) .

(١) ليون الثالث : ليون المرعشي ، انظر البدء والتاريخ (٦/ ٤٣ — ٤٤) وهو ليون بن قسطنطين المرعشي ، انظر العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥) ، نشأ فلاحاً ثم أصبح جندياً مرتزقاً وتقدم في الجندية لشجاعته في القتال ، ووصل الى القمة بفضل مقدرته وحدها ، وكان ما يزال شاباً ، انظر فتح القسطنطينية (٣٨ — ٣٩) . وفي ٢٥ مارت (مارس) سنة ٧١٧ م جلس ليون الثالث على عرش الامبراطورية البيزنطية الشرقية واسس عائلة جديدة عرفت بالعائلة (الايسوريانية) وكان من أهلها (ايسوريا) واسمه الاصلي كونون ، وقد قدح فيه المؤرخون الذين من عادتهم القدح والذم ، ووصفوه بأنه كان طوافاً على حمار له في الأمصار يبيع الفراخ ، وان أباه هاجر من اسيا الصغرى واقام في نواحي (ثراسة) وعمل في بيع الحشيش . عمل ليون جندياً وترقى بالتدريج واشتهر اسمه وعلا قدره في الحرب ، فعينه نسطاس قائداً للفرق الأنضولية حتى أختير امبراطوراً ، انظر البحر الزاخر (٣٦٧/٣) ، وكان نصرانياً من سكان (مرعش) ، فأتى (القسطنطينية) في أيام الفتن التي كانت بها وصار مشهوراً ببيع الخمر ، وكان فصيحاً بالعربية والرومية ، وقد حضر الحرب الدائرة بين المسلمين والروم ، فأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة ، فقدموه ولم يزل ينتقل في المنزلة الى ان صار (بطريق) عمورية . وقيل : إنه لما جاء الى عمورية بكتاب الملك على انه (بطريق) ردوه وقالوا له : مثلك لا يلينا ، لا نك نبطي من أنباط العرب . فقال لهم : « إني لا أتولى عليكم الا بأمركم ، وقد بلغكم حالي ورجلتي وغنائي ، وحالكم مختلط ، وملككم مضطرب والفتن كثيرة ، وهذا مسلمة بن عبدالملك شارف بلادكم ، وهو يوقع بكم ، فأدخلوني وفوضوا الي أمركم ، فان قمت به كما تؤثرون ، والا فاخرجوني واصنعوا بي ما اردتم » ، فولوه أمرهم ، أنظر العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥ — ٢٦) .

وبدأ سلطنته بالمدافعة والمحافظة الكبيرة على القسطنطينية ، ولما خلص المملكة وانقذها من العرب عكف على إحياء رسومها وتقويتها ، فنتج من ادخال القوانين والانظمة الجديدة فيها عصر جديد في سعادة المملكة وفلاحها ، واستتب السلم والأمن فيها ، وقد حكم البلاد أربعاً وعشرين سنة ، وبعد موته خلفه ابنه قسطنطين الخامس وتولى العرش في (١ حزيران ٧٤١ م) سنة ثلاث وعشرين ومائة الهجرية ، انظر البحر الزاخر (٣٦٧/٣) ، وانظر ايضاً تاريخ سني ملوك الارض والانبياء (٦٩) وابن الأثير (٣٣٥/١) ، وليو الثالث هو (Leo the Isaurian)

وظل المؤرخون يعتبرون اسرة (ليو الثالث) إيسورية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن في سنة ١٨٩٦ م كتب العالم الالماني (شينك) في مجلة الا بحاث البيزنطية في مؤسس هذه الأسرة ، فجعله سورياً لا إيسورياً ، انظر ما جاء حول ذلك في :

(Schenk, k, kaiser Leones, lll, Byz.،v,296 FF)

ثم جاء بعده من أيده ، انظر :

Jorg,N.,Origines de L'Iconoclasme Bulletin Acad, Roumaine X1.(1924),147.

وجاء بعده من عارضه ، انظر : (Kulakovsky,JA,Hist,of Byzantium,lll'319.)

ومهما اختلفت الروايات في حقيقة علاقة (ليو الثالث) بمسلمة بن عبدالملك والطريقة التي اعتلى بها عرش القسطنطينية وتاريخ حياته قبل اعتلاء العرش وبعده ، إلاّ أنه كان امبراطوراً عظيماً وقائداً متميزاً محنكاً ، وكان حاذقاً في وضع الخطط العسكرية (١) .

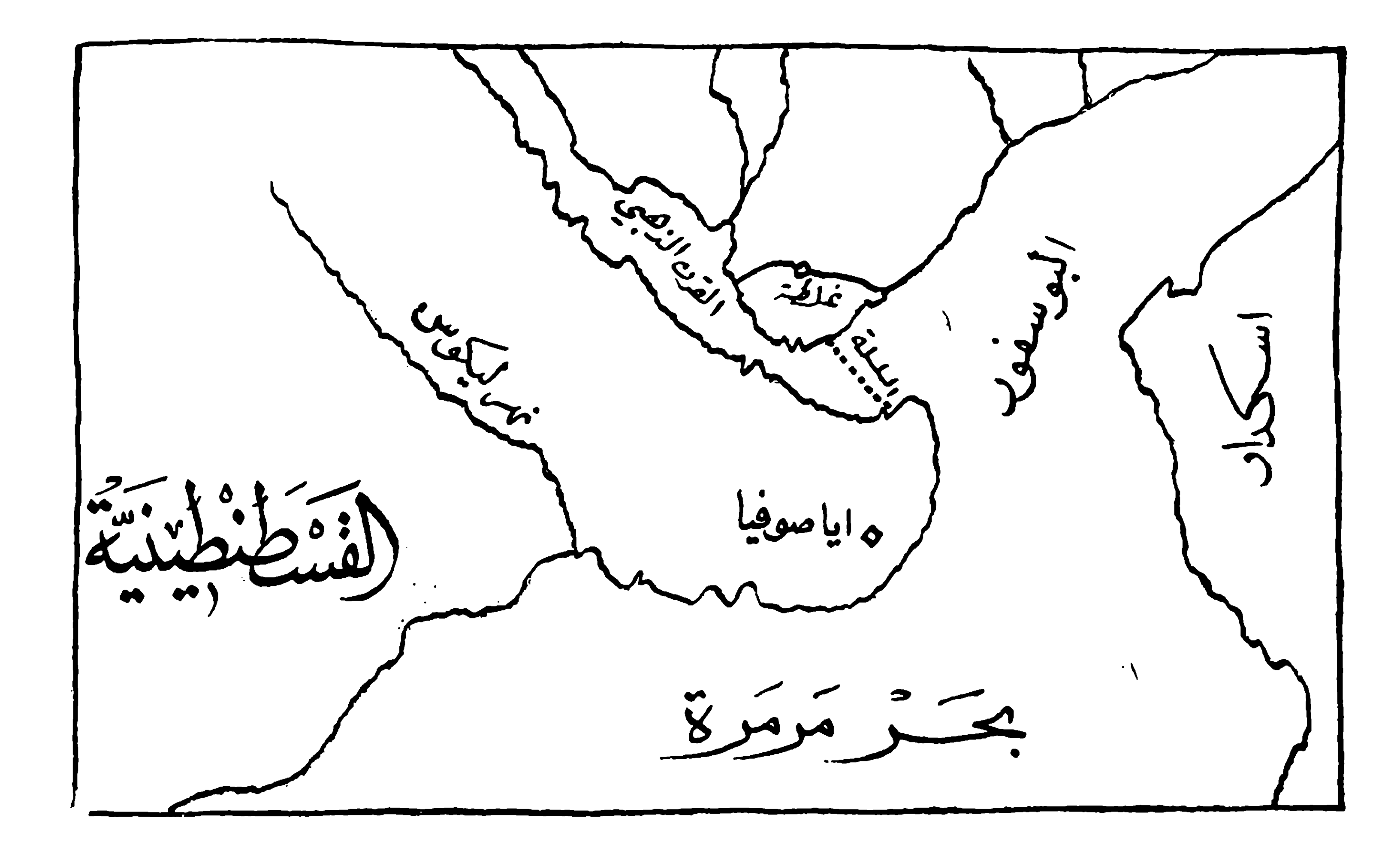
فقد قدّر أنّ الروم سيواجهون حصاراً طويلاً ، لذلك بذل جهده في تكديس المواد التموينية ، ولما كان هناك خطر الموت جوعاً عند نجاح الحصار البحري الذي فرضه المسلمون على القسطنطينية ، عمل جهده لتقوية سفنه — وكان عددها قليلا جداً بالنسبـــة لأسطول المسلمين ، فهي ليست قادرة على النهوض بمهاجمة الاسطول الاسلامي ، لذلك أمّن حمايتها بسلسلة حديدية هائلة أقامها لسد مدخل المرفأ ، فمنع أي سفينة قادمة من الخارج من دخوله ، وكانت هذه السلسلة هي : (السد البحري)(٢) الذي تعلّمه منه المدافعون عن القسطنطينية من بعده حتى فتحت على يد محمد الفاتح . وكان لهذا السد دور كبير في الدفاع عن المدينة المحاصرة ، واثر في منع الاسطول الاسلامي من التغلغل في المياه القريبة من هذه المدينة ، وفي حماية السفن البيزنطية التي تجمعت وراءه من غارات أسطول المسلمين .

ولكن تكديس المواد التموينية وإقامة السد البحري ، مع الاحتماء بأسوار حصينة منيعة : والاستفادة من موقع القسطنطينية الحصين المساعد على الدفاع ، غير كافية لترجيح كفّة الروم على المسلمين وأخذ (المبادرة) نهائياً منهم ، لانّ كل هـــذه العوامل — على أهميتها — عوامل دفاعية وليست تعرضيّة ، لذلك ركّز (ليون الثالث) طاقاته لا بتكار سلاح جديد تعرضي ، فتهيأ له سلاح سرى فتّاك هو : (النار

— والسبب في هذا الاختلاف أن (ثيوفانس) المرجع الرئيس في سيرة (ليو) قال عنه إنه من ابناء مرعش (جرمانيكية) ومن أصل اسوري انظر : (Theophanes,Chronographia,ed,Boor,391)
وكان انسطاسيوس الذي نقل كتاب ثيوفانس الى اللاتينية في منتصف القرن التاسع قال في ترجمته : ان ليو كان من ابناء جرمانيكية ، وانه كان سوري المولد ، انظر ما جاء حول ذلك في :
(Chronographia Tripertila,eb.Boor,251.)
والواقع أن اسطفانوس الأصغر يؤيد القول بالأصل السوري ، ويوافقه على ذلك المؤرخ العربي المجهول صاحب كتاب : العيون والحدائق (٢٥) ، انظر كتاب : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم (١/٢٨٩ — ٢٩١) .

(١) فتح القسطنطينية (٣٨ — ٣٩) .

(٢) السد البحري هو لاغلا ق ممر القرن الذهبي : يبدأ من شمال المدينة ، وينتهي عند حي (غلطة) وبالطبع استعملنا الاسماء الجغرافية الحديثة التي مازال مستعملة حتى اليوم ، لامكان إيضاح مكان هذا السد البحري بالنسبة للدراسين المحدثين ، انظر الخريطة المرفقة .



القسطنطينية
نهر ليكوس
القرن الذهبي
غلطة
السلسلة
البوسفور
اسكدار
ايا صوفيا
بحر مرمرة

اليونانية) ، ذلك السلاح الذي نقل (المبادرة) من أيدي المسلمين الى ايدي الروم وأثر في مصير المعركة كلها تأثيراً حاسماً .

والمظنون أن رجلا من اهل الشام اسمه (كالينكوس) هو الذي نقل هذا السلاح الى الروم ، في وقت كان الروم فيه بأمس الحاجة الى هذا السلاح (١) .

والمعتقد أن : (النار اليونانيّة) خليط من النفط والكبريت والقار ، ولكن نسب التركيب كانت سرية ، فكانت السنة القائمين بأعداد الخليط تقطع لأغراض الأمن والكتمان ، وكان هذا سراً خاصاً بالقسطنطينية فقط ، احتفظت به طيلة أربع مئة عام (٢) .

وقد أفادت هذه النار المدافعين مادياً ومعنوياً ، فاستفادوا منها لفتح ثغرات برية وبحرية بين صفوف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية تسربت منها المواد التموينية للمحاصرين من الروم ، كما رفعت معنويات الروم التي كانت منهارة .

كما أضرّت هذه النار بالمسلمين مادياً ومعنوياً أيضاً ، فكبدتهم خسائر فادحة بالارواح والمواد والسفن ، مما أدى الى زعزعة معنوياتهم التي كانت عالية في الصفحة الاولى من الحصار : صفحة المبادرة .

لقد أصبح موقف الجانب المدافع بقيادة الامبراطور الجديد الذي أعاد تنظيم قواته ، وادخر لهم ما يكفيهم من مواد تموينية ، مستفيداً من أسوار قوية ودفاعات منيعة تحيطهم من كل جانبٍ ، ومن سفن جيدة في مرفأ محمي حماية قوية ، توافرت لهم النار اليونانيّة المؤثّرة .

أما موقف المسلمين ، فلم يكن ميؤساً منه ، فكانت الامدادات تصلهم بانتظام ولكنها لم تكن بشكل تجعل التفوق الى جانبهم ، وكان أملهم باستعادة المبادرة كبيراً ، فقاوموا وصبروا وصابروا انتظاراً لقوات ضاربة متفوقة تصلهم من القاعدة المتقدمة (دابق) التي يرابط فيها سليمان بن عبدالملك ليشرف على الامدادات بنفسه .

أما الصفحة الثالثة وهي صفحة : (المكابرة) ، فتبدأ من شتاء سنة تسع وتسعين

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي (١٧٩/١) .

(٢) فتح القسطنطينية (٣٩) ، وفي تاريخ التمدن الاسلامي (١٨٠/١) : ان هذه النار مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والادهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة ، كانوا يشدونها الى مقدم السفينة ، فيقذفون منها السائل مشتعلا ، أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان المتلوث بالنفط ، فيقع على السفن او البيوت فيحرقها .

الهجرية (كانون الثاني – يناير ٧١٨م) الى انسحاب المسلمين من حصار القطنطينية في بداية حكم عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه .

كان موقف الر وم في هذه الصفحة أفضل من موقف المسلمين بكثير ، وكان عامل الوقت بجانب الروم على المسلمين ، فكلما تقدم الوقت ازداد الروم قوة وازداد المسلمون ضعفا .

فقد أدى شتاء عام تسع وتسعين الهجرية (٧١٨م) القارس البرد بثلوجه وامطاره الغزيرة ، الى موت آلاف المسلمين ، لانهم تعوّدوا الطقس الحار الدافئ كما شلّت الرياح الهوج العاتية والتيارات البحرية الجارفة في (البسفور) سفنهم عن العمل (١) ونفدت المواد التموينية للمسلمين ولم يبق منها إلاّ أقل القليل ، فأكلوا الدواب والجلود واصول الشجر وكل شيءٍ غير التراب (٢)

كما انهارت معنوياتهم ، حتى كان الرجل منهم يخاف أن يخرج من العسكر وحده (٣) .

وكان الخليفة سليمان بن عبدالملك مايزال مقيماً في (دابق) ، فلم يقدر أن يمد المسلمين بشيءٍ من الأزواد لكثرة البرد والثلوج (٤) .

لقد كانت الظروف قاسية بالنسبة للمسلمين في صفحة (المكابرة) بقدر ما كانت مؤاتية بالنسبة للروم .

ولعل الشتاء القارس (٥) كان من أقوى حلفاء الروم على المسلمين ، ولكن المسلمين تحملوا وصبروا الى درجة (المكابرة) ، حتى ضاق بهم الامر ، فكان لا بدّ لهم من التخلي عن الحصار والانسحاب الى قواعدهم .

ولكن لم تكن هذه العوامل وحدها هي التي جعلت كفة الروم ترجح على كفة المسلمين في ميدان القسطنطينية بالرغم من أهميتها ، إذ كان لتشبثات (ليو الثالث) التعبوية والادارية أثر ملموس في رجحان كفة الروم في ذلك الميدان .

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٩) .
(٢) الطبري (٥٣١/٦) وابن الأثير (٢٨/٥) وابن خلدون (١٥٥/٣) ، وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤) .
(٣) الطبري (٥٣١/٦) وابن الأثير (٢٨/٥) .
(٤) العيون والحدائق (٣٣) وانظر الطبري (٥٣١/٦) وابن الأثير (٢٨/٥) وابن خلدون(١٥٥/٣)
(٥) كان شتاء سنة ١٩٤١ قارساً في روسيا ، فكان من اهم عوامل إخفاق المحور في هجومهم على الاتحاد السوفياتي .

فقد كان من ترتيبات (ليو) التعبوية قصف تجمعات المسلمين بالنار اليونانيّة ، فأدى ذلك الى ابتعاد قواتهم عن الاسوار ، فاصبح موقفها المراقب ، ولم يعد لهـــا تأثير مباشر على المدينة المحاصرة (١)

كما أنّ (ليو) دأب على شن الغارات الليلية على قوات المسلمين ، كما دأب على وضع الكمائن لهم ،وهذا أدى الى تردي معنويات المسلمين كما ذكرنا . كما حرّض (ليو) البلغار فهاجموا جيش المسلمين ، ولكنهم هزموا !

كما بذل جهداً في وضع الكمائن لضرب مؤخرة قوّات المسلمين طُرق تموينهم ، مما أدى إلى حرمانهم من المواد التموينيّة في وقت هم بأمس الحاجة اليها .

وعند ما حلّ الربيع ، كانت قوّات المسلمين قد ضعفت كثيراً ، ولكنهم كانوا يأملون في استعادة (المبادرة)إلى أيديهم بالاستفادة من تفوقهم في البحر ، فأعدوا خطة هجومية من اتجاه البحر . وكان (ليو) ينتظر هذا الهجوم لا نزال ضربته الكبرى لتنفيذ خطتهم الهجومية . ولما اقتربت سفن المسلمين من المرفأ كانت سفن (ليــو) بانتظارها ، فغمرتهم بالنار اليونانية ، وكانت النتيجة (دماراً كاملاً للسفن المهاجمة

---

(١) يبدو أن (ليو الثالث) حرض الصقالبة على المسلمين الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية ، لكي يخفف ضغط الحصار على المدينة المحاصرة .

فقد جاء في البداية والنهاية (٣٢٨/٩) : أن مسلمة غزا القسطنطينية فحاصرها ، وافتتح مدينة الصقالبة وكسر ملكهم البرجان ، ثم عاد الى محاصرة القسطنطينية . . . انتهى .

وفي معجم البلدان (٥/ ٣٧٢) : الصقالبة بلاد بين بلغار وقسطنطينية . . . انتهى

أقول : ليس من المستبعد أن يستعين (ليو الثالث) بجيرانه الغربيين لمحاربة المسلمين المحاصرين للقسطنطينية ليشغل قواتهم ويكبدها الخسائر تخفيفاً لضغطها على مدينته ، فأجبر مسلمة على تخصيص قوة مناسبة من قواته لمحاربتهم ، مع ابقاء قواته الضاربة محاصرة للقسطنطينية ، والمصادر الا جنبية تؤكد أن (ليو الثالث) تلقى مساعدات حربية من الصقالبة ، وهذا من جملة محاولات (ليو الثالث) لكسب المعركة وجعل المسلمين يخفقون في مهمة فتح القسطنطينية .

والصقالبة هم ما يسمون : (Sulaves)

والمصادر الأجنبية تؤكد معاونة البلغار لليو الثالث ، ولكنها تبالغ كثيراً في جدوى تحت المعاونة، فتدعى أن البلغار فاجأوا جيش مسلمة من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً ، انظر التفاصيل في (The Ophanes، Chron، 395 - 399)

فكم كان عدد البلغار المهاجمين حتى يقتلوا عشرين الفاً من المسلمين ! وكيف استطاع البلغار أن يفاجئوا جيش مسلمة من الوراء ! وهل كان جيش المسلمين نائماً ! .

إن المصادر الاجنبية التي ذكرت هذا الخبر لا تخلو من مبالغات غير منطقية ولا تستقيم مع الفكر العسكري .

(٢) الطبري (٥٣٢/٦)

فقد انهالت عليهم النار اليونانيةمن كل جهة : من السفن ، ومن اسوار المدينة ، ومن البر . وفي الارتباك الذي نتج عندما حاولت سفن المسلمين الانسحاب طلباً للنجاة ، أخذت تصطدم الواحدة بالأخرى ، فقفز الرجال الى البحر وغرقوا فيه ، وتحطمت هياكل السُّفن ، وهوت الصواري ،وضاعت المجاذيف . وفي تيار البسفور القوي ،انقلبت سفن كثيرة وغرقت ، وعندما انتهت المعركة ، لم تبق سفينة من سفن المسلمين في مدى النظر سالمة ، ويقال : انّ خمس سفن منها فقط نجت وعادت إلى سورية لتروي القصة . وكانت القصة هي قصة النار اليونانية التي تصب على سفن المسلمين من قدور كبيرة موضوعة على دكاك ، أو تقذف بكرات متوهجة حمراء من الحجارة اوالحديد ، او ترمى بالاسهم اوالرماح المغمورة بالسائل الملتهب أو تنفخ في أنابيب طويلة من النحاس مثبتة في مقدم السفن ، فتحدث دخاناً اسود ثم انفجاراً يصم الآذان ، ومن ثمّ يَنتشر لهيب لا يمكن إيقافه ويسير حتى على الماء (١) .

لقد كانت هذه المحاولة الهجومية آخر سهم في جعبة مسلمة ، استعمله لاستعادة (المبادرة) (٢) من الروم ، ولكن لم يكتب لمحاولته النجاح .

ولم يكن مسلمة بدرجة من الغفلة بحيث لا يدري ما حلّ بجيشه مادياً ومعنوياً ، وبخاصة بعد نجاح (ليو) في تكديس الأرزاق الكافية لقواته ، وكان مسلمة يعلم انّ المسلك الوحيد المفتوح امامه هو : الانسحاب .

ولكن أمر هذا الانسحاب لم يكن بيده ، بل كان بيد الخليفة سليمان الذي كان مرابطاً في(دابق)،معنياً بفتح القسطنطينيةأشد العناية،ولا يرضى بالانسحاب ولا يوافق عليه .

ومات سليمان بن عبدالملك بدابق لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين الهجرية (٣) فتولى الخلافة من بعده عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فوجّه إلى مسلمة وهو

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٩ – ٤٠)

(٢) تشبه هذه المحاولة ما فعله الجيش الالماني سنة ١٩٤٤ في الهجوم على قوات الحلفاء المتفوقة في الجبهة الغربية ، واطلق على عملياته اسم : تعرض الاردين ، انظر التفاصيل في كتاب : المشير فون رونشتد (٢٧٠ – ٢٨٨) .

(٣) الطبري (٥٤٦/٦) وابن الأثير (٣٧/٥) والعبر (١١٨/١) والمسعودي (١٨٢/٣) ، وفي شذرات الذهب (١١٦/١) والعيون والحدائق (٣٣) ، أن سليمان توفي لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين الهجرية ، وكذلك في التنبيه والاشراف (٢٧٥) .

محاصر للقسطنطينية ومره بالقفول منها بمن معه من المسلمين (١) ، ووجّه اليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً ، وحثّ الناس على معونتهم ، وكان عدد الخيل التي وجّهها لمسلمة خمس مئة فرس (٢) ، لأنه كان قدأصاب المسلمين مجاعة فقواهم بذلك (٣)

وكان قرار عمر بن عبدالعزيز بانسحاب مسلمة حصيفاً صائباً ، لا لأنّ عمر غير ميال إلى حروب الفتح والاستيلاء (٤) ، بل لأن موقف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية كان ميؤساً منه ، فأمر بانسحابهم حقناً لدمائهم ، بعد أن بلغ بهم الجهد (٥) ، إذ لم يغفل أبداً عن غزو الروم دفاعاً عن حدود أرض الشام الشمالية . وليس صحيحاً أنه لو طال أجله لأجلى المسلمين عن الاندلس لأنه رآى مقامهم فيها غير طبيعي لاحاطة الأعداء بهم (٦) ، لأن (ناربون) من أعمال الأندلس فتحت في أيامه وحصنت (٧) ، كما سمح بامتلاك الفاتحين

(١) تبالغ المصادر الاجنبية في خسائر مسلمة ، ومجمل ما ذكرته تلك المصادر : جاء شتاء سنة ٧١٧ م – ٧١٨ م بثلج دام ثلاثة أشهر ، فمات عدد كبير منجنود مسلمة بالبرد وداء الزحار وفي ربيع سنة ١٧١٨ م ، وصل اسطول احتياطي من مصر وجيش جديد من طرطوس . واحتل هذا الجيش شاطئ البسفور الاسيوي ، ورسا الاسطول في مياهه ، فتسللت سفن النار الرومية الى مرسى الاسطول المصري فاحرقته ونزلت قوة من الروم وراء الجيش الجديد فباغتته ومزقته إرباً . وبدأت المجاعة تهاجم صفوف مسلمة ، ثم فاجأه البلغاريون من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين الفاً ، فتراجع عن عاصمة الروم بعد أن فقد معظم جيشه ، وتعرض الباقي من اسطوله لعاصفة في بحر ايجة ، فلم يعد الى شواطئ الشام سوى خمس سفن فقط ، أنظر التفاصيل في
(Canrd, M., Expé Tions Arbaes , Journa.L Asiatique 1929, 102 - 80)
والمبالغة واضحة للغاية ، إذ كيف تسللت سفن النار الرومية الى مرسى الاسطول المصري فاحرقته ! ! أكان هذا الاسطول في سبات عميق الم يدافع عن نفسه ؟
وكيف فاجأ البلغاريون جيش مسلمة من الوراء ! ! ألم يتخذ مسلمة تدابير الحماية ! ألم يكن له دوريات وارصاد ! ثم كيف يمكن أنيتسلل البلغاريون من وراء جيش مسلمة ومن أين ! تلك مبالغات لا تستحق الرد عليها لأنها لا يمكن أن تحدث في الحرب فعلا .

(٢) الطبري (٦/٥٥٣) وانظر ابن الأثير (٥/٤٣) والعيون والحدائق (٣٩) وانظر سيرة عمر بن عبدالعزيز (٣٢) وانظر المعارف (٣٦٠) والبداية والنهاية (٩/٣٢٨) وتاريخ خليفة ابن خياط (١/٣٢٦)

(٣) العيون والحدائق (٣٩) ، وانظر سيرة عمر بن عبدالعزيز (٣٢) .

(٤) يوليوس ولهاوزن – الدولة العربية وسقوطها (٢١٨) .

(٥) خطط الشام (١/٥٥٢) . (٦) خطط الشام (١/٥٥٢) .

(٧) الدولة العربية وسقوطها (٢١٨) .

للارض في الاندلس ، مستهدفاً تعلق المسلمين بارضهم عن طريق امتلاك الارض ، وقيل : إنه اتخذ عمر بن الخطاب رض الله عنه مثالا له فيما عمله بالهند ، فلو لم لم يعط عمر بن الخطاب المحاربين الأرض في الهند ، لكان الدفاع عن هذا القطر مستحيلا (١) . وبالطبع لم تفتح الهند في أيام عمر بن الخطاب ، والمقصود بالهند المناطق المتاخمة لها من بلاد فارس .

اماسبب رد جيوش المسلمين من الشرق ، ومنعهم من التوغل فيه قائلا : « يكفى مافتح الله على المسلمين من فتوح »(٢) ، فسببه المباشر تردى الاوضاع العسكرية في تلك المناطق .

والواقع أن عمر بن عبد العزيز ورث تركة مثقلة بالفوضى ، فكان همه الاول موجهاً الى السياسة الداخلية ، فأحدث تغييراً فيها (٤) ، إذ ليس من المعقول أن تعج بلاده بالفوضى وهي قاعدة الفتح ومرتكزه ، ثم يصرف همه الى الفتح ، فيكون كالذي يشيد قصراً على جرف هارٍ .

كما أنّ مدّ الفتح الاسلامي كان قد بلغ أوجه ، وفقد الدافع الأول لاستمراره وهو الجهاد في سبيل الله ، فغيّر الناس مابأنفسهم ، واصبح اكثرهم يشهد الفتوحات للغنائم .

لقد أحسن سليمان بن عبدالملك في الاعداد والامداد ، فقد وضع مهمة فتح القسطنطينية فوق كل مهماته العسكرية والادارية ، وجعل لها الاسبقية الاولى على كل اعماله الاخرى ، وقضى أيام خلافته كلها في (دابق) ، وارسل ولده داءود الى القسطنطينية مع مسلمة (٤) ، دليلا على شدة حرصه على فتحها ، وامر مسلمة أن يقيم على القسطنطينية حتى يفتحها أو يأتيه أمره (٥) ، فلم يأمره بالانسحاب حتى توفاه الله دليلا على اصراره البالغ على تحقيق الفتح .

---

(١) Dozy, Recherches (1881,),1,76

(٢) خطط الشام (١/٢٥٥) . (٣) الدولة العربية وسقوطها (٢١٨) .

(٤) العيون والحدائق (٣٨) وبقي مع مسلمة الى نهاية الحملة

(٥) العيون والحدائق (٣٢) ومختصر تاريخ البشر لا بي الفدا (١/٢٠٠) .

كما أحسن سلمة في قيادته ، فبقي محاصراً للقسطنطينية ثلاثين شهراً حتى أكل عسكره الميتة والعظم وقتل منهم خلق كثير (١) فما وهن ولاتوانى ولا ضعف عن النهوض بواجبه .

كما أحسن عمر بن عبدالعزيز في قراره بانسحاب المسلمين عن القسطنطينية ، لأنّ الموقف العسكري كان يتطلب إصدار مثل هذا القرار ، ولو كانت كفة المسلمين راجحة في حينه ، لكان من المستحيل عليه الامر بانسحاب المسلمين ، ولكان هناك مسوّغ للادعاء بأن عمر بن عبدالعزيز غير ميال لحروب الفتح ، دون تمحيص للموقف العسكري الراهن .

---

(١) البدء والتاريخ (٤٤/٦) ، وقد بدأ الحصار في ١٥ آب (أغسطس) ٧١٦م وانتهى في ١٥ آب (اغسطس)٧١٨ م كما تنص على ذلك المصادر الا جنبية وبذلك يكون حصار المسلمين للقسطنطينية عامين لا ثلا ثين شهراً .
اما المصادر العربية فتنص على أن الا نسحاب جرى في أيام عمر بن عبدالعزيز أي تشرين الا ول (اكتوبر) سنة ٧١٨ م أي أن حصار المسلمين للقسطنطينية سنتان وشهران .
وارى ان المسلمين لا يمكن سحبهم بعد استلا م أمر الا نسحاب مباشرة ، أي بعد تولي عمر ابن عبدالعزيز الخلا فة مباشرة ، فلا بد من اتخاذ تدابير الا نسحاب حسب خطة مرسومة حتى لا ينقلب الانسحاب الى هزيمة ، وهذا يستغرق ما لا يقل عن اربعة أشهر ، لامكان ترقيق الجبهة والانسحاب تدريجياً ، وبذلك يكون ما جاء في البدء والتاريخ ، من حصار المسلمين للقسطنطينية لمدة ثلا ثين شهراً صحيحاً واقرب الى المنطق العسكري ، وانظر أيضاً مختصر تاريخ الدول (١١٤) حول حصار المسلمين للقسطنطينية لمدة ثلا ثين شهراً .
وفي البداية والنهاية (٣٢٨/٩) : فلما ولي عمر بن عبدالعزيز أرسل اليهم بالبريد يأمرهم بالرجوع الى الشام فحلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية ، فبنوا له جامعاً ومنارة ، فهو بها الى الآن يصلي ، فيه المسلمون الجمعة والجماعة . . . انتهى .
أقول : لا نستبعد أن الروم بالرغم من رجحان كفتهم في الا شهر الا خيرة من حصار القسطنطينية ، الا أنهم كانوا يتمنون انسحاب المسلمين عنهم ، لطول بقائهم محاصرين ، ولخوفهم من قدوم امدادات جديدة من الرجال والا رزاق ترجح كفه المسلمين عليهم ، لذلك رضخوا لشرط مسلمة وبنوا جامعاً ، ومما يدل على ضعف قوة الروم في أيام انسحاب مسلمة ، عدم قيام الروم بمطاردة المسلمين في أثناء انسحاب المسلمين .
لقد كانت قوات الروم قادرة على تحمل اعباء حرب دفاعية ، ولكنها لم تكن قادرة على تحمل حرب تعرضية ، لذلك لم يستطيعوا مطاردة المسلمين بعد انسحابهم .
وفي حوادث سنة خمس وخمسين واربع مئة (أن ملك الروم عمر جامع مسلمة في القسطنطينية ارضاءاً لطغرلبك ، وعلق فيه القناديل ، وجعل في محرابه قوساً ونشابة ، انظر ابن الاثير (٢٨/١) .

إنّ عمر بن عبدالعزيز ، مظلوم بهذا الادعاء الذي صدر عن مؤرخين غيرعسكريين ذوي اختصاص بالقضايا العسكرية ، ومثل هذا الحكم خارج عن نطاق اختصاص المدنيين ، وفاقد الشيئ لايعطيه ، ولم يكن عمر بن عبدالعزيز وشهرته كلها في حرصه على تطبيق تعاليم الدين الحنيف ، ليجمّد فرض الجهاد،وهو روح الاسلام الحركي وبدونه يبقى الاسلام جثة هامدة بدون روح .

ولم يستطع المسلمون الذين كانوا بقيادة مسلمة فتح القسطنطينية من جراء أخطاء سَوْقِية تعبوية ارتبكتها قيادتهم القادرة ، ولا من جراء تهاون قواتهم وضعفها ، ولكنهم أخفقوا في فتحها لأسباب عسكريّة قاهرة : منها مناعتها الطبيعيّة والاصطناعية التي سهّلت أمر الدفاع عنها ، ولرصانة أسوارها وخنادقها المحيطة بها قوّة ومتانة ، ولأنّ الحصار من جراء ذلك طال أمده كثيراً فاستغرق ثلاثين شهراً والعرب في طبيعتهم لا يصبرون على حصار طويل الامد ، لان برد شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (٨١٨ م) كان قارساً شديداً بصورة غير اعتيادية (١) ، والعرب لا يتحملون البرد القارس الشديد،وهذا البرد غير الاعتيادي حرمهم من الامدادات العسكرية والتموينيّة ، والجندي لا يقوى على البرد وهو جائع ، واخيراً وليس آخراً مقاومتهم بسلاح جديد لا علم لهم بأسلوب الوقاية منه وليس لديهم سلاح يقاومه ، وهو النار اليونانية التي فتّ استعمال الروم لها في مقاومة العرب بعضدهم واثر في معنوياتهم وكبدهم خسائر فادحة بالارواح والسُّفن والمعدّات .

وتاريخ الحرب في جميع العصور ، يقرِّر أنّ من أهم أسباب عوامل النصر هو استعمال سلاح فتّاك جديد لا يتوقعه الخصم ، أو استعمال أسلوب قتاليّ جديد لا يتوقعه الخصم ، أو استعمالهما معاً في الزمان والمكان المناسبين بشكل لا يتوقعه الخصم ، وكل ذلك يباغت هذا الخصم ويربك قيادته وخططها المرسومة ، والمباغتة كما هو معروف هي أهم مبادئ الحرب على الاطلاق

ومن الانصاف أن نضيف الى عوامل انتصار الروم في الدفاع عن القسطنطية عاملا آخر هو : كفاية (ليو الثالث) المتميزة في القيادة ، وتشبعه بمزية إرادة القتال

واذا كان هناك ما يلام عليه مسلمة في حصار القسطنطينية ، فهو عدم استفادته

---

(١) العيون والحدائق (٣٢) .

كما ينبغي من صفحة : (المبادرة) ، في التركيز بالهجوم على المدينة المحاصرة وإدامة زخم الهجوم عليها أولاً ، وثقته غير المحدودة بحليفه (ليو) ، لان الذي يخون بلاده وقومه أولى أن يخون غير بلاده وغير قومه ، فكانت هذه الثقة العمياء بهذا العميل لا مسوّغ لها ثانياً ، فالحرب من القضايا المصيرية ، ولا بدمن إدخال أسوإ الاحتمالات في كل ما يؤثر في نتائجها من قريب أو بعيد (٢) .

إنّ حصار القسطنطينية (١) كان ملحمة من ملاحم تاريخ الحرب المهمّة ولكنها لم تكن معركة حاسمة من معارك تاريخ الحرب ، على الرغم من محاولات المؤرخين الاجانب اعتبارها معركة حاسمة ، بادعائهم أنّ المسلمين لو فتحوها

---

(١) ورد في كتاب : فتح القسطنطينية ، ما نصه : « لو سقطت القسطنطينية عام (٧١٧ م) ، لما عاشت المسيحية ، ولذلك فالعالم المسيحي مدين الى (ليو الثالث) بالحفاظ على المدينة والمسيحية لمدة (٥٠٠) سنة أخرى ، ولولاه لكان من المحتمل جداً أن يتبدل مجر ى التاريخ ، فلو نجح المسلمون سنة (٧١٧م) ، لكان من المحتمل أن يكون عالمنا إسلا مياً بحتاً » .

أقول : وهذا الادعاء لا يخلو من مبالغة ، لتضخيم انتصار الروم وجعله من الا نتصارات الحاسمة في دينهم في تلك المدينة وفي البلاد التي فتحها العثمانيون ، وقد فتح المسلمون أرض الشام والعراق ومصر في الصدر الا ول للاسلام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وما يزال المسيحيون في تلك البلاد حتى اليوم !

(٢) أفاض (بروكس E. W. Brooks) في سرد غزوات المسلمين في اسيا الصغرى . مستقياً معلوماته مع التعليق عليها في بحثه الموسوم : العرب في اسيا الصغرى من سنة (٦٤١) م الى سنة ٧٥٠م)، وعنوان بحثه The Arats in Asia Minor,641 To 75o ص٢٢ المنشور في مجلة الدراسات الهلنية Jorwrnal of Hillenis Studies المجلد(١٨) سنة (١٨٩٨م) .

وقد عالج موضوع حصار القسطنطينية العظيم في ايام خلافة سليمان بن عبدالملك في مقال نشره في مجلة الدراسات الهلنية أيضاً (المجلد ١٩ لسنة ١٨٩٩م) بعنوان : « حملة سنة (٧١٦ م الى سنة ٧١٨م) بحسب المراجع العربية » :

The Campain of 716 to 718 from Arabis Sources

وتناول هذا الموضوع من الجانب البيزنطي الأستاذ (بوري J.B. Bury) في كتابه : The HisTory of the Later Roman Empire) المجلد الثاني ص (٤٠١) .

وهناك دراسات في هذا الموضوع كثيرة ، ترجم بعضها الى العربية ، وكلها تجعل حصار القسطنطينية معركة حاسمة ، وهي ليست كذلك بحال من الا حوال .

لاصبحت أوربا قارة إسلامية (١) .

والواقع أنها كانت معركة تعبوية ، ولو فتحها المسلمون حينذاك ، لاصبحت حدود الدولة الشمالية اكثر أمناً واستقراراً ، وربما امتددت الفتوح الى قسم من بلاد غربي أوربا ، لانّ أوضاع الدولة الاسلامية داخلياً ، لم تكن مستقرّة في تلك الايام ، بل كانت مضطربة تسودها الفوضى والفتن والقلاقل والاضطرابات فكانت الدولة في شغل شاغل لاقرار الأمن الداخلي ، ولم تكن في موقف يسمح لها بالانطلاق في مجالات الفتوح .

وقد استفاد الرُوم من دروس حصار القسطنطينية استفادة كبيرة ، فكانوا يطبقونها في الدفاع عن مدينتهم منذ انسحب المسلمون عنها بقيادة مسلمة ، وفي صدّ محاولات غيره من القادة المسلمين من بعده لفتحها ، وفي دفاعهم عنها حتى أيام السلطان محمد الفاتح (٢) ، وهذا مكسب عظيم للرّوم .

لقد كان حصار القسطنطينية ملحمة رائعة بالنسبة للمسلمين والرّوم على حد سواء.

يتبع

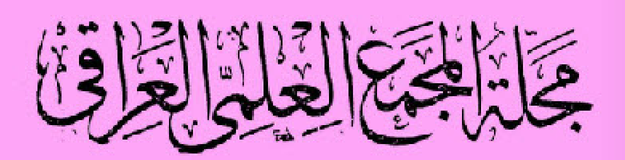
محمود شيت خطاب

---

(١) انظر مثلا ماجاء في كتاب : فتح القسطنطينية – برناردين كيلتي Bernardine Kielty ص (٤٠) ، وقد ذكرنا نص ما جاء في هذا الكتاب سابقاً .

(٢) انظر سيرته في كتابنا : بين العقيدة والقيادة – ص (٣٥١ – ٤٦٦) ، وانظر ما جاء فيه حول غلق القرن الذهبي بسلسلة حديدية هائلة في ص (٢٥٦) من هذا الكتاب ، وهو درس عسكري استفاده في ذلك الزمن المتأخر امبراطور الروم حينذاك من (ليو الثالث) الذي كان أول من استعمل مثل هذه السلسلة في ايام حصار القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبدالملك .

ومن المعلوم ان السلطان محمداً الفاتح فتح القسطنطينية يوم الثلاثاء (٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٧٥هـ – ٢٩ مايس – مايو – ١٤٥٣م) ، انظر ص (٤٠٦) من : بين العقيدة والقيادة .



المجلد الثامن والعشرون



١٣٩٧ هـ — مطبعة المجمع العلمي العراقي — ١٩٧٧ م

فهرس المجلد الثامن والعشرين

من مجلة المجمع العلمي العراقـــي

مَسْلَمَةُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ مروان

فاتح شطر الأنضول ومحاصر القُسْطَنْطينية

بقلم اللواء الركن محمود شيت خطاب

٣ ـ توطيد الأمن الداخليّ

أ ـ القضاء على حركة شَوْذب الخارجيّ :

في سنة مئة الهجرية (٧١٨ م) ، خرج شَوْذَب الخارجيّ ، وهو بِسْطام من بني (يَشْكُر) (١) في (جُوْخي) (٢) ، وكان في ثمانين رجلاً .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامله بالكوفة ، ألاّ يُحرّكهم حتى يُسفِكوا دماء ويُفسدوا في الأرض ، فان فعلوا وجّه إليهم رجلاً صليباً حازماً في جُند .

وبعث عبدُ الحميد والي الكوفة محمد بن جَرير بن عبدالله البَجَليّ (٣) في ألفين : وأمره بما كتب عمر بن عبدالعزيز إليه ؛ كما كتب عمر إلى بِسْطام الخارجيّ : يسأله عن مخرجه ، فقدم كتاب عمر إلى بِسْطام وقد قدم عليه محمد ابن جَرير ؛ فقام بأزائه لا يتحرك .

وكان في كتاب عمر بن عبدالعزيز إلى بِسْطام : « بلغني أنك خرجتَ غضباً لله ولرسوله ، ولستَ أولى بذلك مني ؛ فهلمّ إليّ أُناظرك ، فان كان الحق بأيدينا ، دخلتَ فيما دخل الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك » .

وكتب بِسْطام إلى عمر : « قد أنصفتَ . وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » .

---

(١) هو يشكر بن بكر بن وائل ، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٠٨) .

(٢) جوخى : وردت في معجم البلدان (٣ / ١٦١) : جوخا : اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد ، ولم تكن ببغداد مثل كورة جوخا .

(٣) انظر سيرة والده : جرير بن عبدالله البجلي في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ – ٣٧١) .

ووصل الرّجلان إلى عمـــر ، وناظراه فاقتنعا بوجهة نظــره (١) .

ومات عمر بن عبد العزيز رضى اللهعنه سنة إحدى ومئة الهجرية (٢)(٧١٩م) ومحمد بن جرير مقابل الخوارج لا يتعرّض إليهم ولا يتعرّضون اليه ، كل منهم ينتظر عودة الرُّسل من عند عمربن عبدالعزيز ، فتوفي عمر والأمر على ذلك (٣) .

وتولىّ يزيد بن عبدالملك بن مروان الخلافة بعهد من اخيه سليمان بعد عمر ابن عبد العزيز (٤) ، فأحب عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أمير الكوفة أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك ،فكتب إلى محمد بن جرير يأمره بمناجزة شَوْذب .

ولما رأى الخوارج محمداً يستعدّ للحرب ، قالوا : «ما فعل هؤلاء هذا إلاّ وقد مات الرجل الصالح » يريدون عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه .

ونشب القتال بين الطرفين ، فأُصيب من الخوارج نفر ، وقتل الكثير من أهل الكوفة وانهزموا ، وجرح محمد بن جرير فدخل الكوفة ، وتبعهم الخوارج حتى بلغوا الكوفة ، ثم رجعوا إلى مكانهم .

ووجه يزيد بن عبدالملك تميم بن الحُباب في ألفين ، فحاربه الخوارج وقتلوا أصحابه ، ولجأ فلول جيشه إلى الكوفة وإلى يزيد بن عبدالملك هاربين .

وأرسل يزيد قوّة بقيادة نَجْدَة بن الحَكَم الأزدِيّ فقتلوه وهزموا أصحابه فوّجه يزيدُ السَجَّاح (٥) بن وَداع في ألفين ، فقتلوه وهزموا أصحابه أيضاً .

وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مسلمة بن عبدالملك الكوفة ، فشكا إليه أهل الكوفة مكان شوذب ، فأرسل إليه مسلمة سعيدَ بن عمرو الحَرَشيّ ، وكان فارساً في عشرة الآف ، وأ اد ودو بمكانه ، فرأى شَوْذب وأصحابه ما لا قِبَل لهم به ، فقال لأصحابه : « مَن كان يريد الشهادة فقد جاءَته ، ومَن كان يريد الدنيا فقد

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦ / ٥٥٥) وابن الأثير (٥ / ٤٥ - ٤٨) .
(٢) الطبري (٦/٥٦٥) وابن الأثير (٥/٥٨) والعبر (١/ ١٢٠) وشذرات الذهب (١/١١٩) .
(٣) ابن الأثير (٥ / ٤٨) .
(٤) ابن الأثير (٥ / ٦٧) .
(٥) في الطبري (٦ / ٥٧٦) : الشحاج ، وفي ابن الأثير (٥ / ٦٩) : السجاح .

ذهبت». وكسر الخوارج أغماد سيوفهم وحملوا ، فكشفوا سعيداً وأصحابه مراراً، حتى خاف سعيد الفضيحة ، فوبّخ أصحابه وقال: «من هذه الشرذمة لا أبَ لكم تفرّون! يا أهل الشام ! يوماً كأيامكم ! » ، وحمل أصحاب سعيد على الخوارج ؛ فطحنوهم طحناً ، وقتلوا بسطاماً — وهو شوذب — وأصحابه (١) .

وهكذا قضى مسلمة على حركة من حركات الخوارج ؛ استعصت على الآخرين ، وكان يمكن أن تتطوّر فتصبح خطراً داهماً يهدّد أمن الدولة واستقرارها .

ب . القضاء على فتنة يزيد بن المُهلّب :

في سنة مئة الهجرية (٧١٨ م) ، كتب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى عَديّ بن أرْطَاة والي البصرة لعمر (٢) ، يأمره بانفاذ يزيد بن المُهلّب إلى دمشق موثقاً . وكان عمر قد كتب إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عمله ويُقْبِل إليه فاستخلف مَخْلَداً ابنه وقدم من (خُراسان) (٣) ونزل (واسطاً) (٤) ، ثم ركب السُّفن يريد (البَصْرَة) ، فبعث عَدِيّ بن أبي أرْطَاة موسى ابن الوَجيه الحِميَرِيّ ، فلحقه في نهر (مَعْقِل) (٥) عند الجسر ، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبدالعزيز في دمشق .

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦ / ٥٧٥ — ٥٧٨) وابن الأثير (٥ / ٦٨ — ٧٠) .

(٢) جمهرة انساب العرب (٢٥٦) .

(٣) خراسان : بلاد واسعة يتاخمها العراق من الغرب وافغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها ، وتمتد من الشمال الى اقصى تخوم ايران . من أمهات مدنها : نيسابور وهراة ومرو وبلخ ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٤٥ — ١٦٠) ومعجم البلدان (٣ / ٤٠٧) .

(٤) واسط : مدينة كبيرة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي، وسميت واسطاً لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ٣٧٨ — ٣٨٧) ، وقد اطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث ، وهي محافظة الكوت على نهر دجلة .

(٥) نهر معقل : منسوب الى معقل بن يسار المزني ، صحب النبي صلى الله عليه وسلم، وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ٣٤٥ — ٣٤٦) ، وفيه : ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر ابا موسى الأشعري أن يحفر نهراً بالبصرة وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني ، فنسب اليه .

ودعا به عمر ، وكان يبغض يزيد وأهل بيته ويقول : « هؤلاء جبابرة ، ولا أُحب مثلهم » ، وكان يزيد يبغض عمر ويقول : « إنه مُراء» ، فلما ولي عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء . ولما دعاعمرُ يزيد ، سأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبدالملك ، فقال : « كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت ، وإنما كتبتُ إلى سليمان لأسمعَ الناس به ؛ وقد علمتُ أنّ سليمان لم يكن ليأخذني به !» فقال عمر : « لاأجد في أمرك إلاّ حبسك ، فاتّقِ الله وأدّ ما قِبَلك ، فانها حقوق المسلمين ولا يسعني تركُها » .

وحبسه بحصن (حلب) ، وبعث إلى الجرّاح بن عبدالله الحَكَميّ فسرحه إلى (خُراسان) أميراً عليها ؛ فبقي يزيد في محبسه حتى بلغه مرض عمر (١) .

ولما اشتدّ مرض عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، خاف يزيد بن المهلّب من يزيد بن عبدالملك (٢) ؛ فأرسل إلى مواليه يخبرهم بعزمه على الهرب من السجن ؛ فأعدّوا إبلاً له وخيلا . وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه ، وبعث إلى عامل (حلب) مالاً وإلى الحرس الذين يحفظونه وقال : «إن أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجاء ، وإن ولي يزيد بن عبدالملك يسفك دمي » ، فأخرجوه ؛ فهرب إلى المكان الذي واعد أصحابه فيه : وركب هناك الدّواب وقصد (البصْرة) . وكتب إلى عمر بن عبدالعزيز كتاباً يقول فيه : « إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ؛ ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شرّ قتلة » ، فورد الكتاب وبه رمق ، فقال : « اللهمّ إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فألْحِقْه به وهِضْهُ فقد هاضني » ، وكان هروب يزيد ابن المهلب سنة إحدى ومئة الهجرية (٣) (٧١٩ م) .

— أقول : ولا يزال النهر موجوداً حتى اليوم وعليه ضاحية (المعقل) التي هي من ضواحي البصرة حالياً في شمالي البصرة وبالقرب منها ، وهي معروفة جداً في الوقت الحاضر ، يقصدها السائحون خاصة في الشتاء ؛ وفيها مناظر خلابة جميلة .

(١) الطبري (٦/٥٥٦–٥٥٨) وابن الأثير (٥/٤٨–٥٠) وانظر كتاب الوزراء والكتاب (٣١) .

(٢) كانت بين اليزيدين عداوة شخصية قبل ان يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ، وقد توعد كل منهما صاحبه ، انظر ابن الأثير (٥ / ٥٧) .

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦ / ٥٦٤ – ٥٦٥) وابن الأثير (٥ / ٥٧–٥٨) وابن خلدون (٣ / ١٦٦) .

وكتب يزيد بن عبدالملك بعد توليه إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب عامله على الكوفة و إلى عَديّ بن أرْطَاة عامله على البصرة يأمرهما بالتحرّز من يزيد ويعرفهما هربه ، وأمر عَدِياً أن يأخذ مَنْ بالبصرة من آل المهلّب ، فأخذهم وحبسهم .

وأقبل يزيد حتى ارتفع إلى (القُطْقُطَانة) (١) ، وبعث عبدالحميد جنداً إليهم عليهم هشام بن مُساحِق العامِرِيّ القُرشِيّ – عامر بني لؤيّ ، فساروا حتى نزلوا (العُذَيْب) (٢) . ومرّ يزيد قريباً منهم ، فلم يقدموا عليه . ومضى يزيد نحو (البصرة) وقد جمع عَديّ بن أرطاة اهل البصرة وخندق عليها ، وبعث على خيل البصرة المُغيرة بن عبدالله بن أبي عَقيل الثقَفِيّ .

وبعث عَدِيّ على كل خمس من اخماس البصرة رجلاً : خُمس الأزْد ، وخمس تَمِيْم ، وخمس بَكْر بن وائل ، وخمس عبد القَيْس ، وعلى خمس العالية من قُريش وكنانة والأزد وبَجيلة وخَثْعَم وقيس عَيْلان كلها ومُزَيْنَة ، فأقبل يزيد لا يمرّ بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلاّ تنحوا له عن طريقه حتى نزل داره .

واختلف إلى يزيد الناس ، فأرسل إلى عَدِيّ : « أن ابعث إلي إخوتي وإني أُصالحك على البصرة وأخليك وإياها حتى آخذ لنفسي من يزيد ما أُحبّ » ، فلم يقبل منه .

وسار حُمَيْد بن عبدالملك بن المهلّب إلى يزيد بن عبدالملك : فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ بأمان يزيد بن المهلّب وأهله .

وأخذ يزيد بن المهلّب يُعْطي من أتاه قطع الذهب والفضة ، فمال الناس إليه ، وكان عَدِيّ لا يعطي إلاّ دِرْهَمَيْن درهمين ويقول : « لا يَحِلّ لي أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلاّ بأمر يزيد بن عبدالملك ، ولكن تَبَلّغوا بهذه حتى يأتي الأمر بذلك » . وفي ذلك يقول الفرزدق :

---

(٤) القطقطانة : موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٥)

(٥) العذيب : ماء بين القادسية والمغيثة بينه وبين القادسية أربعة أميال ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٣١) ، والمغيثة منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ١٠٦) .

أظُنُّ رجال الدرهمين تقودهم إلى الموت آجال لهم ومَصَــارِع
وأكيَسُهم مَن قرّ في قعر بيته وأيقن َأنّ الموتَ لا بُدّ واقــعُ

وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب عديّ ، فنزلوا (المِرْبَد) (١) ، فبعث إليهم يزيد بن المهلب مولى له يقال له : دارِس . فحمل عليهم ، فهزمهم .

وخرج يزيد بن المهلب حين اجتمع الناس له ، حتى نزل جبانة بني يَشْكر وهي النصف فيما بينه وبين قصر الأمارة في البصرة ، فلقيه قيس وتميم وأهل الشّام واقتتلوا هنيهة ، ثم حمل عليهم أصحاب يزيد فانهزموا . وتبعهم ابن المهلب حتى دنا من القصر ، فخرج إليهم عَديّ بنفسه ، ولكن أصحابه انهزموا بعد قتال تكبدوا فيه خسائر كبيرة .

وجاء يزيد بن المهلّب حتى نزل داراً إلى جنب القصر ، وأتى بالسلالم وفتح القصر . وأُتي بعَديّ بن أرطاة فحبسه وقال له : « لو لا حبسك إخوتي لما حبستك » .

فلما ظهر يزيد ، هرب رءوس أهل البصرة من تميم وقيس وغيرهما ، فلحقوا بالكوفة ، ولحق بعضهم بالشام . وخرج المغيرة بن زياد بن عمرو العَتَكِيّ نحو الشام ، فلقى خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ ومعهما حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب قد أقبلوا بأمان يزيد بن المهلّب وكل شيء أراده ، فسألاه عن الخبر فخلا بهما سراً من حُمَيْد وأخبرهما : بأن يزيد بن المهلّب قد ظهر على البصرة ، وقتل القتلى ، وحبس عَدِياً ، فارجعا ؛ فرجعا وأخذا حُمَيْداً معهما

وأصبح الموقف خطيراً للغاية ، فأرسل يزيد بن عبدالملك إلى الكوفة شيئاً من المال ومَنّى أهلَها الزيادة ، وجهز أخاه مسلمة بن عبدالملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في سَبعين ألف مقاتل من أهل الشام وجزيرة ابن عمر ، وقيل : كانوا ثمانين ألفاً ، فساروا إلى العراق . وقدما الكوفة ونزلا (النُّخَيْلة) (٢)

---

(١) المربد : مربد البصرة من اشهر محالها ، وكان يكون فيه سوق الابل قديماً ، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء : انظر التفصيل في معجم البلدان (٨ / ١١ - ١٣) .

(٢) النخيلة : موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشام ، نظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ٢٧٦ - ٢٧٧) .

ولما سمع أصحاب ابن المهلّب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك ، فبلغ ابن المهلّب ، فخطب الناس يشجّعهم ويهوّن من أمر أهل الشام . وكان الحسن البصريّ يسمع ، فرفع صوته يقول : « والله لقد رأيناك والياً ومُوَلّى عليك ، فما ينبغي لك ذلك ! » ، فوثب أصحابه وأخذوا بفمه وأجلسوه ، وكان النّضر ابن أنس ابن مالك يثبِّط أهل البصرة كما يثبِّطهم الحسنُ البصريّ منعاً لاقتتال المسلمين فيما بينهم وقطعاً لدابر الفتن .

وسار يزيد من البصرة ، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلّب ، وأتى (واسطاً) فلما نزل (واسِطاً) أقـام بها أياماً وخرجت سنة إحـدى ومئة الهجرية . (١)

ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧٢٠م) ، فسار يزيد من (واسط) واستخلف عليها ابنه معاوية وجعل معـه بيت المال والأسرى ، وسار على فم (النيل) (٢) حتى نزل (العَقْر) (٣) . وقَدّم أخاه عبـد الملك بن المهلّب نحو الكوفة ، فاستقبله العباس بن الوليد بن عبدالملك في (سُوْرَا) (٤) ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، كانت الجولة الأولى منه لآل المهلب ؛ ولكن تغيرت المعركة لصالح العباس بن الوليد ، فانكشف جيش ابن المهلب ، وانهزموا عائدين إلى يزيد بن المهلّب. وأقبل مسلمة يسير على شاطئ الفرات الى (الأنْبار) (٥) ، فعقد عليها الجسر وعَبر ، ثم سار حتى نزل على ابن المهلّب .

وأتى الى ابن المهلّب ناس من أهل (الكوفة) كثير ومن الثغور ، فقسّمهم أقساماً وجعل على كل قسم منهم قائداً ، وكان هذا التقسيم بالنسبة للقبائل العربية الأزْد ومَذْحِج وأسَد وكنْدة وربيعة وتَميْم وهَمْدان ، وجعل أمر كل تلك

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٥٧٨/٦ – ٥٨٩) وابن الأثير (٧١/٥ – ٧٧) وابن خلدون (٣ / ١٦٦ – ١٦٩) وانظر خلاصة الذهب المسبوك ص (٢٦) .

(٢) النيل : بلدة في سواد الكوفة قرب (حلة) بني مزيد ، يخرقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير ، انظر معجم البلدان (٨ / ٣٦٠) .

(٣) العقر : عقر بابل ، قرب كربلاء من الكوفة ، انظر التفصيل في معجم البلدان (١٦٤/٦–١٦٥) .

(٤) سورا : موضع بأرض بابل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ١٦٨) .

(٥) الأنبار : مدينة على الفرات في غرب بغداد ؛ انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٤٠/١–٣٤٢) وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم .

الأقسام إلى المُفَضَّل ؛ وأحصى ديوان يزيد بن المهلّب مئة ألف وعشرين ألفاً ، فقال : «لوَدِدْتُ أنّ لي بهم مَنْ بخُرَاسان من قومي » ، ثم قام في أصحابه وحرّضهم على القتال .

وكان عبدالحميد بن عبدالرحمن قد عسكر بالنُّخَيْلة ، وشق المياه ، وجعل على أهل الكوفة الأرصاد لئلا يخرجوا إلى ابن المهلّب ، وبعث بعثاً إلى مسلمة مع سَبْرَة بن عبدالرحمن بن مِخْنَف ؛ ولكنّ مسلمة عزل عبد الحميد عن الكوفة واستعمل عليها محمد بن عمرو بن الوليد بن عُقْبَة بن أبي المُعَيْط ، وهوذو الشّامة. ومن الواضح أن عبد الرحمن لم يكن مسيطراً على الكوفة ، لذلك تسرّب أكثر أهلها إلى ابن المهلّب ، كما لم يكن ذا كفاية قيادية ولا يتحلّى بمزية المبادرة ، وكان ضعيفاً متردداً . لذلك عزله مسلمة وولّى قائداً متميزاً ، ليضمن قاعدته الأمامية : الكوفة .

وجمع يزيد بن المهلّب رؤوس أصحابه فقال : « قد رأيتُ أن أجمع اثنى عشر ألفاً، فأبعثهم مع أخي محمد بن المهلّب حتى يبيّتوا مسلمة ، ويحملوا معهم البراذع والأكف والزبل لدفن خندقهم ، فيقاتلهم على خندقهم بقية ليلته، وأُمِدّه بالرجال حتى أُصبح ، فاذا أصبحتُ نهضتُ إليهم في الناس فأناجزهم ، فأني أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم » ؛ فأجابه أحد أصحابه (١) قائلاً : « إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيّه صلّى الله عليه وسلم . وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منا ، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا » ؛ فثنّى على قوله آخر (٢) قائلاً : « صدق ! هكذا ينبغي » . فقال يزيد : « ويحكم ! .....إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم ، فلا يسبقوكم إليه! إني لقيت بني مروان ، فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد غدرا من هذه الجرادة الصفراء» ، يعني مسلمة ، فقالوا : « لا نفعل ذلك حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا » .

وكان مروان بن المهلّب بالبصرة يحثّ الناس على حرب أهل الشّام ، والحسن

(١) اسمه : السميذع

(٢) هو ابو رؤبة رأس الطائفة المرجئة ، ومعه أصحاب له .

البصري يثبّطهم ، فهدّد مروان الحسنَ بالعقوبة الصارمة وتوعّده ، فقال الحسن : « والله ماأكره أن يكرمني الله بهوانه » (١) ، فقال ناس من أصحابه : « لو أرادك ثم شئتَ لمنعناك » ، فقال لهم : « فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه ! آمركم ألاّ يقتل بعضكم بعضاً مع غيري ، وآمركم أن يقتل بعضكم بعضاً دوني ! » .

وكان اجتماع يزيد بن المهلب ومَسْلَمَة بن عبدالملك ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر ، بعث مسلمة من يحرق الجسر .

وخرج مسلمة معبئاً(٢) أهل الشام ، ثم قرب من ابن المهلّب ، ثم عبأ العباس بن الوليد رجاله ، وكان مسلمة على الناس قائداً عاما. وعبأ يزيد بن المهلب رجاله أيضاً .

وأُحرق الجسر ، فسطع دخانه وقد أقبل الناس ونشبت الحرب ولم يشتد القتال ، فلما رأى الناس الذين مع ابن المهلب الدخان . وقيل لهم : أُحرق الجسر ، انهزموا ! فقيل ليزيد : قد انهزم الناس ! فقال : « ممّ انهزموا ؟ ! هل كان قتال يُنْهَزَمُ من مثله ؟ ! » ، فقيل له أحرق الجسر فلم يثبت أحد ! فقال : « قَبحَهم الله ! بَقٌّ دُخّنَ عليه فَطار ! » .

وخرج يزيد مع أصحابه المقربين إليه في محاولة لردّ المنهزمين من جيشه ، ولكنه أخفق في محاولته .

ونزل يزيد يقاتل ، فجاءه من ينعى إليه أخاه حبيباً الذي قتل في المعركة ، فقال يزيد : « لاخير في العيش بعده ، قد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة ، وقد ازددت لها بغضاً ، امضوا قُدُماً » ، فعلموا أنه قد استقتل ، لذلك تسلل عنه من يكره القتال ، وبقي معه جماعة حسنة ، وهو يتقدم . فكلما مرّ بخيلٍ كشفها ، أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه .

وأقبل يزيد نحو مسلمة لا يريد غيره ، فلما دنا منه أدنى مسلمة فرسه ليركب ؛ فعطفت على يزيد خيول أهل الشام وعلى أصحابه . فقتل يزيد ومحمد بن المهلّب. وكان المُفَضَّل بن المهلب يقاتل أهل الشام وما يدري بقتل يزيد ولا بهزيمة

---

(١) يريد بعقوبته وتوعده .

(٢) كانت التعبئة حينذاك : ميمنة وميسرة وقلباً ومقدمة ومؤخرة .

الناس ، وكان كلما حمل على الناس انكشفوا . ولكن أصحابه تخلوا عنه هاربين فقيل له : ما تصنع ها هنا وقد قتل يزيد وحبيب ومحمد وانهزم الناس منذ طويل ؟ !

ولما تفرّق الناس عنه ، مضى إلى (واسِط) ، ولم يكن في العرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئة للحرب ولا أغشى للناس منه .

وأسرَ مسلمة نحو ثلاث مئة أسير ، فسرّحهم إلى الكوفة ، فحبسوا بها . وجاء كتاب يزيد بن عبدالملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة والي الكوفة يأمره بضرب رقاب الأسرى ، فبدأ بالتنفيذ وقتل قسماً من الأسرى ، فجاء رسول بكتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الأسرى ؛ ثم أقبل مسلمة حتى نزل (الحِيْرَة). (١)

ولما أتت هزيمة يزيد إلى (واسِط) ، غادرها آل المهلّب إلى البصرة ، ومن هناك حملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية ثم لجّوا في البحر ، فلما كانوا بجبال (كَرْمَان) (٢) خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم واموالهم على الدّواب ، وكان المقدّم عليهم المُفَضّل بن المهلّب .

وكان بكرامان فاول كثيرة اجتمعوا الى المفضّل ، فبعث مسلمة قوات من أصحابه ، فقاتلوا فلول المفضّل وانتصروا عليهم وكبّدوهم خسائر فادحة بالأرواح .

ومضى آل المهلّب ومَنْ معهم إلى (قَنْدابِيْل) (٣) ، فطاردهم أصحاب مسلمة ، فتفرق الناس عن آل المهلّب ؛ ولكن آل المهلّب تقدّموا بأسيافهم فقاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم منهم : المفضّل ، وعبدالملك ، وزياد ، ومروان بنو المهلّب وثلاثة من أبنائهم ؛ فبعث مسلمة برءوسهم إلى يزيد بن عبدالملك .

وحين بلغ يزيد بن عبدالملك خبر مقتل يزيد بن المهلّب وكثير من آل المهلّب سرّه هذا النصر سروراً عظيماً (٤) .

---

(١) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة اميال من الكوفة ، على موضع يقال له النجف ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٨٦) ، والنجف اليوم قرية من الكوفة ، وفيها مرقد الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى واسعة في ايران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٤١) والمسالك والممالك للاصطخري (٩٧ – ١٠٠) .

(٣) قندابيل : مدينة بالسند ؛ انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧ / ١٦٧) .

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦ / ٥٩٠ – ٦٠٤) وابن الأثير (٥ / ٧٧ – ٨٩) وابن خلدون –

وهكذا انتصر مسلمة على يزيد بن المهلّب وآل بيته، فخدم الدولة خدمة لا تقدّر بقضائه على ثورة يزيد الذي خلع يزيد بن عبد الملك وقاد أخطر ثورة هدّدت كيان الأمويين

ومن الأنصاف أن نذكر أن يزيد بن المهلّب كان قائداً فذاً وإدارياً حازماً، ولكنه خسر حياته وحياة أكثر آل المهلّب، لأنه قاد جيشاً لا يثق به ولا يعتمد عليه، أفراده مرتزقة كل همهم كسب المال، لذلك لم ينفذوا أوامره ولم يطبقوا تعليماته ولم يكن يجهل قابلية جيشه المتضعضعة ومعنوياتهم المنهارة، وأردك في أول المعركة بأنه خسرها، ولكنه قاتل عن شرفه وأحسابه، ولم يرض لنفسه الفرار أو الاستسلام.

وكان مسلمة أيضاً يقود جيشاً أكثرهم من المرتزقة، ولكنهم كانوا ملتزمين، أما جيش يزيد بن المهلّب فكان من المرتزقة غير الملتزمين، لذلك كان جيش مسلمة يتحلى بارادة القتال فانتصر، وكان جيش يزيد لا يتحلى بهذه المزيّة فانهزم.

وقد خسرت الدولة بالقضاء على يزيد بن المهلّب وبنى المهلب خيرة قادتها وأحسن جنودها وأقدر أمرائها وولاتها، وهي خسارة كبيرة بلامراء (١).

وأدهي من ذلك وأمرّ، أن الاقتتال الذي نشب بين الأخوة أدىّ الى عداء عميق الجذور بين القبائل العربية في العراق قاعدة الفتح الأسلامي الرئيسة في المشرق الأسلامي، وفي فارس قاعدة الفتح الأسلامي المتقدمة، مما أدى إلى انصراف الفاتحين عن الفتح إلى الاقتتال فيما بينهم، فأصبحت طاقاتهم موّجهة إلى أنفسهم بدلاً من توجيهها إلى أعدائهم، فانحسر مدّ الفتح وتقلّص نفوذ الدولة في العراق وفارس وفي السند والأفغان وفيما وراء النهر.

- (٣ / ١٦٦ - ١٧٢) وانظر المسعودي (٣ / ١٩٩ - ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠ - ١٦) والمعارف (٤٠٠).

(١) في العبر (١/١٢٤): أن يزيد كان ممدحاً كثير الغزو والفتوح، وانظر أيضاً شذرات الذهب (١/١٢٤) وفي يزيد وآل المهلب يقول الشاعر:

نزلت على آل المهلـب شـاتياً ... غريبـاً عـن الاوطـان في زمن المحل
فـما زال بي احسـانهم وافتقادهم ... وبـرهـم حتى حسـبتهم أهلي

انظر مختصر تاريخ البشر لأبي الفدا (١/٢٠١-٢٠٢)، وفي النجوم الزاهرة (١ / ٢٦٩)، قال الفرزدق:

إن المهـالبة الكـرام تحملـوا ... دفـع المكاره عـن ذوى المكروه
زانـوا قديمهـم بحسـن حديثهم ... وكريـم أخـلاق بحسن وجوه

وانتهز هذه الفرصة السّانحة العباسيّون للقضاء على الأمويين ، وأصبح دعاة بني العباس يسرحون ويمرحون في بلاد فارس بخاصة بحرّية كاملة دون رقيب فعال وحسيب مؤثّـر .

لذلك كان انتصار مسلمة في هذا الاقتتال تعبوياً ، ولكنه كان هزيمة سَوْقية (استراتيجيـّة) على المدى البعيد .

والانتصار التعبوي لاقيمة له بالنسبة للهزيمة السّوْقيـّة كما هو معروف .

ج . ترصين الجبهة الشرقيّة :

لما فرغ مسلمة بن عبدالملك من حرب يزيد بن المهلّب ، جمع له أخوه يزيد ابن عبدالملك ولاية الكوفة والبصرة وخُراسان وذلك سنة اثنتين ومئة الهجرية (١)

كان مهمة مسلمة صعبة . لتناحر القبائل ونشوب العداوة بينها ، وضياع الأمن والاستقرار ، مما أدىّ إلى تـوقف الفتح وتهديد مصير الفاتحين في البلاد المفتوحة في بلاد فارس والسند وما وراء النهر .

لذلك عمل مسلمة على اختيار الرجال الذين يثق بهم ويعتمد على كفاياتهم ، نغرض معاونته في ترصين الجبهة الشرقية للدولة : فأقرّ محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ابن أبي مُعَيْط على الكوفة لأنه سيطر على الكوفة في أيام نشوب القتال بين مسلمة ويزيد بن المهلب سيطرة كاملة . وأمد مسلمة بالرجال والمواد التموينيّة ؛ وحمى خطوط مواصلاته ، وجعل من الكوفة قاعدة متقدمة لقوات مسلمة المقاتلة .

وكان قد قام بأمر البصرة بعد آل المهلّب شبيب بن الحارث التميمي ؛ فبعث عليها مسلمةُ عبدالرحمن بن سليمان الكلبيّ ، وعلى شرطتها وأحداثها عمرو بن يزيد التميمي (٢) .

والظاهر أنّ عبدالرحمن بن سليمان الكلبيّ كان والياً ناقماً منتقما ، لأنه أراد استعراض أهل البصرة فيقتلهم انتقاماً منهم لميلهم إلى آل المهلّب وعطفهم عليهم ومعاونتهم لهم مادياً ومعنوياً . فنهاه عمرو بن يزيد التميميّ ؛ وكتب إلى مسلمة

(١) الطبري (٦/٤٠٦) وابن الأثير (٥/٨٩) وانظر المعارف (٥٧١) وفيه ان مسلمة كان بين أول من جمع له المصران : الكوفة والبصرة وانظر التنبيه والاشراف (٢٧٧ — ٢٧٨) .

(٢) في ابن الأثير (٥/٨٩) : ورد اسمه عمرو ، وفي الطبري (٦/٤٠٦) ورد اسمه عمر .

بالخبر ، فعزله وولىّ البصرة عبدَ الملك بن بشر بن مروان بن الحكم ، وأقرّ عمرو بن يزيد التميميّ على الشُّرَط والأحداث (١) .

لقد كان مسلمة بعيد النظر حقاً ، لذلك كان يحاول تضميد الجروح لا تعميقها ، فلم يرض عن أسلوب عامله على البصرة باتجاهه إلى الصرامة والانتقام ، فقد كانت الجروح غائرة وهي ليست بحاجة إلى تعميق ، فعزل عامله فوراً وبعث مكانه عاملاً جديداً .

واستعمل مسلمة على خُراسان سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أُميّة وهو الذي يقال له : سعيد خُذَيْنَة (٢) ، وكان سعيد زوج ابنة مسلمة . وقد غزا سعيد الترك وعبر النهر وغزا (الصُّغْد) (٣) ، وأراد السيطرة على تلك المناطق وترصين قواعد الفتح المتقدمة ، ولكن نجاحه كان محدوداً ، لأن كفايته لم تكن بالمستوى المطلوب (٤) .

ولم يكد مسلمة يمضي بضعة أشهر على العراق وخُراسان (٥) ، حتى عزله أخوه يزيد بن عبدالملك سنة اثنتين ومئة الهجرية .

وكان سبب عزله أنه ولي العراق وخراسان ، فلم يرفع من الخراج شيئاً إلى يزيد بن عبدالملك . واستحيا يزيد أن يطالبه أو يحاسبه ، كما استحيا أن يعزله ، فكتب إليه : « استخلف على عملك وأقبِل » .

ولم يلبث مسلمة حتى أتاه عزله بعمر بن هُبَيْرَة الفزاريّ الذي تولىّ مكانه العراق وخراسان ، فعزل عمّاله واستعمل الغلظة عليهم ، فقال الفرزدق :

راحت بمسلمة البغال عشيّـة فارعَىْ فَزارة لاَ هنَاكِ المرتـعُ

---

(١) الطبري (٦/٦٠٤ – ٦٠٥) وابن الأثير (٥/٨٩) .

(٢) خذينة بالفارسية هي الدهقانة ربة البيت ، انظر ابن الأثير (٥/٩٠) ، وهو من ابناء عمومة مسلمة يلتقي نسبهما بالحكم والد مروان بن الحكم ، انظر انساب الأشراف (١/١٦١) وفتوح البلدان (٦٠٠) .

(٣) الصغد : كورة عجيبة قصبتها سمرقند ، وقيل هما صغدان : صغد سمرقند وصغد بخارى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٦٢) .

(٤) الطبري (٦٠٥ – ٦١٥) وابن الأثير (٥/٩٠ – ٩٧) ، وفي انساب الاشراف (٣/١٦٢) ان اهل خراسان شكوا خذينة فعزله .

(٥) المعارف (٣٥٨) ، وفي العيون والحدائق (٧٥) : انه بقي ثمانية اشهر ، وقيل ستة أشهر .

عـُزِلَ ابنُ بِشْر وابن عمرو قبله   وأخو هَرَاة لمثلها يتوقـَّـــع

يعني بابن بشر : عبدالملك بن بِشْر بن مروان بن الحكم ، وبابن عمرو محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط ذا الشّامة ، وبأخي (هَرَاة) سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أُمية (١) ، وهم عمال مسلمة .

والذي يبدو أنّ يزيد بن عبد الملك عزل أخاه مسلمة ، لأنه لا يستطيع السيطرة عليه في تصرفه بالأموال وفي توجيهه سياسة الدولة في تلك البلاد الشاسعة الغنية ، فأراد أن يولّي مَنْ يستطيع السيطرة عليه ويوجّهه كما يريد . (٢)

كما أنّ خراج العراق وفارس كان مصدراً غنياً من مصادر تمويل الدولة ، فلا يمكن السكوت عمن يتصرف به كما يشاء دون قيد أو شرط .

ولم يكن مسلمة ممن يَضَعُ أموال المسلمين في غير مواضعها : فمن المحتمل أن يكون الخراج في تلك السنة قد تأثر بظروف الحرب في العراق وظروف التسيّب في خراسان ، مما أدى إلى ضعفه وقلّة موارده ، خاصة وأن جبايته في تلك الظروف مع تغيير الولاة ، من موالين لبني المهلّب إلى موالين لبني أميّة ، وقتل قسم من أولئك الولاة ، ضيّع المسئولية وأدى إلى ذهاب الأموال بدداً .

فلما تولّى مسلمة : كان عليه أن ينفق ماجباه في التعمير وتأليف القلوب وتقوية جيشه ، لذلك لم يبق في يديه ما يبعث به إلى الخليفة في الشام ، ولو بقي منه شيءٌ لفعل .

لقد استفاد يزيد بن عبدالملك من أخيه مسلمة في أيام الشدة والحرب ، وبعد أن استقرت الأمور أو كادت تخلّى عنه في أيام الرخاء والسّلم .

ولم يكن بمقدور أحد من رجال يزيد ، أن ينهض بمهمة القضاء على ثورة

---

(١) الطبري (٦/٦١٥) وابن الأثير (٥/٩٧ - ٩٨) : وفيهما رواية اخرى عن سبب عزل مسلمة عن العراق وخراسان لا تتفق مع المنطق ولا يصدقها العقل ، وانظر المعارف (٣٦٤) عن تولية عمر ابن هبيرة العراقين ، وانظر انساب الاشراف (٣/١٨١) حول عزل عبد الملك بن بشر بن مروان ابن الحكم وشعر الفرزدق .

(٢) في العيون والحدائق (٧٥) : قدح فيه عند يزيد ، وقالوا : إنه غير مأمون على الخراج فعزله .. . انتهى .

يقصد : قدح في مسلمة عند الخليفة يزيد بن عبد الملك .

يزيد بن المهلّب ، وهي ثورة عارمة هدّدت الدولة تهديداً خطيراً جداً ، ولو كان بجعبة يزيد بن عبدالملك من يستطيع النهوض بمثل هذه المهمّة الصعبة، لرمى بهابن المهلّب دون تردّد .

ولم يكن بمقدور كل قائد أن يسدّ ثغرة في قلب الدولة أيام الحرب كما فعل مسلمة ، فبمجرّد قدومه على رأس جيشه إلى العراق ، جعل معنويات جيش ابن المهلّب تنهار ويتخلّى عنه رجاله، كما جعل معنويات رجاله ترتفع، وازداد الاقبال عليه.

ولكن بمقدور كثير من الولاة أن يحلّوا محلّ مسلمة في أيام السّلام .

إن مسلمة خلق ليكون غازياً ، ولم يخلق ليكون واليا .

ويظهر أنّ يزيد بن عبدالملك تخلى عن مسلمة واليا ، ولكنه لم يتخل عنه ناصحاً ومستشاراً ، فأستبقاه إلى جانبه في (دمشق) يستنصحه ويستشيره في إدارة شؤون الدولة وتصريف أمورها ، فكان له نعم الناصح المخلص والمستشار الأمين .

ومما يدل على ثقة يزيد بن عبدالملك بمسلمة ، أنه بايع لهشام بن عبدالملك ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد بن عبدالملك باستشارة مسلمة (١) .

وحين عزل يزيد عبدالرحمن بن الضحّاك عن المدينة ومكة لغضبه عليه ، لم يجد ملجأ يلجأ اليه غير مسلمة الذي أجاره وكلم أخاه يزيد بن عبدالملك ليعفو عنه. (٢)

وكان يزيد بن عبدالملك يحبّ جارية اسمها : (حَبَابة) ، فلما توفيت وجد عليها وجداً شديداً ، وخرج مشيعاً جنازتها ومعه أخوه مسلمة ليسليه ويعزيه . وقيل إن يزيد لم يطق الركوب من الجزع وعجز عن المشي، فأمر مسلمة أن يصلي عليها، وقيل : منعه مسلمة من الصلاة عليها لئلا يرى الناس منه ما يعيبونه به (٣) ومكث يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس ، أشار عليه مسلمة بذلك ، وخاف أن يظهر منه ما يسفهه عندهم (٤) .

---

(١) ابن الأثير (٩١/٥) وابن خلدون (١٧٤/٣) والأغاني (٧ / ٢) .

(٢) ابن الأثير (١١٦/٥) وابن خلدون (١٨٢/٣)، وقد أجار أيضاً عمر بن هبيرة على يزيد ، فقبل شفاعته ، انظر العيون والحدائق (٨٥) .

(٣) ابن الأثير (١٢٠/٥) والعيون والحدائق (٧٨) .

(٤) ابن الأثير (١٢١/٥) وتاريخ الموصل (٢٠) .

ولما مات يزيد سنة خمس ومئة الهجرية ، صلى عليه مسلمة (١) ، وهذا يدل يدل على أنه كان أقرب المقربين إلى يزيد حتى توفاه الله (٢) .

لقد استأثر يزيد بمسلمة لرجاحة عقله واتزانه وإخلاصه له وللدولة ، ولم يعزله عن العراق لأنه كان يخشاه ويتوقع منه شرا ، إذ ليس من شأن مسلمة ولا من سماته إشعال نار الفتن وضرب إخوته وأهل بيته من الخلف وتفريق صفوف المسلمين .

٣ ـ في إرْمِينْيَة (٣) وأذْرَبِيْجَان (٤)

وفي سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥ م) ، استعمل هشامُ بن عبدالملك أخاه مسلمة على إرْمِينْيَة وأذْرَبِيجان خلفاً للجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ ؛ فاستعمل

(١) ابن الأثير (٥/١٢٠) .

(٢) لقد ذكرت هذه الحوادث لافند ما زعمه أحد المؤلفين في كتابه : مسلمة بن عبد الملك (٥٦) ما نصه : «ويبدو ان يزيد بن عبد الملك ، كان يخشى مسلمة ويتوقع منه شراً ، إذ وجدناه يعزله عن العراقين ومما يدل على خوف يزيد من مسلمة وحذره الشديد منه ، أنه لم يستعمل مسلمة على ولاية طيلة خلافته . . . » ولا سند لهذا الادعاء ولا دليل عليه .

(٣) إرمينية : بكسر اوله ويفتح ، وسكون ثانيه ، وكسر الميم ، وياء ساكنة ، وكسر النون ، وياء خفيفة ، مفتوحة ، اسم صقع عظيم واسع ، وقيل : هما ارمينيتان : الكبرى والصغرى ، وحدهما من برذعة الى باب الابواب (دربند) من الجهة الاخرى ، الى بلاد الروم وجبل القبق وصاحب السرير . وقيل : ارمينية الكبرى خلاط و نواحيها وارمينية الصغرى تفليس ونواحيها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٠٣ ـ ٣٠٦) والمسالك والممالك للاصطخري (١٠٨) وتقويم البلدان (٣٨٧) ومختصر كتاب البلدان (٢٨٦ ـ ٣٠١) والمسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٢ ـ ١٢٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤) وكتاب الاقاليم (٧٩) والبلدان لليعقوبي (١٠٦) والاعلاق النفيسة (١٠٦) . وارمينية اليوم في الجزء المتاخم لأيران ـ تركيا ـ الاتحاد السوفياتي ، وهي في هذه البلاد جميعاً واهلها أرمن .

(٤) أذربيجان : كلمة اذربيجان في الفارسية معناها أرض النار أو معابد النار ، وقد اطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك. واذربيجان صقع جليل ومملكة عظيمة ، والغالب عليها الجبال ، واشهر مدنها تبريز وهي قصبتها ، واكبر مدينة فيها أردبيل ، ومن مدنها : المراغة وارمية وخوي وسلماس ومرند وموقا . . . الخ . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١ /١٥٩ ـ ١٦١) والمسالك والممالك للاصطخري (١٠٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤ ـ ٣٧٨) وكتاب الأقاليم (٧٩ ـ ٨٥) والأعلاق النفيسة (١٠٦) والبلدان لليعقوبي (١٠٦) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (١١٨ ـ ١٢١) وتقويم البلدان (٣٨٦ ـ ٤٠٧) ومختصر تاريخ البلدان (٢٨٤ ـ ٢٨٦) ، واذربيجان اليوم في ايران والاتحاد السوفياتي ، بينهما الحدود التي تفصل بين البلدين ، واحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي هي : جمهورية أذربيجان ، وهي القسم الذي ضمن حدوده من هذه البلاد الشاسعة .

مسلمة الحارثَ بن عمرو الطائي ، فافتتح رستاقاً (١) وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً (٢).

ومن المعروف أن تلك المناطق قد فتحها عُتْبَة بن فَرْقد السُلَمي (٣) وبُكَيْر ابن عبدالله اللّيْثيّ (٤) وسراقة بن عمرو ذو النور (٥) في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فيكون دور مسلمة وقائده في هذا المجال هو : القضاء على اضطرابات داخلية ، وتوطيد أركان الأمن ، في منطقة من المناطق المفتوحة .

وفي سنة ثمان ومئة الهجرية (٧٢٦ م) ، غزا مسلمة الرُوم مما يلي (الجزيرة) (٦) ، ففتح (قَيْسَاريّة) (٧) وهي مدينة مشهورة (٨) .

وفي سنة تسع ومئة الهجرية (٧٢٧ م) : غزا مسلمة الترك (٩) من ناحية

---

(١) الرستاق : كل موضع فيه مزارع وقرى ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد ؛ وهو اخص من الكورة والاستان ، انظر معجم البلدان (١/٣٧) ، والكورة : اسم فارسي بحت يقع على قسم من اقسام الاستان ، وقد استعارتها العرب وجعلتها إسماً للاستان ، فالكورة والاستان واحد . والكورة : كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة او مدينة او نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة ، لقولهم دارا بجرد مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته : كورة دارا بجرد ، ونحو ذلك نهر الملك ، فانه نهر عظيم مخرجه من الفرات ويصب في دجلة عليه نحو ثلاث مئة قرية ، ويقال لذلك جميعه : كورة نهر الملك ، انظر معجم البلدان (١/٣٦) . وأما الاستان والكورة واحد ، انظر معجم البلدان (١/٣٧) .

(٢) ابن الأثير (٥/١٣٧ – ١٣٨) والعبر (١٣٠) وشذرات الذهب (١٣٤) وتاريخ الموصل (٢٥) وتاريخ ابن خليفة (٢/٣٥٠) .

(٣) انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٤١٥ – ٤٢٢) .

(٤) انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح فارس (٢٠٥ – ٢٠٨) .

(٥) انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح فارس (٢٠٩ – ٢١٣) .

(٦) الجزيرة : هي جزيرة ابن عمر .

(٧) قيسارية : مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم تقع مدينة سيواس في شرقيها وينتقل منها الى قونية ، انظر معجم البلدان (٧/١٩٥) وتقويم البلدان (٢٨٢ – ٢٨٣) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٦٤ – ٣٦٥) .

(٨) ابن الأثير (٥/١٤٠) ، وفي العبر (١/١٣١) وشذرات الذهب (١/١٣٤) : أن قيسارية فتحها مسلمة سنة سبع ومئة الهجرية في رمضان عنوة ، وكذلك في تاريخ الموصل (٢٦) وانظر النجوم الزاهرة (١/٢٦٢)

(٩) في تاريخ الموصل (٢٩) : أنه غزا الخزر لا الترك .

(أذْرَبِيْجان) ، فغنم وسبى وعاد سالماً (١) .

وهذه غزوة أخرى من غزوات توطيد سيطرة الدولة في البلاد المفتوحة واشاعة الأمن والاستقرار في (أذْربيْجان) الجبلية ذات البرد القارس .

وفي سنة عشر ومئة الهجرية (٧٢٨ م) ، غزا مسلمة الترك من باب (اللان) (٢) ، فلقي (خاقان) (٣) في جموعه، فاقتتلوا قريباً من شهر ، وأصابهم مطر شديد ، فانهزم خاقان ، ورجع مسلمة على مسلك (ذي القَرْنَيْن) (٤) منتصراً (٥) . وهذه الغزوة تسمى غزوة (الطِّين) ، وكانت ملحمة عظيمة في سابع جُمادى الآخرة من هذه السنة (٦) ، ويبدو انها سميت غزوة (الطِّين) لهطول أمطار غزيرة جعلت ساحة المعركة أوحالاً .

وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٨ م) استعمل هشام بن عبد الملك ، هشام الجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ على إرمينيّة وعزل أخاه مسلمة (٧) ، فدخل الجرّاح بلاد الخزر من ناحية (تَفْليس) (٨) ، ففتح مدينتهم (البيضاء) (٩) وانصرف سالماً ، فجمعت الخزر وحشدت وسارت إلى بلاد الاسلام ، وكان ذلك سبب

---

(١) ابن الأثير (٥/١٤٥) وتاريخ الموصل (٢٩) وتاريخ الاسلام (٤/٣٠٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٢) .

(٢) اللان : بلاد واسعة في طرف ارمينية قرب (باب الابواب) مجاورون للخزر ، انظر معجم البلدان (٧/٣١٦) وتقويم البلدان (٤٠٤) .

(٣) خاقان : لقب ملك الترك ، ومعناه : الملك .

(٤) ذو القرنين : أحد الفاتحين العظام ، ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف ، واختلف المؤرخون في اسمه الحقيقي وتاريخ حياته ، وهو الذي بنى سد الصين المشهور ، ويسمى سد يأجوج ومأجوج ، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٦٢ – ١٦٤) .

(٥) ابن الأثير (٥ / ١٥٥) .

(٦) النجوم الزاهرة (١ / ٢٦٧) وتاريخ الاسلام (٤ / ٣٠٢) .

(٧) ابن الأثير (٥/١٥٨) والنجوم الزاهرة (١/٢٧٠) وابن خلدون (٣/٢٩٩) وتاريخ الموصل (٣٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٥٣)

(٨) تفليس : بلد بأرمينية الأولى ، وبعض يقول بأران ، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب ، وهي مدينة قديمة ، انظر معجم البلدان (٢/٢٩٦) وتقويم البلدان (٤٠٢ – ٤٠٣) وكتاب صورة الأرض (٢٩٢ – ٢٩٤) .

(٩) البيضاء : مدينة ببلاد الخزر خلف مدينة باب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٣٦) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٧٧ – ٧٨) .

استشهاد الجرّاح (١) سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م) ؛ وكان الجرّاح خيرّاً فاضلاً من عمال عمر بن عبدالعزيز ؛ ورثاه كثير من الشعراء (٢) .

ولا يذكر المؤرخون سبباً لعزل مسلمة، ويبدو أنّ مسلمة كان في (دمشق) سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية ؛ فلم يَغْزُ في تلك السنة ، كما أن الترك سارت إلى (إذربيجان) فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم (٣) ، مما يدل على أنّ مسلمة كان بعيداً عن ميدان القتال ، فقاد المعركة قائد من قادته الذين يعملون بإمرته ؛ وهذا يدل على أن مسلمة كان في (دمشق) لأسباب قاهرة ، وقد يكون مريضاً ، لأنّ هشام بن عبد الملك لايمكن أن يستغني عن يده اليمنى في تلك المناطق النائية ، كما لا يمكن أن يعزله بدون رغبته إلاّ لأسباب قاهرة .

ولو أنّ هشام بن عبدالملك عزله لريبة أو لأنه قصّر بواجبه، لما أعاده إلى منصبه سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م) والياً على (إرْمينْية) و (أذربيجان) ، فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك في شتاء شديد حتى جاء (الباب) (٤) في آثارهم (٥)

وثبت مسلمة لمدينة (الباب) ففتحها ، وكان في قلعتها ألف رجل من بيوتات الخزر ، فحاصرهم ورماهم بالحجارة ؛ ثم رماهم بقنابل من الحجارة ، ولكنه لم ينتفع بذلك ، فعمد إلى العين التي يجري منها الماء إلى صهريجهم : فذبح البقر والغنم وألقى فيه الفرث والمواد الأخرى التي لا ينتفع بها الناس ، فلم يمكث ماؤهم إلاّ ليلة حتى دوّد وأنتن وفسد ، فلما جنّ عليهم اللّيل هربوا وأخلوا القلعة . وأسكن مدينة (الباب) أربعين ألفاً من أهل الشّام على العَطاء ، وبنى هُرْياً للطعام وهُرْياً للشعير وخزانة للسّلاح ، وأمر بكبس الصهريج ورمّ المدينة (٦) .

---

(١) ابن الأثير (٥ / ١٥٨) والنجوم الزاهرة (١ / ٢٧٠) .

(٢) ابن الأثير (٥ / ١٥٩) وابن خلدون (٣ / ٢٩٩) والنجوم الزاهرة (١ / ٢٧١) وتاريخ الموصل (٢٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٥٤) .

(٣) ابن الأثير (٥ / ١٥٨) .

(٤) الباب : وهي باب الابواب (دربند) : ميناء على بحر الخزر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ٩) وتقويم البلدان (٤٠٤ – ٤٠٥) .

(٥) ابن الأثير (٥ / ١٦٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٥٧) .

(٦) فتوح البلدان (٢٩١) .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠ م) ، فرّق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مدائن وحصون على يديه، وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ، ودان له من وراء جبال (بَلَنْجَر) (١) ، وقتل ابن خاقان (٢) ؛ فاجتمعت تلك الأمم جميعها : الخزر وغيرهم عليه في جمع لا يعلم عددهم إلاّ الله ،وقد جاوز مسلمة (بلنجر) ، فلما بلغه خبرهم ؛ أمر أصحابه : فأوقدوا النيران ، ثم ترك خيامهم وأثقالهم ، وعاد وعسكره جريدة؛ وقدّم الضعفاء وأخّر الشجعان ، وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة ، حتى وصل إلى (الباب) في آخر رمق (٣) ، فأكمل بناء (الباب) (٤) وحصّنها .

وفي سنة اربع عشرة ومئةالهجرية(٧٣١ م)استعمل هشامبن عبدالملك، مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمه على(الجزيرة) و(أذربيجان) و(إرمينية) وعزل مسلمة (٥) ، فأقبل بعدما هزم خاقان وأحكم ما هناك وبنى (الباب) (٦) .

فما هو سبب عزله ؟

لقد كان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ــ وهــو آخر خلفاء بني أميّة ــ مع عسكر مسلمة بأرمينية حين غزا الخزر ، فلما عاد مسلمة إلى (الباب) سار مروان إلى هشام بن عبدالملك ، فلم يشعر به حتى دخل عليه ، فسأله عن سبب قدومه ، فقال: «ضِقْتُ ذرعاً بما أذكره، ولم أر مَنْ يحمله غيري !» قال ! «وما هو ؟» قال مروان : «قد كان من دخول الخزر الى بلاد الاسلام وقتل الجرّاح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين. ثمّ رأى أمير المؤمنين أن يوجه أخاه مسلمة بن عبدالملك إليهم ، فوالله ما وطئ من بلادهم إلا أدناها ، ثمّ إنه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك . فكتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة

(١) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب ، انظر التفصيل في معجم البلدان (٢/٢٧٨).
(٢) في المعارف (٣٦٥) : أنه قتل خاقان ملك الترك .
(٣) ابن الأثير (٥ / ١٧٣ - ١٧٤) .
(٤) المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٥٩) .
(٥) ابن الأثير (٥ / ١٧٧) والنجوم الزاهرة (١ / ٢٧٣) وتاريخ الموصل (٣٤) والعبر(١/١٤١) وشذرات الذهب (١/١٤٧) وابن خلدون (٣ / ٣٠٠) .
(٦) ابن الأثير (٥/١٧٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٩) .

أشهر فاستعدّ القوم وحشدوا ، فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية ، وكان قصاراه السّلامة ،وقد أردتُ أن تأذن لي في غزوة أُذهب فيها عنّا العار وأنتقم من العدو».قال هشام : «قد أذنتُ لك» ؛قال : «وتمدّني بمئة وعشرين ألف مقاتل؟» ، قال : « قد فعلتُ » ، قال : « وتكتم هذا الأمر عن كل واحد ؟ » قال : « قد فعلتُ ، واستعملتك على إرمينية » (١)

وقد خرج مروان مختفياً عن مسلمة إلى هشام (٢) ، أي أنه عاد إلى الشام من الجبهة الأمامية دون إذن مسلمة ودون علمه ! ! !

وفي رواية أخرى : لما أقبل مسلمة ، زحفت إليه الخزر :فلم يشعر مسلمة حتى طلعوا عليه ، فقاتلهم وحال بينهم اللّيل ؛ وبات المسلمون يحيّون ، وانصرف الخزر وقفل مسلمة واستخلف مروان بن محمد ،وذلك كلّه سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية(٣)

والتناقض بين الروايتين واضح : فان مسلمة عاد بعد أن قتل خاقان وأحكم ما هناك (٤) ، فلم يدخل الوهن على المسلمين إذاً . كما أنّ مسلمة تغلغل في بلاد الخزر ، فكيف لم يطأ من بلادهم إلاّ أدناها ؟ !

أما أنه كتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب . وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر ، حتى استعد الخزر وحشدوا،فليس ذلك معقولا : إذ لا يمكن أن يتصرف أي قائد هذا التصرّف : فينذر عدوّه بالحرب ، ويفسح له المجال للاستعداد ، ثم يتراخى عن العدو ثلاثة أشهر ! !

أما أنّ مسلمة لم تكن له نكاية بالخزر ، فهذا ما يدحضه سير القتال ، وما أنجزه مسلمة في الحرب .

يبقى ماورد عن خروج مروان بن محمد مختفياً من مسلمة إلى هشام بن عبدالملك، فلو كان مروان مبيتاً الوشاية بابن عمه مسلمة : لاستأذنه في القفول إلى دمشق لسبب

(١) ابن الأثير (٥/١٧٧) ، وابن خلدون (٣/١٩٧)
(٢) ابن خلدون (٣/١٩٧) .
(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٩) .
(٤) ابن الأثير (٥ / ١٧٩) .

من الأسباب ثم يعود أدراجه إلى دمشق ، إذ ليس من المعقول أن يعود من (الباب) إلى دمشق ، وهو قريب القربى من مسلمة ، فيبقى أمر عودته سراً مكتوماً على مسلمة ولا يعرف مسلمة عن رحيله شيئاً ! !

كما أنّ العلاقة الوثيقة بين مسلمة ومروان من جهة ، والعلاقة الوثيقة بين هشام ومسلمة من جهة أخرى، تجعل من الصعب على مروان أن يشي بمسلمة، وتجعل من الصّعب على هشام أن يصدّق وشاية مروان، خاصة وأنها تناقض الحقائق الناصعة ولا يصدقها عاقل .

كل ذلك يجعلنا نعتمد الرواية الثانية ، وهي أنّ مسلمة بعد أن أنهى واجبه على أحسن ما يرام ، قفل راجعاً إلى دمشق ، واستخلف مروان على ولايته .

ويبدو أنّ مسلمة بعد عودته، اقترح على هشام أن يولي مروان مكانه، فاستجاب هشام لاقتراح مسلمة .

ولم يكن هشام ليعزل مَسْلمة الذي كان الرجل الثاني في الدولة الأموية ، وليس من المعقول أن يعزل مسلمة لعدم كفايته ، لأنّ كفايته فوق الشبهات ، ولأن هشام بن عبدالملك ولاه لكفايته حتى يعيد سيطرة الدولة على تلك الأصقاع النائية .

ومما يلفت النظر أنّ مسلمة لم يَغْزُ ولم يتول ولاية منذ سنة أربع عشرة ومئة الهجرية ، حتى توفّاه الله سنة عشرين ومئة الهجريّة أو سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية .

وغيابه عن تحمل أعباء الجهاد ، وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً على النهوض بهذا الفرض — ليس طبيعياً ، بالرغم من ثقة هشام به ثقة مطلقة ، وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ .

وإذا كان بالامكان أن يتخلى عن تولي المناصب الادارية ، فليس بالامكان أن يتخلّى عن تولي المناصب القيادية ، وهو الذي حمل السيف قائداً ولم يتجاوز العشرين من عمره وقضى كل سني حياته في ساحات الجهاد قائداً حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية ، فمن المعقول أنه تخلى عن المناصب القيادية لأسباب اضطرارية خارجة عن إرادته .

والذي يبدو أن تخليه عن القيادة مكرهاً، كان لاعتلال صحته وإصابته بالمرض، ومن المعروف أنّ من مزايا القائد المتميّز تمتعه بالقابلية البدنية المتميزة، ليستطيع تحمل مشاق التنقّل وأعباء الجهاد، وإلا فليس هناك ما يسوّغ ابتعاده عن ساحات الوغى غير المرض الذي أقعده عن قيادة الجيوش.

وعلى كل حال، فقد أدى ما عليه من واجبات قياديّة وإدارية بما فيه الكفاية، وخدم الدولة في ميداني القيادة والادارة على حد سواء بشرف وأمانة وإخلاص وقوة.



يتبـــع

محمود شيت خطاب

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد التاسع والعشرون



١٣٩٨ مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٧٨

فهرس المجلد التاسع والعشرين
من مجلة المجمع العلمي العراقي

مسلمة بن عبدالملك بن مروان

فاتح شطر الأنضول ومحاصِر القُسْطَنْطِيْنِيَّة

– ٣ –

الانســـان

اللواء الركن محمود شيت خطاب

١– ظهرت مزايا مسلمة وألمعيّته مبكّراً وهو صغير السن ، فركّز أبوه عبدالملك بن مروان عليه بخاصة في وصيته أبناءه وبنيه وهو على فراش الموت ، فقال فيه : « .... وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه ، فانه نابكم الذي عنه تفترون ، ومَجِنّكم الذي عنه ترمون (١) » ، فهو قائد من قادة الفكر ، وقائد من قادة الجهاد ، بالنسبة لبني أُميّة ، لايخالفون له رأياً ، ولا يعصون له أمراً ، ويلجأون إليه في ايام المحن والحروب .

لقد كان من رجال بنى أُميّة (٢) المعدودين ، موصوفاً بالشّجاعة والاقدام ، والرأى والدهاء (٣) ، وصفه يزيد بن المُهَلّب بن أبى صُفْرَة فقال : « .... إنى لقيتُ بنى مَرْوان ، فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد غَدْراً من مَسْلمة (٤) » ؛ فهو داهية مـــن الدُّهاة ، بعيد الغور ، شديد الذكاء .

---

(١) ابن الأثير (١١٧/٤ – ١١٨) .

(٢) تهذيب التهذيب (١٤٤/١٠) والبداية والنهاية (٣٢٨/٩) ونسب قريش (١٦٥) .

(٣) العبر (١٥٤/١) وشذرات الذهب (١٥٩/١) .

(٤) الطبري (٥٩٣/٦) وفيه : أبعد (غوراً) لا أبعد (غدراً) ، وانظر ابن الأثير (٨٠/٥) .

تولى العراقَيْن مرة ، وتولى (إرمينية) و (أذربيجان) و (الجزيرة) ثلاث مرات ، في أحرج الظروف وأصعب الأيام ، فوطّد الأمن فيها وأعاد الاستقرار إليها ، وفرض عليها سيطرة الدولة وهيبة الحكم ؛ فكان إدارياً حازماً ، ورجل دولة من الطراز الأول ، وقائداً متميِّزاً ، ومن أقواله التي تشير إلى هذه المزايا : « مُروءتان ظاهرتان : الرياسة والفصاحة (١) » .

فلا عجب أن يهتم أبوه به حيّاً ، ويوصي به وهو يحتضر ، ويفرض شخصيته على من تولى الخلافة بعد أبيه وعلى بني أُمية كافة ، وجميع الحكّام والمحكومين على حدسواء .

بل إنه فرض شخصيته على أعدائه أيضاً ، داخل حدودها وخارجها ، فكانوا يحسبون له ألف حساب .

فقد أسر الروم عبدالله بن كُلَيْب من بني عامر بن صَعْصَعَة ، وكان مع مسلمة في غزوة من غزواته الكثيرة ، فأراد قيصر ملك الروم قتله ، فقال له عبدالله : « والله لئن قتلتني لا تبقى بَيْعَة في بلاد الاسلام إلاّ هُدمت (٢) » ، فخشي قيصر مغبةقتله ، لأنه من رجال مسلمة الذي يدافع عن رجاله ويحميهم ، ولا يتخلّى عنهم حتى ولوكانوا أسرى بيد الأعداء ، وينتقم لهم إذا ما أُصيب أحدهم بسوء ظلما .

٢ــ لقد كان مسلمة ذا شخصية قوية رصينة، تستند على أسس ثابتة رصينة هي : الطبع الموهوب ، والعلم المكتسب ، والتجربة العلمية .

أما عن الطبع الموهوب ، فقد كان ذكياً ألمعيّ الذكاء ، ومن أحضر الناس جوابا . فقد مرّ مسلمة وكان من أجمل الناس بمُوَسْوِسٍ على مَزْبلة ، فقال له الموسوس : « لو رآك أبوك آدم ، لقرّت عينُه بك » ، فقال مسلمة : « لورآك أبوك آدم لأذهبت سَخنةُ عينه بك قُرّة عينه بي (٣) » .

وكان بعيد النظر ، لا يكاد يترك شاردة ولا واردة إلاّ ويمعن فيها الفكر بعمق وشمول ، فقد قدّر أنّ ثورة يزيد بن المهلّب ليست هيّنة ، وربما تعصف بالدولة ،

---

(١) عيون الأخبار (٢٥٦/١) .
(٢) المعارف (٥٥٦) .
(٣) العقد الفريد (٤١/٤) .

فخاف الحرب النفسية بالإشاعات ، ومنها الادعاء بوفاة الخليفة يزيد بن عبدالملك ، فيفت ذلك في عضد الجيش ، لذلك اقترح أن يوّلى هشام بن عبدالملك من بعده ، لكي يكون مسؤولاً عن توّلي الخلافة ، فيدير الدولة ، ولا يبقى عرضة للهزّات ، فبايع يزيد لأخيه هشام ، وبعده لابنه الوليد بن يزيد (١) .

٣- أما عن العلم المكتسب ، فقد كان مسملة محدّثاً ، روى الحديث عن عمر بن عبدالعزيز وروى عنه أبو واقد صالح بن محمد الليثي وعبدالملك بن ابي عثمان وعبيدالله ابن قزعة وعيينة والد سفيان بن عينية وعتبة بن أبى عِمْران الهلالى ويحيى بن يحيى الغسّانى ، وذكره ابن سميع في الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام (٢) .

وكان شاعراً مُقِلاً كما يبدو ، ومن شعره :

أرقتُ وصحراء الطَوانة بيننـــا ... لبرق تَلاَلاَ نحـــو غَمرة يلمحُ
أزاول أمراً لم يكن ليطيقـــه ... من القوم إلاّ اللّوْذَعِيّ الصَّمَحْمَحُ (٣)

وقد كتب بها إلى الوليد بن عبدالملك من القسطنطينيّة (٤)

فاذا صحّ أنّ هذين البيتين من شعر مسلمة ، فلا يصحّ أنه كتب بها إلى الوليد بن عبدالملك ، لأنّ مسلمة لم يكن في القسطنطينية أيام الوليد ، بل كان فيها أيـــام سليمان بن عبدالملك كما هو معروف ، وكما ذكرنا في الحديث عن: حصار القسطنطينية

وقـــال :

إني إذا الأصوات في القوم عَلَتْ ... في موطن تخشى به القوم العَنَتْ (٥)
مُوَطِنٌ نفسي على ما خيّلتْ (٦) ... بالصبر حتى تنجلي عما انْجَلَتْ (٧)

وشعره على قلّة ما وصل إلينا منه ، يجعله من الشعراء الفرسان ، أو من شعر الفروسية ولا يمكن وضعه في مكانه بين الشعراء استناداً على هذا الشعر القليل ، كما لا يمكن تقدير قابليته الشعرية للسبب نفسه .

---

(١) ابن الأثير (٥/٩٥) وابن خلدون (٣/١٧٤) وانظر الأغاني (٧/٢) .
(٢) تهذيب التهذيب (١٠/١٤٤) وانظر البداية والنهاية (٩/٣٢٨) والعبر (١/١٥٤) وشذرات الذهب (١/١٥٩) .
(٣) الصمحمح : الرجل الشديد المجتمع الألواح ، انظر ترتيب القاموس المحيط (٢/٧٨٢) .
(٤) معجم الشعراء (٢٧٨) .
(٥) العنت : المشقة والشدة ، انظر المعجم الوسيط (٢/٦٣٠) .
(٦) خيلت : شبهت . وعلى ما خيلت : أي على كل حال .
(٧) الحيوان للجاحظ (٥/٦٠٢) .

ولكنه كان يحب الشِّعر ، ويقدر الشعراء ، ويعرف قابلياتهم الشِّعرية ، ويثمِّن إنتاجهم الشعري ، ويكرم وفادتهم ويثيبهم على شعرهم ويحميهم من السلطان .

ومن أقواله في تقويم الشعراء : « ثلاثة لا أَسألُ عنهم ، أنا أعلم العرب بهم : الأخطل والفرزدق وجرير . فأما الأخطل فيجيء سابقاً أبداً ، وأما الفرزدق فيجيء مرة سابقاً ، ومرة ثانياً ، وأما جرير فيجيء سابقاً مرة وثانياً مرة وَسُكيتاً مرة (١) » .

ومن أمثلة إكرامه للشعراء ، ما حكاه كُثَيِّر (٢) ، قال : « شخصتُ أنا والأَحْوص(٣) ونُصَيْب(٤) إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ، وكل واحد منا يُدلّ عليه بسابقة له وإخاء ونحن لا نشك أنه يشركنا في خلافته ، فلما رفعت لنا أعلام خُناصرة (٥) ، لقينا مسامة بن عبدالملك جائياً من عنده ، وهو يومئذٍ فتى العرب ، فسلّمنا عليه ، فردَّ علينا السلام ، ثم قال : اما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر ! قلنا : ما وضح لنا خبر حتى انتهينا اليك . ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا ، فقال : إنْ يكُ ذو دِينِ بني مروانَ وليَ وخشيتم حرمانه ، فان ذا دنياها قد بقي ، ولكم عندي ما تحبّون ، وما ألبثُ حتى أرجع إليكم ، فأمنحكم ما أنتم أهله . فلما قدم كان رحالنا عنده ، بأكرم منزل وأفضل منزول به ، فأقمنا عنده أربعة أشهر ، يطلب لنا الأذن هو وغيره ، فلم يُؤذن لنا ، إلى أن قلتُ في جمعة من تلك الجُمع : و أني دنوت من عمر ، فسمعتُ كلامه فحفظته كان ذلك رأياً ، ففلت ، فكان مما حفظت من قوله ، لكل شعر زاد لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله له من ثوابه وعقابه ، فترغّبوا وترهّبوا ، ولا يطولنّ عليكم الأمد ، فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم ... في كلام كثير ... ثم قال : أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه

---

(١) الشعر والشعراء (١/٣٩٣) .

(٢) كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، من خزاعة .

(٣) الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٨٢) ، وقد جاء نسبه في كتاب : الشعر والشعراء : الأحوص بن مالك بن جعفر بن كلاب ، وقد زاد اسم مالك في نسبه ، أنظر الشعر والشعراء (١/٢٥٣) ، والأول أصح .

(٤) نصيب بن رباح أبو محجن الشاعر ، انظر خلاصة الذهب المسبوك (٣٤) ، وكان عبداً أسود لرجل من أهل وادي القرى ، انظر الشعر والشعراء (١/٣٢٢) .

(٥) خناصرة : بليدة من أعمال حلب ، انظر معجم البلدان (٣/٤٦٧) وترتيب القاموس المحيط (٢/١١٢)

نفسي ، فتخسر صفقتي وتظهر عَيْلتي (١) وتبدو مسكنتي ، في يوم لا ينفع فيه إلاّ الحقُ والصدق ... ثم بكى حتى ظننا أنه قاضٍ نحبه ، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء والعويل . وانصرفتُ إلى صاحبيّ ، فقلت لهما : خذا في شرح(٢) من الشعر غير ما كنا نقوله لعمر وآبائه ، فان الرجل أُخرويّ ليس بدنيوىّ . إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة ، فأذنَ لنا بعدما أذن للعامة ، فلما دخلتُ عليه سلمتُ ، ثم قلت : يا أمير المؤمنين ! طال الثواء ، وقلت الفائدة وتحدّثت بجفائك إيانا وفود العرب ، فقال : يا كثير ! (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرّقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل (٣) ، في واحد من هؤلاء أنت ؟ فقلت : ابن سبيل منقطع به ، وأنا ضاحك ، قال : أو لستَ ضيف ابي سعيد (٤) ، قلت : بلى ! قال : ما أرى من كان ضيفه منقطعاً به (٥) » .

ومن أمثلة إكرامه للشعراء ، أنه قال يوماً لنُصَيْب الشّاعر : « سَلْني ! » ، قال : « لا ! » ، قال : « ولِمَ ؟ » ، قال . « لأنّ كفّك بالجزيل أكثر من مسألتي باللسان ! » ، فأعطاه ألف دينار (٦)

ومن أمثلة حمايته للشعراء ، أنّ الكُمَيْت بن زيد (٧) كان يمدح بني هشام ويُعَرِّض ببني أُميّة ، فطلبه هِشام بن عبدالملك ، فهرب منه عشرين سنة ، لا يستقر به القَرار من خوف هشام . وكان مسلمة بن عبدالملك له على هشام حاجة في كل يوم يقضيها له ولا يردّ فيها . فلما خرج مسلمة بن عبدالملك يوماً إلى بعض صُيوده ، أتى الناس يُسَلِّمون عليه ، وأتاه الكُمَيت بن زيد فيمن أتى ، فقال : « السلام عليك أيها الأمير ورحمه الله وبركاته . أما بعد :

---

(١) العيلة : الفقر والحاجة ، انظر المعجم الوسيط (٦٤٠/٢) .
(٢) شرح : الضرب واللون ، وقد جاء في الشعر والشعراء (٤١٢/١) : شرج ، وهو تصحيف .
(٣) الآية الكريمة في سورة التوبة : ٦٠ .
(٤) أبو سعيد : مسلمة بن عبدالملك ، وهذه كنيته ، انظر تهذيب التهذيب (١٤٤/١٠) .
(٥) الشعر والشعراء (٤١١/١-٤١٢) والعقد الفريد (٧٦/٢-٨٨) ، والنص منقول عن الشعر والشعراء .
(٦) البداية والنهاية (٣٢٩/١٠) وتاريخ الاسلام (٣٠٣/٤) .
(٧) الكميت بن زيد ، من بني أسد ، وكان معلماً ، انظر الشعر والشعراء (٤٨٥/٢) .

قِفْ بالديار وُقوفَ زائِـــزْ وتأنَّ إنـــك غيـر صاغِرْ

حتى انتهى إلى قولـــه :

يا مَسْـــلم بـــن أبـــي الوَليـــــد لميِّتٍ إن شِئْتَ ناشِـــرْ

عَلِقَتْ حِبالى في حِبَـــا لك ذِمّـــة الجـــار المُجـــاورْ

فالآن صـــرتُ إلى أُميّـــة والأمـــــور إلى المصـــايـــرْ

والآن كنـــتُ بـــه المُصيْـــ بَ كَمُهْتَدٍ بالأَمسِ حائرْ »

فقال مسلمة : « سبحان الله ! من هذا الهِندِكي (١) الجِلْحَاب (٢) الذي أَقبلَ من أُخريات الناس ، فبدأ بالسّلام ، ثمّ أما بعد ، ثم الشعر ؟ » ، قيل له : هذا الكُميت بن زيد ، فأعجب به لفصاحته وبلاغته ؛ فسأله مسلمة عن خَبَره ، وما كان فيه طولَ غيبته ، فذكر له سُخط أمير المؤمنين عليه ، فضمن له مسلمة أمانه . وتوجّه به حتى أدخله على هِشام ، وهشام لا يعرفه . فقال الكميت : السّلام عليك يا أميـــر المؤمنين ورحمة الله وبركاته . الحمد لله ! » فقال هشام : « نعم ! الحمدلله ياهذا ! » . وتكلّم الكميت مستعطفاً ، فرضي عنه هشام وأمر له بجائزة (٣) ، إكراماً لمسلمة .

لقد كان مسلمة شاعراً ، يعرف للشعراء مكانتهم ، ويقدرهم حق قدرهم .

٤ـ وقد مدحه الشعراء ، ومن الامثلة على ذلك ما قاله الشاعر أبو نُخَيْلة التميمي فيـــه :

أَمَسْلُم إني يـــا ابنَ خير خليفةٍ ويا فارس الدنيا ويا جبَلَ الأرض

شكرتك إنَّ الشُّكر حَبْل من التُّقى وما كل مَنْ أوليتَه نعمةً يَقضي

وألقيتَ ـ لما جئتُ بابك زائراً ـ رواقاً مديداً سامق الطول والعرض

وأنبهتَ لي ذكرى وما كان خاملاً ولكنّ بعض الذكر أنبه من بعض (٤)

---

(١) الهندكى : (بكسر الهاء والدال) : الرجل من أهل الهند .

(٢) الجلحاب : الشيخ الكبير .

(٣) العقد الفريد (١٨٣/٢ـ١٨٥) وفيه تفاصيل استعطاف الكميت .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز (٦٤) .

ومدحه العجّاج بقصيدة طويلة من بحر الرّجز في أربعة وسبعين بيتاً نقتطف منها(١) :

مَسْلَم ، لا أَنْسَاكَ ما بَقِيتُ
فَضْلَكَ والعَهْدَ الذي رَضِيتُ
لو أَشْرَبُ السُّلْوانَ ما سَلِيْتُ
ما بِيْ غِنىً عنكَ وإنْ غَنِيْتْ
لو أنني صَمِمْتُ أو عَمِيْتُ

وكان لا يلحن كاتباً وشاعراً وخطيباً ، ومن أقواله في اللحن : « اللحن في للكلام ، أقبح من التفتيق في الثوب النفيس (٢) » ، وكان فصيحا (٣) . ومن اقواله : « ما قرأت كتاباً قط لأحد إلا عرفت عقله منه (٤) » .

فلا عجب أن يوصى بثلث ماله لأهل الأدب قائلاً : « إنها صنعة جحِف (٥) أهلها (٦) .

وكان كريماً (٧) غاية الكرم ، ومن الأمثلة على كرمه أنه دخل على عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه في المَرْضَة التي مات فيها ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنك فطمت أولاد ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، ولا بد لهم من شيء يُصْلحهم ، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نُظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم إن شاء الله » . فقال عمر : « أجلسوني » ، فأجلسوه ، فقال : « الحمدلله ! أبالفقر تخوفني يا مسلمة ! أما ما ذكرت أني فطمت الأفواه ولدى عن هذا المال وتركتهم عالة ، فاني لم أمنعهم حقاً هو لهم ، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم . وأما ما سألتَ من الوَصاة إليك أو إلى نُظرائك من أهل بيتي ، فان وصيّتي بهم إلى الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من

(١) ديوان العجاج (٤٦٤-٤٧١) .
(٢) عيون الأخبار (٢/١٥٨) .
(٣) البداية والنهاية (٩/٣٢٩) .
(٤) العقد الفريد (٢/٢٥١) .
(٥) جحف الشيء برجله : رفسه حتى يرمي به جانباً . وجحف أهلها : غبنهم .
(٦) البداية والنهاية (٩/٣٢٩) .
(٧) البداية والنهاية (٩/٣٢٩) ، وتاريخ الأسلام (٤/٣٠٣) .

أمره يُسرا ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غيّروفجر ، فلا يكون عمر أوّلَ من أعانه على ارتكابه ! ادعوا إليّ بَنيَّ ، فدعوهم ، وهم يومئذ اثناعشر غلاماً ، فجعل يُصَعِّد بصره فيهم ويصوّبه حتى اغرورقت عيناه بالدّمع ، ثم قال : بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم . يابنيّ ! إني قد تركتكم من الله بخير ، لأنكم لا تمرون على مُسلم ولا مُعاهد ، إلاّ ولكم عايه حق واجب إن شاء الله . يا بَنيّ ! مثّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دُخول أبيكم يوماً واحداً في النار . قوموا يا بَنيّ ، عَصمكم الله ورزقكم » ، قال : فما احتاج أحدٌ من أولاد عمر ولا افتقر (١) .

وأهدى إلى الحسن البصري رضى الله عنه خَميصة (٢) لها أعلام ، وكان الحسن يُصلّي فيها (٣) .

وكان إذا كثر عليه أصحاب الحوائج ، وخاف أن يضجر ، قال لآذنه : «إيذن لجلسائي » فيأذن لهم ، فيفتن ويفتنوا في محاسن الناس ، فيضطرب لها ويهتاج ، ويصيبه ما يصيب صاحب الشّراب ، فيقول لآذنه : « إيذن لأصحاب الحوائج » ، فلا يبقى أحد إلاّ قضيت حاجته (٤) .

٥ــ وكان سمحاً يفتح بابه وقلبه لكل غادٍ ورائح ، فيقضي حاجة المحتاج ، ويأخذ بيد المضطر ، ويغيث الملهوف ، ويجير من يستجير به حتى على الخلفاء .

فقد غضب هشام بن عبدالملك على عمر بن هُبيرة ، فأُتي به إلى خالد بن عبدالله القَسْريّ وهو والي العراق ، مغلولاً مُقَيّداً في مِدْرَعة (٥) ، فلما صار بين يَدَي خالد ألقته الرجال إلى الأرض ، فقال : « أيها الامير ! إن القوم الذين أنعموا عليك بهذه النعمة ، قد أنعموا بها عليّ من قَبْلك ؛ فأنْشُدك الله أن تَسْتَنَّ فيَّ بسُنّة يَسْتَنّ بها فيك مَنْ بعدك » ، فأمر به إلى الحبس . وأمر ابن هُبيرة غلمانه ،

---

(١) العقد الفريد (٤/٤٣٩) .
(٢) الخميصة : كساء أسود او أحمر له أعلام .
(٣) العقد الفريد (١/٢٧٤) .
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر – نسخة دار الكتب برقم ٤٩٢ –ج ٣٢ .
(٥) المدرعة (ككنسة) : ثوب ولا يكون إلا من صوف .

فحفروا له تحت الأرض سِرْدابا ، حتى خرج الحَفْر تحت سريره ، ثمّ خرج منه ليلاً ، وقد أُعِدَّت له أفراس يُدَاولها ، حتى أتى مسلمة بن عبدالملك ، فاستجار به ، فأجاره . واستَوْهبه مسلمة من هِشام بن عبدالملك ، فوهبه إيّاه . فلما قدم خالد بن عبدالله القَسْرِيّ على هشام ، وجد عنده ابنَ هبيرة ، فقال له : « إباق (١) العبد أبِقْتَ ! » ، قال له حين« نمتَ نومة الأَمَة(٢) » .

ولعل من المفيد إيراد قصة لجوء عمر بن هُبَيْرة إلى مسلمة ، لأنها تبرز مزايا جديدة لمسلمة ، منها قوة شخصيته وشهامته ومروءته ، إذ لا يمكن لأي انسان أن يجير على الخليفة إلا إذا كان نداً له مقرباً إليه موثوقاً به مُعْتَمداً عليه ، ومنها ورعه وتقواه ، ومنها اكرامه للضيف والاهتمام براحته والسّهر على رعايته حتى ولو كان من المغضوب عليهم من الخليفة بالذات .

فقد روى خادم مسلمة الذي كان يشرف على وَضوئه (٣) تلك القصة الطريفة فقال : « كان مَسْلَمة بن عبدالملك يقوم من اللّيل فيتوضأ ويَتَنَفّل (٤) حتى يُصبح فيدخل على أمير المؤمنين ، فاني لأصبّ الماء على يديه من آخر اللّيل وهو يتوضّأ ، إذ صاح صائح من وراء الرُّواق : أنا بالله وبالأمير ! فقال مسلمة : صوت ابن هبيرة ، أخرُج إليه فخرجت اليه ورجعتُ فأخبرته ، فقال : أدْخِله ، فدخل ، فاذا رجل يَميد نُعاساً ، فقال : أنا بالله وبالأمير ، فقال : أنا بالله وأنت بالله ، ثم قال : أنا بالله وبالأمير ! قال : أنا بالله وأنت بالله ، حتى قالها ثلاثاً . ثم قال : أنا بالله ! فسكت عنه ، ثم قال لي انطلق به فوضّئه وليُصَلِّ ، ثم اعرِض عليه أحبَّ الطعام إليه فأْتِه وافرش له في تلك الصُّفّة (٥) ـ لصُفّة بين يدي بُيوت النساء ، ولا تُوقِظْه حتى يقوم متى قام. فانطلقت به فتوضّأَ وصلّى ، وعرضتُ عليه الطعام ، فقال : شَرْبَة سَوِيق (٦) ، فشرب . وفرشت

(١) أبق أبقاً وإباقاً : هرب ، فهو آبق وأبوق . وأبق : أبق .

(٢) العقد الفريد (١٨٥/٢) وانظر العيون والحدائق (٨٤ و ٨٥) .

(٣) الوضوء (بفتح الواو) : الماء يتوضأ به .

(٤) تنفل المصلى : صلى النوافل . والنفل : ما شرع زيادة على الفريضة والواجب . والنافلة : ما زاد على الفرض ، يقال : هو يصلى النافلة ، وفي التنزيل العزيز : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) ، جمعها : نوافل .

(٥) الصفة : البهو الواسع العالي السقف .

(٦) السويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير ، يسمى بذلك لانسياقه في الحلق .

له ونام ، فجئتُ إلى مسلمة فأعلمتُه ، فغدا إلى هشام ، فجلس عنده حتى إذا حان قيامه ، قال : يا أمير المؤمنين إليّ حاجة ، قال : قُضِيَت إلاّ أن تكون في ابن هُبيرة ، قال : رَضِيْتُ يا أمير المؤمنين ؟! ثم قام منصرفاً ، حتى إذا كاد أن يخرج من الأيوان رجع ، فقال : يا أمير المؤمنين ! عوّدتني أن تَسْتثني في حاجة من حوائجي؟ وإني أكره يتحدّث الناس أنك أحدثتَ عليّ الاستثناء ! قال : لا أستثني عليك ، قال : فهو ابن هبيرة ، فعفا عنه (١) » .

٦ــ وما دمنا قد ذكرنا النوافل التي يؤديها مسلمة ليلاً ، وهي سمة من سمات الصالحين فمن المستحسن أن نركّز على الورع في مسلمة بن عبدالملك .

قال مسلمة : « لو رأيتني أنا وعمر بن عبدالعزيز ، ننتهي إلى الزّرع ، فيقحم عمر فرسه ، وأكفّ فرسي(٢) » ، والذي يبدو أن مسلمة يتحدث عن عمر قبل توليه الخلافة ، يوم كان كأمثاله من الشباب .

ومن الواضح أن مسلمة ، كان يعتبر عمر بن عبدالعزيز بعد توليه الخلافة ، المثل الأعلى له في الورع ، ويحاول أن يتعلّم منه ويقتدي به .

أمر عمر بن عبدالعزيز مسلمةَ أن يبكّر عليه ، وأمر بطبيخ ثريد عدسٍ وبألوان من لحم ، فلما غدا عليه مسلمة أقام عنده حتى تعالى النهار ووجد الجوعَ ، فقام ليذهب ، فحبسه عمر وقال له : « إجلس » . ثم أقام حتى انتصف النهار ، ثمّ قام ، فقال له عمر : « اجلس » ، حتى إذا بلغ من مسلمة الجوع فيما يُرى عمر ، دعا بطعامه ، فقربت ثريدة العدس ، فأقبل عليها مسلمة ، فأكل اكل مجهود قد بلغ منه الجوع ، ولم يأل حتى تَمَلأ ، فأمر عمر أن يرفع ، ودعا له بطعام طيّب ، فقال له : « كُلْ » ، فقال : « قد شبعتُ ، ما فيّ فضل » ، قال له : « فكيف بالسَّرف في الطعام ، والتَقَحُّم في النار ، وهذا يجزى عنه !! » . وأراد عمر رحمه الله عظته وتأديبه ، فقصر بعد ذلك مسلمة عما كان يكون عليه (٣) .

---

(١) العقد الفريد (٢/١٨٦-١٨٧) .

(٢) تاريخ الاسلام (٤/٣٠٣) وكتاب المعرفة والتاريخ (٢/٢٢٦) .

(٣) سيرة عمر بن عبدالعزيز (٤٣-٤٤) .

وقال مسلمة : « دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه فلا يدخل عليه أحد ، فجاءت جارية بطبق تمر صبحانيّ – وكان يعجبه التمر فرفع بكفّيه منه فقال : « يا مسلمة ! أترى رجلاً لو أكل هذا ، ثم شرب عليه الماء ، فان الماء على التمر يطيب ، أكان إلى الليل يجزيه؟ فقلت : لا أدرى ! فرفع أكثر منه فقال : فهذا ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين كان كافيه دون هذا حتى ما يبالى أن لا يذوق طعاماً غيره . قال : فعلامَ ندخل النار ؟ قال مسلمة : فما وقعت مني موعظة ما وقعت منى هذه (١) » .

وكما كان مسلمة يثق بورع عمر بن عبدالعزيز ، فقد كان عمر يثق بورع مسلمة . دخل مسلمة على عمر بن عبدالعزيز في مرضه الذي مات فيه ، فأوصاه عمر أن يحضر موته ، وأن يلي غسله وتكفينه ، وأن يمشي معه الى قبره ، وأن يكون ممن يلي إدخاله في لحده . ثم نظر إلى مسلمة ، فقال : « انظر يا مسلمة بأي منزل تتركني ، وعلى أي حال أسلمتني اليه الدنيا ! » فقال له مسلمة : « فأوصِ يا أمير المؤمنين » ، قال « مالي من مالٍ فأوصي فيه ! » قال مسلمة : « هذه مئة ألف دينار ، فأوصِ بها بما أحببتَ » ، قال : « أو خير من ذلك يا مسلمة ؟ ... أن تردها من حيث أخذتها » ، قال مسلمة : « جزاك الله عنّا خيراً يا أمير المؤمنين ! والله لقد ألنتَ لنا قلوباً قاسية ، وجعلت لنا ذكراً في الصالحين (٢) » .

ومن المعلوم أنّ المرء لا يوصي أحداً بأن يحضر موته ، ويلي غسله وتكفينه ، ويمشي معه الى قبره ، ويدخله في لحده ، إلاّ إذا كان يثق بورعه وتديّنه .

وقال مسلمة : « دخلت على عمر بن عبدالعزيز أعوده ، فاذا هو على فراش من ليف ، وتحته وسادة من أديم مسجىّ بشملة ، ذابل الشّفة ، كاسف اللّون ، وعليه قميص وسخ ، فقلت لأختي فاطمة وهي امرأته : اغسلوا ثياب أمير المؤمنين ! فقالت : نفعل . ثم عدتُ فوجدت القميص على حاله ، فقلت : ألم آمركم أن تغسلوا قميصه ؟ !

---

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز (١٣٤) .

(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز (١٠٥) وانظر العقد الفريد (٤٣٩/٤) .

فقالت : والله ماله غيره ! ! فسبّحتُ الله وبكيت ، فقلت : يرحمك الله ! لقد خوّفتنا بالله عزّ وجلّ ، وأبقيت لنا ذكراً في الصالحين (١) » .

وقال مسلمة : « رحم الله عمي – يريد عمر بن عبدالعزيز – والله لقد هلك وما بلغ ما ناله قط شرف العطاء ، إنه والله عضّ على مقدّم قميصه ، ثم شقى في الدنيا حتى خرج منها » ، ثم قال رافعاً صوته : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) (٢) .

وقال خالد بن صَفْوان : « لقيت مسلمة بن عبدالملك بالحيرة بعد هلاك ابن المهلب ، فقال : ياخالد ! أخبرني عن حَسَنِ أهل البصرة – يريد الحسن البصريّ رضي الله عنه – قلت : أنا جاره إلى جنبه ، وجليسه في حلقته وحديثه ، وأعلم مَنْ قِبَلى به : كان أشبه الناس سريرة بعلانية ، وأشبه قولاً بفعل ، إن قعد على أمر قام به ، وإن قام بأمر قعد عايه ، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به ، وإن نهى عن شيىء كان أترك الناس له ؛ وجدته مستغنياً عن الناس ، ووجدت الناس محتاجين إليه » ، قال مسلمة : « حَسْبُكَ حَسْبُكَ ! كيف ضلّ قوم كان هذا فيهم ؟! (٣) » ، يعنى كيف اتبعوا يريد ابن المهلّب ؟

ودخل مسلمة على يزيد بن عبدالملك صاحب حبابة وسلامة ، وكان قد ترك لشغله باللهو الظهور للناس وشهادة الجمعة ، فقال له مسلمة أخوه : « يا أمير المؤمنين ! قد تركت الامور ، وأضعت المسلمين ، وقعدت في منزلك مع هاتين الأمَتَيْن ، فارعوى قليلاً وظهر للناس (٤) » ، وهذا يدل على أمره بالاستعانة والمعروف ونهيه عن المنكر ، كما أنه يدل على أنه كان رجل دولة من الطراز الرفيع ،ويعرف واجب الحاكم تجاه المحكومين ، ولا يرضى للحاكم أن يغمط حقوق المحكومين .

---

(١) مختصر تاريخ الدول (١١٥) وانظر كتاب المعرفة وتاريخ (١/٦٠٠) .

(٢) الآية الكريمة من سورة القصص (٨٣) ، وقوله من كتاب المعرفة والتاريخ (١/٥٧٩) .

(٣) كتاب المعرفة والتاريخ (٢/٥١–٥٢) ، وأوردها ابو نعيم عن طريق محمد بن ذكوان ايضاً ، انظر حلية الأولياء (٢/١٤٧–١٤٨) .

(٤) الشعر والشعراء (١/٤٢٥-٤٢٦) .

وحاصر مسلمة حصناً ، فندب الناس الى نَقْب منه ؛ فما دخله احد ، فجاء رجل من عُرْض الجيش ، فدخله ، ففتحه الله عليهم ، فنادى مسلمة : « أين صاحب النَّقْب ؟ ! » ، فما جاءه أحد ! فنادى : اني قد امرتُ الآذن بادخاله ساعة يأتي ، فعزمت عليه إلاّ جاء ! فجاء رجل فقال : « استأذنْ لى على الامير ، فقال له : أنت صاحب النَّقْب؟ قال : « أنا أخبركم عنه ! » فأتى مسلمة فأخبره عنه ، فأذن له ، فقال له : « إن صاحب النَّقْب يأخذ عليكم ثلاثاً : ألاتسودوا اسمه في صحيفة الى الخليفة ، ولا تأمروا له بشيء ، ولاتسألوه : ممن هو ؟ » ، قال مسلمة : « فذاك له » ، قال : « أنا هو » . فكان مسلمة لايصلّي بعدها صلاة إلاّ قال : اللّهم اجعلني مع صاحب النَّقْب »(١)

ومن أقواله في الزّهد : « ان اقل الناس همّاً في الدنيا ، أقلهم همّاً في الآخرة (٢) ، يريد الهم الذي يورثه التكالب على جمع المال وإدارته وتنميته ، والهم الذى يعقب ارتكاب ما حرم الله ورسوله ، والهم الذى يورثه ارتكاب المعاصي والآثام ، والهم الذى يعانيه مرتكب الظلم والعدوان ، والهم الذي يشقى به المرء من جراء تــرك الفرائض والسنن ، والهم الذي يؤرّق المتخلّف عن الجهاد ، والهم الذى يشعر به المتولى يوم الزحف : ونحو ذلك .

ومن أقواله التى تدل على عمق إيمانه بالطهر المطلق للأنبياء : « الأنبياء لايتنابّون(٣) ، كما يتنابّ الناس ماناب نبيٌّ قط(٤) » ، أي أن الأنبياء بدرجة من السمو الخلقي بحيث لاينتقد بعضهم بعضاً ولايغتابون أحداً من البشر ، فذلك ليس من شأنهم ولا من صفاتهم ، كسائر الناس الذين ينتقدون ويغتابون ويتنكرون للجميل وينسون المعروف ويجفون العَشير ، تبعاً للواعج نفوسهم الامّارة بالسوء ، وانصياعاً لأهوائهم الشخصية وعواطفهم المتأرجحة دوماً بين الخير والشر .

---

(١) عيون الاخبار (١/١٧٢) .

(٢) تاريخ الاسلام (٤/٣٠٣) وكتاب المعرفة وتاريخ (٢/٢٢٦) .

(٣) نبب الشيء : عضه بنابه . يتنابون : يعض بعضهم بعضاً .

(٤) البداية والنهاية (٩/٣٢٩) .

وكان يؤدي فريضة الحج، ويقصد بيت الله في مكة المكرمة مُحْرِماً ويشد الرِّحال الى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كلما وجد الى ذلك سبيلا ، وقد تولى امارة الحج سنة أربع وتسعين الهجرية في ايام اخيه الوليد بن عبد الملك (١)

وكان كريماً (٢) لا يقتصر كرمه على الشعراء والأدباء ، وذوي القربى والأصدقاء والمحتاجين والفقراء ، بل يشمل الأعداء أيضاً ، وحسبك بذلك كرماً أصيلا .

فقد أعطى ألف دينار الى محمد بن على العباسيّ جد الخلفاء العباسيين ، وهو يعلم أنه يعمل بنشاط على الأمويين ، وفي رواية أنه أعطاه أربعة آلاف دينار (٣) .

ولم تذهب هذه الأريحية سدى ، ففي سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية، تجهز الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي العباسي لغزو الرّوم ، فخرج وعسكر بـ (البَرَدَان)(٤) ، وجمع الأجناد من (خُراسان) وغيرها . ثم سار عنها، بعد أن استخلف على (بغـــداد) ابنه موسى الهادي ، وسار على (الموصل) و (الجزيرة) . ولما حاذى قصرَ مَسلمة بن عبدالملك ، قال العبّاس بن محمد بن علي للمهدي : « إن لمسلمة في أعناقنا مِنّة » ، وكان محمد بن علي مرّ به ، فأعطاه أربعة آلالف دينار ، وقال له : « إذا نفدت ، فلا تحتشمنا » ، فأحضر المهدي ولد مسلمة ومواليه ، وأمر لهم بعشرين ألف دينار ، وأجرى عليهم الأرزاق (٥) .

وكانت أرض (بَغراس) (٦) ملكاً لمسلمة ، فوقفها في سبيل البر (٧) ، وهذا يدل على كرمه وتديُّنه معاً .

---

(١) الطبري (٦/٤٩١) وابن الاثير (٤/٥٩١) ، البداية والنهاية (٩/٣٢٨) والمحبر (٢٦) وتاريخ ابن خياط (١/٣١٦) .

(٢) البداية والنهاية (٩/٣٢٨) .

(٣) هو محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٠) .

(٤) ابن خلدون (٣/٤٤٧) وابن الأثير (٦/٦٠) .

(٥) البردان : قرية من قرى بغداد على سبع فراسخ منها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١١٣-١٦)

(٦) ابن الأثير (٦/٦٠) .

(٧) بغراس : مدينة بلحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية أربعة فراسخ على عين القاصد الى انطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرسوس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٤٥) .

(٨) فتوح البلدان (٢٠٣) .

أما التجربة العمليّة لمسلمة فكانت غنية إلى أبعد الحدود ، فقد شهد كيف تدار الدولة في أعلى المستويات . مع أبيه عبدالملك بن مروان ومع إخوته من بعده ، وكان الخلفاء من إخوته يحرصون على أن يبقى إلى جانبهم مستشارا ، يتعلّمون منه أكثر ممـا يتعلم منهم ، إلاّ إذا حزبهم أمر يهدد الدولة تهديداً خطيراً ، فيبعثونه ليقضي عـلى الثورات ، وليقمع الاضطرابات ، وليعيد الأمن والاستقرار .

وبالاضافة إلى ذلك ، ومن أجل ذلك ، كانت تجاربه العملية طويلة مستفيضة في اتجاهين : الاتجاه الاداري ، والاتجاه العسكري .

وتجربته في الاتجاه العسكري مكان الحديث عنها في مجال الحديث عن قيادته الذي سيأتي وشيكا .

٧ ــ أما الاتجاه الأداري ، فقـد ذكرنا أنه تولى (الجزيـرة) و (إرمينية) و(أذربيجان) ثلاث مرّات في أعقاب اضطرابات مريرة ، وهذه البلاد الشاسعة التي تشمل (جزيرة ابن عمر) وشمال إيران وتمتد شمالاً متغلغلة في الاتحاد السوفياتي حتّى (بخارى) و (سمرقند) وتضم عدة جمهوريات من جمهوريات الاتحاد السوفياتي أهمها جمهورية (أذربيجان) و (أزبكستان) و (تركستان) ، هي القسم الشمالي الشرقي من الدولة الأسلاميّة حينذاك .

كما أنه تولىّ مرة (العراقَيْن) وهي (العراق) و(خُراسان) ،وتضم ولايته (الأفغان) و (السِّند) بالأضافة إلى (إيران) الجنوبي والعراق ، وهي القسم الشرقي من الدولة الأسلاميّة حتى حدود (الصِّين) . وتولى هذه الأصقاع في أيام ثورات عارمة واضطرابات قاسية ، فأثبت وجوده بالحزم والحكمة والكفاية ، فكان بحق إدارياً حازماً ، ورجل دولة من الطراز الرفيع .

ومن إمعان النظر في أسلوب إدارته ، نجده يأخذ بالحزم والشّدة ، حتى تستقيم له الأمور كما يريد ، فاذا استقامت الأمور ، عالج المشاكل بالحكمة والتّسامح والبناء والتعمير ، فيعيد بذلك القلوب النافرة الى الصفاء ، والنفوس المتغيِّرة إلى الرضى ، ويبني الرجال ولا يحطِّمهم ، ويسترضي الأعداء بالعفو والحسنى .

هدم (باب الابواب) ليقضي على عصيانها ، فلما استعاد فتحها أعاد بناءها وزاد في عمارها ، وحصّن أسوارها (١) ، فأصبحت أكثر عمراناً وأقوى تحصيناً .

وما يقال عن (باب الأبواب) . يقال عن سائر المدن الأخرى .

أما عن بناء الرجال واستمالة قلوبهم ، فمن الأمثلة على ذلك ، أنّ مسلمة أقسم أن يبيع ذرية آل المهلّب إذا انتصر عليهم في حرب يزيد بن المهلّب . وانتصر مسلمة وأراد أن يبرّ بقسمه ، فقال له الجَراح بن عبدالله الحكَميّ : « فأنا أشتريهم » ، فاشتراهم منه الجرّاح بمئة ألف وخلىّ سبيلهم ، ولم يأخذ مسلمة من الجرّاح شيئاً (٢) .

ومن الواضح أنّ مسلمة أراد أن يفت في عضد آل المهلّب وهو يُقْسم أن يبيع ذراريهم ويؤثر في معنوياتهم ، وهذه هي جزء من الحرب النفسية التي مارسها مسلمة ضد يزيد بن المهلب وآل بيته في محاولةٍ لاجبارهم على الاستسلام .

ولكنه حين انتصر ، أراد أن يتحلّل من قسمه ، فباع ذريّة آل المهلّب بيعاً صورياً ، لرجل من أخلص الرجال وأنبلهم وأكثرهم مروءة وشهامة ، لكي يخلي سبيلهم ليصبحوا أحراراً ، ومن المؤكد أن الذي اشتراهم أخلى سبيلهم برغبة مسلمة وموافقته ، والدليل على ذلك أنّ مسلمة لم يأخذ ثمنهم ممن اشتراهم ، وليس بمقدور مَن اشتراهم أن يخالف أوامر مسلمة أو يحقق غير رغباته .

وكما كان للخلفاء كتاب وهيئة من الأداريين، كان لمسلمة كتابه وهيئته الأدراية ، كأي رجل دولة أمين حصيف .

فقد كان يكتب لمسلمة سميع مولاه ، وعلى ديوان الرّسائل اللّيث بن أبى رُقَيّة مولى أم الحكم بنت أبى سُفْيان بن حرب ، وعلى ديوان الخراج سليمان بن سعد الخشَنيّ ، وعلى ديوان الخاتَم نُعَيْم بن سلامة مولىً لأهل اليمن من (فِلَسْطِيْن) ، وقيل : بل رجاء بن حَيْوَة كان يتقلد الخاتَم (٣) .

---

(١) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) .

(٢) الطبري (٦٠٢/٦) وابن الأثير (٨٦/٥) .

(٣) الطبري (١٨١/٦) .

ولا نكاد نعرف شيئاً عن الأسماء التي ذكرناها ، عدا رجاء بن حَيْوَة الذي هو أشهر من أن يُعَرَّف ، وحسبنا أن نذكر عنه أنه كان من أبرز فقهاء عصره وأكثرهم ورعاً واستقامة ، وكان عالماً عاملاً محافظاً على كرامة العلماء ، لذلك كان المستشار الأول لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه والموجِّه الأول لسياسته الشرعيّة ، وهو الذي أشار على سليمان بن عبدالملك أن يستخلف من بعده عمر بن عبدالعزيز ، فكان له ما أراد (١) ، ووقف موقفاً حاسماً مشرِّفاً بعد موت سليمان لكي يبايع بنو أميّة عمر ابن عبدالعزيز منعاً للفتنة وحقناً للدماء، فكان بحق رجل الساعة في ذلك اليوم العصيب(٢) وكان مسلمة بن عبدالملك يقول في رجاء : « في كِنْدة ثلاثة رجال إنّ الله لينزل الغيث بهم وينصرهم على الأعداء: رجاء بن حيوة وعبادة بن نسيء وعَديّ بن عَدي » (٣)

فاذا عرفنا سيرة رجاء بن حيوة وجهلنا سير زملائه في الهيئة الأدارية لمسلمة، فقديكون ما عرفناه عن رجاء مؤشراً واضحاً لأسلوب مسلمة في اختيار زملاء رجاء العاملين مع مسلمة والمتعاونين مع رجاء ، وهو أسلوب اختيار الصفوة كفاية وأمانة وقدراً وجلالا .

٨ – وكانت همته عالية في استصلاح الأرض لتكون صالحة للزراعة ، فقد انبثقت البُثُوق (٤) أيام الحجّاج بن يوسف الثقفيّ ، فكتب الحجّاج الى الوليد بن عبدالملك يُعْلمه أنه قدّر لسدّها ثلاثة آلاف ألف درهم ، فاستكثرها الوليد ، فقال مسلمة : « أنا أُنفق عليها ، على أن تقطعني الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق ثلاثة آلاف ألف درهم ، يتولىّ إنفاقها ثقتك ونصيحك الحجّاج » ، فأجابه الى ذلك ، فحصلت له أرضون من طساسيج(٥) متّصلة، فحفر السَّيْبَيْن (٦) وتألّفَ الأكَرة (٧) والمزارعين ، وعمر تلك الأرضين ، وألجأ اليها ضياعاً كثيرة للتعزز(٨) به (٩) .

---

(١) ابن الأثير (٥/٣٩) .
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٥٠–٥٥٣) وابن الأثير (٥/٣٩–٤٠) وابن خلدون (٢/١٦١/١٦٢)، وانظر ما جاء عن رجاء في : تهذيب الأسماء واللغات (١/١٩٠) والبداية والنهاية (٩/٣٠٤) .
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٩٠) .
(٤) البثوق جمع البثق ، وهي موضع انبثاق الماء من نهر أو نحوه .
(٥) الطساسيج : جمع الطسوج (بوزن قدوس) : جزء من أجزاء الكورة . والكورة : كل صقع يشتمل على عدة قرى.
(٦) السيب : مفرد السيبين ، كورة من سواد الكوفة ، وهما سيبان الأعلى والأسفل . انظر معجم البلدان(٥/١٩٠) .
(٧) الأكرة : جمع الأكار ، والأكار الحراث .
(٨) عززه : شده وقواه . واعتز به : تشرف وعد نفسه عزيزاً به . وتعزز فلان : عز ، وتعزز به : اعتز .
(٩) فتوح البلدان (٤١٣) .

والأرض التي استصلحها مسلمة بعدما كانت مستنقعات، هي في سواد مدينة(الكوفة) على نهر الفرات الأوسط ، فأنجز بذلك مشروعاً زراعياً كبيراً على حسابه الخاص ، بعد أن استكثرت الدولة الانفاق عليه ، وتلك همّة عالية في إعمار الأرض واستصلاحها يندر أن نجد لها مثيلا .

ولما توجّه مسلمة غازياً للروم باتجاه الثغور الجزريّة ، عسكر في (بالِس) (١) ، فأتاه أهلها وأهل (نُوِيلس) (٢) و(قاصرين) (٣) و(عابِدِيْن(٤) ،و(صِفِّيْن)(٥)، وهي قرى منسوبة إلى (بالس) ، فأتاه أهل الحد الأعلى ، فسألوه جميعاً أن يحفز لهم نهراً من (الفُرات) يسقي أرضهم ، على أن يجعلوا له الثُّلث من غلّاتهم بعد عشر السلطان الذي كان يأخذه ، فحفر لهم النهر المعروف بنهر (مسلمة) ، ووفوا له ، ورم سور (بالس) وأحكمه . ويقال : بل كان ابتداء العرض من مسلمة ، وأنه دعاهم إلى هذه المعاملة ، فلما مات مسلمة صارت (بالس) وقراها لورثته ، فلم تزل في أيديهم حتى جاءت الدولة العباسية ، فقبض عبدالله بن على بن عبدالله بن العبّاس أموال بني أُميّة ، فدخلت فيها (٦) .

ولعلّ من أسباب نجاحه إدارياً ، قوة شخصيته ومزاياه الرفيعة بالأضافة إلى قرابته القريبة من الخلفاء والأمراء .

ففي سنة إحدى ومئة الهجرية تُوفي محمد بن مروان بن الحَكَم أخو عبدالملك بن مروان ، وكان قد ولي (الجزيرة) و (إرمينية) و (أذربيجان) وغزا الرُّوم وأهل (إرمينية) عدّة دفعات ، وكان شجاعاً قوياً ، وكان عبدالملك يغبطه لذلك ولما انتظمت الأمورُ لعبدالملك ، أظهر ما في نفسه له ، فتجهز محمد ليسير إلى (ارمينية) ، فلما ودّع عبدالملك ، سأله عن سبب مسيره ، فأنشد :

---

(١) بالس : بلدة بالشام بين حلب والرقة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٦/٢) .

(٢) نويلس : كذا في فتوح البلدان (٢٠٥) ، أما في معجم البلدان (٤٦/٢) فقد جاءت (بويلس) ، وهي قرية من قرى بالس ، انظر فتوح البلدان (٢٠٥) ، ولم يرد لها ذكر في معجم البلدان .

(٣) قاصرين : بلد كان بقرب بالس ، وكان له ذكر في الفتوح ، انظر معجم البلدان (١٣/٧) ، وفي فتوح البلدان (٢٠٥) : إنها قرية من قرى بالس .

(٤) عابدين : قرية من قرى بالس ، انظر فتوح البلدان (٢٠٥) ، ولم يرد لها ذكر في معجم البلدان .

(٥) صفين : موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس ، انظر معجم البلدان (٣٧٠/٥) ، وهي قرية من قرى بالس ، انظر فتوح البلدان (٢٠٥) .

(٦) فتوح البلدان (٢٠٥-٢٠٦) ومعجم البلدان (٤٦/٢) .

وإنك لا تـرى طرداً لحـر كالصاق بـه بعضَ الهوان
« فلـو كنّـا بمنزلـة جميعـاً جريتُ وأنت مضطرب العِنـان

فقال له عبدالملك : « أقسمتُ عليك لتقيمنّ ، فوالله لارأيتَ منى ما تكره » ، ثـم صلح له . ولما أراد الوليد عزله ، طلب مَنْ يسدّ مكانه ، فلم يقدم أحد عليه إلامسلمة ابن عبدالملك(١) .

ذلك هو مبلغ شخصية مسلمة قوّة ونفوذا ، فلا عجب أن يحظى بكل هذا النجاح إدارياً وقائـدا .

٩ ــ وما دام مسلمة احرز كل هذا النجاح بكفايته ومزاياه الأخرى ، حتى أصبح محط أنظار الناس حكاماً ومحكومين ، وأصبحت له شعبية كاسحة ونفوذ عظيماً ، فلما وثق به الخلفاء بخاصة والناس بعامة ، والحكام يخشون مَنْ نال حظوته وشعبيته ومزاياه .

إنّ المتبع لسيرته يجد أنه كان مخلصاً غاية الاخلاص لبني أمية ، ويدين بالولاء المطلق للخلفاء ، ولم يكن يطمح بتولي الخلافة لأنّ بني أُمية لم يكونوا يبايعون لبني أمهات الأولاد ، ولم يكن لعبد الملك بن مروان ابن أسد رأياً ، ولا أذكى عقلاً ، ولا أشجع قلباً ، ولا أسمح نفساً ، ولا أسخى كفاً من مسلمة ، وإنما تركوه لهذا المعنى (٢) !

وكانت بنو أُميّة لا تستخلف بني الأماء ، وقالوا : لا تصلُحُ لهم العرب . وقد سابق عبدالملك بن مروان بين ولديـه : سليمان ومسلمة ، فسبق سليمانُ مسلمة ، فقال

ألم أنهكم أن تحملوا اهُجَناءكم على خيْلكم يوم الرِّهان فتُدْرِكُ
وما يستوى المرآن ، هذا ابن حُرَّة وهذا ابن أُخرى ظهرها مُتشرّكُ
وتضعف عضداه ويَقْصُرُ سوطُه وتَقْصُرُ رجْلاه فلا يَتَحرَّكُ
وأدركنـه خالاتـه فنزَعْنَـه ألا إنَّ عِرقَ السّوء لابُدَّ يُدْرَكُ

ثم أقبل عبدالملك على مَصْقَلة بن هُبَيْرَة الشّيباني فقال : « أتدرى مَنْ يقول هذا ؟ » ، قال : « لا أدري ! » . قال : «يقوله الشّنْىّ (٣) » . قال مسلمة : « يا أمير المؤمنين ! ما هكذا قال حاتم الطائيّ ! »،قال عبدالملك : « ماذا قال حاتم؟! »، « قال مسلمة » قال حاتم :

---
(١) ابن الأثير (٥/٧٠) .
(٢) العقد الفريد (٦/١٣١) .
(٣) في المرزباني (٢٤٠) : أن الشعر لعمرو بن مبردة العبدى .

« وما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباءُ مذلّةً ولا كُلِّفت خبزاً ولا طبخت قِدْرا
ولكنْ خلطناها بخير نسائنا فجاءت بهم بيضاً وجوهُهم زُهرا
وكائن ترى فينا من ابن سَبِيّةٍ إذا لقيَ الابطالَ يَطْعنهم شَزْرا
ويأخذ رايات الطّعان بكفِّه فيُوردها بيضاً ويُصدرها حُمرا
أغرَّ إذا اغبرَّ اللئامُ رأيتَهُ إذا ماسرَى لَيلَ الدُّجَى قمراً بدرا »

فقال عبدالملك كالمُستحي :

« وما شرّ الثلاثة أمّ عمرو بصاحبك الذي لا تَصْبَحينا (١) »

ومهما يقال في صحة هذه المحاورة أو عدمها ، فهي تدل على اتجاه بني أُميّة المعروف ، وهو عدم استخلاف بني الأماء .

وكان الوليد بن يزيد بن عبدالملك قد بايع لابنيه الحَكَم وعُثْمان ، وهو أوّل مَن بايع لابن سُرّيّةٍ أَمَةٍ ، ولم يكونوا يفعلون ذلك (٢) .

لم يكن لمسلمة أمل في تولي الخلافة ، مع انه كما يقول الذهبي : « كان أحق بالملك من سائر إخوته » ، وكان ذا عقل راجح ورأى سديد يحولان بينه وبين مغامرة تشق صفوف المسلمين ، وكان بحق من أكثر الناس حرصاً على رصّ الصفوف والوحدة ، كما أنه كان يعتبر الخلافة (وسيلة) من أجل خدمة الأمة لا (غاية) من أجل أطماع شخصيّة وأمجاد أنانيّة ، وهو بحق أيضاً خدم الأمة أجل الخدمات ، وبذلك حقق (الوسيلة) واستغنى عن (الغاية) .

ويخيّل إليّ أنه كان مخلصاً لأبعد الحدود إلى أقربائه وأصحابه وأصدقائه وأترابه ، الأحياء منهم والأموات ، ولعلّ هذه الأبيات من شعره تدل على هذا الأخلاص .

---

(١) الأغاني (٦/١٣٠–١٣١) .
(٢) الأغاني (٧/٧١) .

قال مسلمة :

قد كنتُ أبكي على ما فاتَ من سلفي　　وأهل ودّي جميعاً غير أشتات

فما حياة امرىء أضحت مدامعه　　نوى بكيت على أهل المودات

فالآن إذ فرّقت بيني وبينهمُ　　مقسومة بين أحياء وأموات (١)

فمثل هذه النفسية المخلصة بالطبع لا بالتطبّع ، لا يمكن أن تضرب أحداً من الخلف ، لأغراضٍ شخصية وأمجاد ذاتية .

كما كان يرضخ للحق بسهولة ويسر دون مكابرة ولا مجادلة ، قال مسلمة : «أليس قد أمرتم بالطاعة يعني (أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم)(٢) ، فقيل له : إنّ الله قد انتزعه منكم إذا خالفتم الحق ، قال تعالى : (فان تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرّسول) (٣) ، قال : فأين الله ؟ فقيل له : الكتاب ، قال : فأين الرّسول ؟ فقيل له : «السُنّة » (٤) ، فرضخ مسلمة للحق فوراً دون مماراة !

فهو يعلم أنّ الحق المعمول به حينذاك هو عدم تولية الخلافة لابن أمة ،فهو يقرّ هذا الحق ويعترف به .

لذلك لم يكن الخلفاء يخشونه على سلطتهم ، فأولوه ثقتهم الكاملة .

بقي عليّ أن اتحدث عنه رجلاً له سمات شخصية تختلف عن الرجال الآخرين ، أو بتعبير آخر التحدث عن شئونه الشخصية الخاصة به .

هو مسلمة بن عبدالملك بن مروان القرشيّ الأُموي (٥) أبو سعيد وأبو الأصبغ(٦) ، وكان يلقب بالجرادة الصّفراء (٧) لصفرة كانت تعلوه (٨) ، ومع ذلك فان الجرادة

---

(١) ابن شاكر «الكتبى – عيون التواريخ – نسخة مخطوطة بدار الكتب – رقم (١٤٩) حوادث سنة ١٢٩هـ .
(٢) من سورة النساء (٤ : ٥٩) .
(٣) سورة النساء (٤ : ٥٩) .
(٤) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر – نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٩٢) – (ج٣٢) .
(٥) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) . .
(٦) جمهرة أنساب العرب(١٠٣) وتاريخ الاسلام (٣٠٢/٤) والمعارف(٣٥٨) وتهذيب التهذيب(١٤٤/١٠) .
(٧) نسب قريش (١٦٥) والبداية والنهاية (٣٢٨/٩) والمعارف (٣٥٨) ، وتاريخ الاسلام (٣٥٨/٩) وتهذيب التهذيب (١٠ / ١٤٤)
(٨) المعارف (٣٥٨) ، وعظماء من ذوى العاهات (٩٩) ، وفيه : « وكان مسلمة أصفر الجلد كأنه جرادة صفراء » .

الصفراء من أنهم الجراد في اكتساح المزارع والزروع ، فاذا ألمّت بزرع أو نبات أتت عليه ولم تُبق منه على شيء، وهذا يرمز لضراوة مسامة في الحروب وشدّة وطأته على الأعداء .

وكان جميل الصورة حسن الوجه صبيحاً ، من أجمل الناس(١) ، وهو معدود من الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام (٢) .

تزوج مسلمة بالرَّباب بنت زفر (٣) بن الحارث بن عبد عمرو بن مُعاذ بن يزيد ابن عمرو الصَّعِق (٤) الفَزارى (٥) ، فكان يؤذن لأخويها : الهُذَيل والكَوْثر في أول التاس (٦) وقد يتبادر إلى الأذهان أنّ مسلمة يتحيّز لهما لأنهما أخوا زوجة الرَّباب ، والواقع أنهما كانا من الرؤساء ، كما أنّ الهُذَيْل هو قاتل يزيد بن المهلَب يوم (العَقْر) وقيل غير ذلك (٧) .

وتزوج مسلمة أمّ سَلَمة بنت يعقوب بن سلمة المخزوميّة ، وقيل تزوجها عبدالله ابن عبدالملك (٨)، ولم تذكر المصادر التي وصلت إلي شيئاً عن زوجاته الأخرى .

ولمسلمة عَقِبُ(٩) كثير. (١٠) باقٍ بقرب (حَرَّان)(١١) في حِصْن يقال له : (حصن مَسْلمة) . وله من الولد : يزيد بن مسلمة ، وابراهيم بن مسلمة قتل ،

---

(١) العقد الفريد (٤/٤١) .

(٢) تهذيب التهذيب (١٠/١٤٤) . والتابعي : من لقي الصحابة مؤمناً بالنبي صلى الله عليه وسلم ومات على الاسلام ج : التابعون .

(٣) ابن الأثير (٤/٣٤٠) وأنساب الأشراف (٥/٣٠٧) .

(٤) الصعق : هو خويلد بن نفيل بن عمرو بن كلاب ، كان سيداً يطعم الطعام بعكاظ ، وأحرقته صاعقة فلذلك سمي : الصعق ، أنظر جهرة أنساب العرب (٢٨٦) .

(٥) جمهرة أنساب العرب (٢٨٦) .

(٦) ابن الأثير (٤/٣٤٠) .

(٧) جمهرة أنساب العرب (٢٨٦) .

(٨) المحبر (٤٤٥) .

(٩) العقب : الولد ، وولد الولد الباقون بعده (ج) : أعقاب .

(١٠) المعارف (٣٥٨) .

(١١) حران : مدينة عظيمة مشهورة ، وهي قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم ، وبين الرقة يومان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٤٢) .

وشراحيل بن مسلمة سُمَّ هو وابراهيم الأمام العباسي فماتا جميعاً في سجن مروان(١) في (حَرّان)، ومحمد بن مسلمة كان من أكرم الناس وأشجعهم ، وشهد مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة يوم التقى مع عبدالله بن علي العباسيّ ، وكان صديقاً لعبدالله، فأمّنَه، فلحق به، فلما رأى فعل أهل (خُراسان) في أهل (الشّام)، حميتْ نفسه، فقال :

ذُلُ الحيـاةِ وخِزْيُ المَمـات فكلاًّ أراه شـراباً وبيـلا
فان كان لابـدَّ إحْداهمـا فَسيرا إلى المَوْتِ سَيْراً جميلا (٢)

ثم لحق بمروان ، فقاتل معه حتى قُتل . ومن أولاده اسحق بن مسلمة (٣) .

و (حصن مسلمة) (٤) الذي كان يعيش فيه عقب مسلمة، حصين من أعمال (جزيرة ابن عمر) بين رأس عَيْن (٥) و (الرَّقّة) (٦) ، بناه مسلمة (٧) ، فورثه

---

(١) مروان بن محمد بن الحكم آخر خلفاء بني أمية .

(٢) قالهما متمثلا ، والبيتان لبشامة بن الغدير من قصيدة في المفضليات (٥٩) .

(٣) انظر تفاصيل ولد مسلمة في : جمهرة أنساب العرب (١٠٣-١٠٥) .

(٤) حصن مسلمة : حصن : بالجزيرة ، بينه وبين البليخ ميل ونصف ، وشرب أهله من مصنع فيه طوله مئتا ذراع في عرض مثله ، وعمقه نحو عشرين ذراعاً، معقود بالحجارة ، وكان مسلمة قد أصلحه . الماء يجري فيه من (البليخ) في نهر مفرد من كل سنة مرة حتى يملأه، فيكفي أهله بقية عامهم، ويسقي هذا النهر بساتين حصن مسلمة، وفوهته من (البليخ) على خمسة أميال . وبين حصن مسلمة وحران تسعة فراسخ، وهو على القاصد للرقة من حران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٦/٣)، والمصنع : حوض يجمع فيه ماء المطر ونحوه، انظر المعجم الوسيط (٥٢٦/١) . والبليخ : اسم نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون ، وأعظم تلك العيون عين يقال لها : الذهبانية في أرض (حران)، فيجري نحو خمسة أميال ، ثم يسير الى موضع قد بنى عليه مسلمة بن عبدالملك حصناً يكون أسفله قدر جريب وارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً، وأجرى ماء تلك العيون تحته، فاذا خرج من تحت الحصن يسمى : بليخاً ، ويتشعب من تلك الموضع أنهار تسقي بساتين وقرى ثم تصب في الفرات تحت (الرقة) بميل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٢/٢-٢٨٣) وصورة الأرض (٢٠٦-٢٠٧) .

وقد جاء ذكر : (حصن مسلمة) في كتاب : بلدان الخلافة الشرقية – لسترنج ، فقال : « ينسب هذا الحصن إلى مسلمة بن عبدالملك الخليفة الأموي ، أنظر (١٣٦)، ولم يكن مسلمة خليفة من خلفاء بني أمية ، بل كان أميراً من أمرائهم .

(٥) رأس عين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ، بينها بين نصيبين خمسة عشر فرسخاً وقريب من ذلك بينها وبين حران، وفي رأس عين عيون كثيرة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور (خابور الفرات)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٥/٤-٢٠٧) وصورة الأرض (٢٠٠) .

(٦) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام ، معدودة في بلاد الجزيرة ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٢/٤-٢٧٣) .

(٧) معجم البلدان (٢٨٦/٣) .

أولاده عنه ، وكان هذا الحصن قد بني على قدر جَرِيب (١) من الأرض ، وارتفاعه في الهواء أكثر من ثلاثين ذراعاً (٢) .

وقد أطلق على عقب مسلمة لكثرتهم : (بنو مسلمة) ،وهم بطن من بطون بني أُميّة ، من قريش ، من العدنانيّة ، مساكنهم مع قومهم بني أُميّة ب (تَنْدَة) (٣) من بلاد (الأشْمُونين) (٤) في الصعيد المصري (٥) ، ولا تناقض بين سكنى بني مسلمة في (حصن مسلمة) وفي صعيد مصر ، فقد سكن قسم منهم هنا ، وقسم منهم هناك .

ولمسلمة دار في دمشق (٦) في حجلة القباب عند باب الجامع القبلي (٧) ، والجامع هو جامع بني أُمية بدمشق الذي يطلق عليه اليوم : الجامع الأُمويّ .

وكان يوسِّع على أهله بيته إسكاناً وإطعاماً وإكساءاً ، ومن أقواله : « العيش في ثلاث : سعة المنزل ، وكثرة الخدم ، وموافقة الأهل (٨) » ، ولا عجب في ذلك ، فقد كان يوسِّع على مَنْ يعرف ومَن لا يعرف من ضيوفه وقاصديه .

وتوفي في سنة عشرين ومئة الهجريّة (٩) (٧٣٧ م) ، وفي رواية أخرى أنه توفي سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية (١٠) (٧٣٨م) ، بعد أن ترك آثاراً كثيرة (١١) .

---

(١) الجريب : مكيال قدر أربعة أقفزة . وهنا يراد به مساحة من الأرض يعادل ثلث ايكر ، انظر بلدان الخلافة الشرقية (١٣٦) .

(٢) بلدان الخلافة الشرقية (١٣٦) .

(٣) تندة : قرية كبيرة في غربي النيل من الصعيد الأدنى ، انظر معجم البلدان (٢/١٤٤) ، وانظر زبدة كشف الممالك (٣٣) عن الصعيد .

(٤) انظر كتاب الاشمونين : هكذا يسميها أهل مصر ، وهي (أشمون) : بلدة قديمة عامرة آهلة ، وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٢٦)

(٥) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (٤٢١) .

(٦) البداية والنهاية (٩/٣٢٨) وتاريخ الأسلام (٤/٣٠٢) .

(٧) البداية والنهاية (٩/٣٢٨) .

(٨) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (٣/١٨٦) .

(٩) تاريخ الموصل (٤٠) وتاريخ الاسلام (٥/٤٠٣) وتهذيب التهذيب (١٠/١٤٤) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٦٥)، ولكن ابن خياط أخطأ في ذكر غزوات لمسلمة سنة إحدى ومئة الهجرية (٢/٣٦٧) وكان على المحقق تصحيح ذلك، والصواب أن مسلمة بن هشام بن عبدالملك هو الذي غزا في تلك السنة .

(١٠) البداية والنهاية (٩/٣٢٩) وتاريخ الاسلام (٥/٢٧) ودول الاسلام (١/٥٨) والعبر (١/١٥٤) وشذرات الذهب (١/١٥٩) .

(١١) نسب قريش (١٦٥) .

وكانت وفاته بالشام (١) ، ودفن بموضع يقال له : (الحانوت) (٢) ، وفي رواية أن عبدالله بن علي العباسيّ لما هزم مروان بن محمد بن الحَكَم آخر خلفاء بني أُميّة نبش قبور الأمويين ، فاستخرج مسلمة بـ (قِنّسْرين) من قبره سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية ، فلم يجد غير جمجمة فأحرقها (٣) !

فاذا كان مولده حوالي سنة ست وستين الهجرية كما ذكرنا سابقاً ، فانه مات عن عمر يناهز الرابعة والخمسين .

وهكذا خلفت النار رماداً ، وأدى الحقد الأسود إلى إحراق الموتى وصلبهم وقتل الأحياءوتشريدهم ، في محاولة لافناء بني أُمية الأحياء منهم والأموات !!

وقد رثاه الوليد بن يزيد بن عبدالملك فقال :

أتانـا بريدانِ من واسِـطٍ ... يخبّـان بالكُتُـب المُعْجَمَهْ
أقول ومـا البعـدُ إلاّ الرَّدى ... أمَسْلَم لا تَبْعَدَن (٤) مَسْلمه
فقد كنتَ نـوراً لنا في البـلاد ... تُضِيء فقد أصبحتْ مُظلِمَه
كتَمْنَا نَعِيّكَ نَخْشَى اليقين ... فَجَلّى اليقين عن الجَمْجَمهْ (٥)
فكم مـن يتيـم تلافيتَـه ... بأرض العدوّ وكم أيِّمه (٦)
وكنتَ إذا الحربُ درّتْ دمـاً ... نَصَبْتَ لها رايةً مُعْلَمَه (٧)

وقال الوليد في رثائه أيضاً :

أهَيْنَمَةٌ حديثُ القوم أم هُمْ ... سُكُوتٌ بعدما مَتَعَ(٨) النّهارُ
غزيـرٌ كان بينهـمُ نبيّـاً ... فقول القوم وحـيٌ لا يُحارُ

---

(١) خليفة بن خياط (٢/٣٦٥) وابن الأثير (٥/٢٢٨) .
(٢) البداية والنهاية (٩/٣٢٩) .
(٣) تاريخ الموصل (١٣٨) وقد توفى مؤلفه سنة (٣٣٤ هـ) = (٩٤٥ م) .
(٤) لا تبعدن : لاتهلكن .
(٥) جلى عن الشيئ : كشفه واظهره . والجمجمة : إخفاء الكلام .
(٦) الأيمة : الأرملة .
(٧) الأغاني (٧/٦) ونسب قريش (١٦٥) وانظر تهذيب التهذيب (١٠/١٤٤) والبداية والنهاية (٩/١٢٩٨) وتاريخ الاسلام (٤/٣٠٣) .
(٨) متع النهار : بلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال – وقيل : متع النهار : طال وامتد .

كأنّا بعد مَسْلَمةَ المرجّى   شُروبٌ طوّحتْ بهمُ عُقَارُ
أوْ الأَفٌ هِجانٌ في قيودٍ   تَلَفّتُ كلّما حنّتْ ظُؤار (١)
فليتَك لم تَمُتْ وفداك قومٌ   تُريح غبيّهم عنّا الديّار
سقيمُ الصَّدْر أو شَكِسٌ بَليْدٌ   وآخر لا يَزُور ولا يُزار (٢)

ومن حَسَن الكلام ما قاله الوليد لما مات مَسْلَمَة ، فان هشاماً (٣) قعد للعزاء ، فأتاه الوليد ، فوقف على هشام فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنّ عُقْبَى مَنْ بقيَ لحوقُ مَنْ مضَى ، وقد أقْفَرَ بعد مَسْلَمَة الصَّيْدُ لمن رَمَى ، واختَلَّ الثّغْرُ فوهى وعلى أثَر مَنْ سَلَفَ يمضي من خلَف : (وتزوَّدوا فان خير الزّاد التقوى) (٤) » ، فأعرض عنه هشام ولم يُحِرْ جوابا ، وسكتَ النّاس فلم ينطقوا (٥) .

وصدق الوليد ، فقد مات فتى العرب (٦) ، ورجل بني أميّة (٧) ، ومثله يُرْثَى وعلى أمثاله يبكي الناس .

القائد

١ — كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومساع مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصوناً وقلاعاً ، وأحيا بعزمه قصوراً وبقاعا ؛ وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد(٨) في أيامه ، في كثرة مغازيه ، وكثرة فتوحه، وقوّة عزمه ، وشدّة بأسه ، وجودة تصرّفه في نقضه وإبرامه ، وهذا مع الكرم والفصاحة (٩) وهو بطل

---

(١) الظؤار : جمع نادر ، مفرده ظئر ، وهي الناقة العاطفة على غير ولدها المرضعة له
(٢) الأغاني (٧/٧-٨) ، ويريد بسقيم الصدر : يزيد بن الوليد ، ومعنى بالمشاكس : هشاماً ، والذي لا يزور ولا يزار مروان بن محمد .
(٣) هشام بن عبدالملك .
(٤) الآية في سورة البقرة (٢ : ١٩٧) .
(٥) ابن الأثير (٢٩٠/٥) والأغاني (٨/٨)
(٦) الشعر والشعراء (٤١١) .
(٧) نسب قريش (١٦٥) وتهذيب التهذيب (١٤٤/١٠) .
(٨) انظر سيرة خالد بن الوليد في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٥٠-٢٣٧) ، وانظر سيرته في كتابنا : خالد بن الوليد المخزومي .
(٩) البداية والنهاية (٣٢٨/٩-٣٢٩) .

كرّار (١) ، وشجاع مهيب له آثار حميدة في الحروب(٢) ، وكان موصوفاً بالشجاعة والاقدام والرأي والدهاء (٣) ، وكان من رجال بني أمية ، وله آثار كثيرة في الحروب ومكانة في الرُّوم (٤) .

وكان مسلمة باسلاً ، سأل هشام بن عبدالملك مسلمة : «يا أبا سعيد ! هل دخلك ذُعْر قطّ لحرب أو عدوّ ؟ قال : ما سَلِمْتُ في ذلك من ذعر يُنَبِّهُ عليَّ حِيَلي(٥) ، ولم يَغْشَنى ذُعر قطّ سلبنى رأيي »، فقال هشام : «صدقتَ ، هذه والله البسالة »(٦).

وكان حازماً بعيد النظر ، يحسب لكل شيىء حسابه ، ويتّخذ لكل أمر عدّته ، ويتقن المكيدة في الحرب ، ومن أقواله في ذلك : « ما أخذتُ أمراً قطُّ بحزم فلُمت نفسي فيه ، وإن كانت العاقبة عليّ ؛ ولا أخذت أمراً قطّ وضيعت الحزم فيه ، إلاّ لُمْتُ نفسي عليه ، وإن كانت العاقبة لي (٧) » .

وقد تحدثنا عن مزاياه إنساناً : الشخصية القوية النّافذة ، الذكاء ، المحدّث ، الشاعر ، السخاء ، الكرم ، الشهامة ، المروءة ، التديُّن ، قابليته الادارية ، ثقة الناس به حكاماً ومحكومين ، الحدب والعطف ، وتقدير الناس له وإعجابهم به .

وهذه المزايا لها وزن في صفات القائد المتميز في أيام مسلمة ، ولا تزال من صفات القائد المتميز حتى اليوم .

٢ ــ والحق أنه كان فتى العرب (٨) بحق ، ولكنه ليس نظير خالد بن الوليد كما ذكر ابن كثير وغيره ، فليس لخالد نظير في طبقات القادة العرب والمسلمين . فيما أعرف ، غير المُثَنّى بن حارثة الشيباني (٩) في مزايا القيادة ، أما في سعة فتوحاته ، فلا نظير لخالد في القادة العرب والمسلمين ، إذا استثنينا الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ باعتباره قائداً ورسولاً .

---

١) دول الاسلام (١/٥٨) .
٢) تاريخ الاسلام (٤/٣٠٢) وانظر المعارف (٣٥٨) .
٣) العبر (١/١٥٤) وشذرات الذهب (١/١٥٩) .
٤) تهذيب التهذيب (١٠/١٤٤) والبداية والنهاية (٩/٣٢٨) .
٥) في عيون الأخبار (١/١٧٤) : حيلة .
٦) العقد الفريد (١/١٠٤) وعيون الأخبار (١/١٧٤) .
٧) العقد الفريد (١/١٢٢) .
٨) الشعر والشعراء (٤١١) .
٩) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٢٧-٥٠) ــ ط ٢ .

ولكن يمكن أن نقول : إنّ مَسْلمة بن عبدالملك هو خالد بن الوليد زمانه ، أي هو خالد زمانه لا خالد كل الازمان ، لأن مسلمة كان قائداً مبرزاً في زمانه بالنسبه للقادة الاخرين ولم يكن ابرز قائد في ايام قُتَيْبة بن مُسْلم الباهلي (١) ومحمد بن القاسم الثقَفِيّ(٢) ، فلما رحلا عن هذه الدنيا في مأساة دامية مؤلمة ، أصبح مسلمة من بعدهما رجل الساعة في القيادة وأبرز القادة المعاصرين له على الاطلاق .

ومن المعلوم أنّ المؤرخين المسلمين غالباً ما يغفلون تفاصيل المعارك التي تلقى ضوءاً ساطعاً محدّداً على سمات مزايا القادة ، ولايكون إلاّ بايراد الخطة التفصيلية لكل معركة ، وكيف جرى تنفيذها ، وأثر القائد الشخصي في إدارة المعركة ، بحيث يمكن استنتاج مزايا القائد بسهولة ويسر .

والمؤرخون المحدثون عرباً ومسلمين وأجانب الذين اعتمدوا المصادر التاريخية ، اغفلوا مزايا القائد الحربيّة أو تحدّثوا عنها باقتضاب وغموض ، أو قارنوا مزاياهم بمزايا القادة المحدثين ، فحمّلوا الأمور فوق ما تطيق ، أو جعلوا القادة الأقدمين كما يريد أولئك المؤرخون لا كما كانوا ، وربما كان المؤرخ المحدث غير عسكري ، فقلب الحقائق رأساً على عقب لأنه أقحم نفسه في قضايا عسكرية ليست ضمن اختصاصه ، فجاءت استنتاجاته خاطئة غير ذات موضوع .

إن استنتاج مزايا القائد العسكرية صعب جداً بالنسبة للتاريخ المدوّن الذي بأيدينا ، ولكن وطأة هذه الصعوبة تخف كثيراً إذا درست المعارك التي خاضها القائد كافة ، الواردة في شتى المصادر لا في مصدر واحد ، لأنّ الاقتصار على دراسة معركة واحدة خاضها القائد لا على معاركه كافة ، وعلى مصدر واحد لا على مصادر شتى ، لا يبرز مزايا القائد العَسكرية بوضوح ولا يزيل الغموض التي يكتنف تلك المزايا ، وبالرغم من ذلك قد لا يستطيع الباحث المدقِّق أن يعطي القائد حقّه كما كان فعلاً ، نظراً لاهمال المؤرخين القدامى هذه الناحية إهمالاً كاملا .

---

(١) انظر سيرته في العدد الثاني عشر (٤١-٧٢) والعدد الثالث عشر (١٤٥-١٦٥) من مجلة المجمع العلمي العراقي - ١٣٨٤ هـ و ١٣٨٥ هـ .

(٢) انظر سيرته في العدد السادس عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي (١٢٧-١٤٨) - ١٣٨٨ هـ .

ومع ذلك ، فما لا يدرك كلّه لا ينبغي أن يهمل ، فبعض الشيئ خير من لاشئ ، هذا إذا درس المعارك كلّهافي المصادر كلها عسكريّ مختص ، يستطيع بخبرته الطويلةوعمله أن يستنبط مزايا القائد من دراسته ، وأشك كثيراً في مقدرة غير العسكري أن يستنبط ما يستنبطه العسكري في هذا المجال ، وقد أحسن قسم من غير العسكريين في جمع تاريخ القادة ، وجمع التاريخ شئ ، واستنباط المزايا العسكرية شيىء آخر .

ولست أحاول أن اقلل من شأن المؤرخين غير العسكريين في مجالات الدراسات العسكرية ، ولكنني أحاول ألاّ أحملهم ما لا يستطيعون ولا أكلّفهم مالا يقدرون .

لقد كان مسلمة يتحلىّ بأركان القيادة الثلاثة : الطّبْع الموهوب ، والعلم المكتسب ، والتجربة العمليـــة .

٣ ــ وقد تحدّثنا عن سماته الموهوبة فيما سلف : حزماً وعزماً ، وكرماً وفصاحة ، وشجاعة وإقدامه ورأياً ودهاءا ، وفطنة وذكاءا ، وبعد نظر وسخاءا ، وتديناً وورعا ، وشهامة ومروءة ، وشخصية قويّة ، وقابلية ادارية ، وحدباً وعطفا .

وأضاف الى مزاياه الطبيعية الموهوبة ،علماً مكتسباً ، فكان أديباً شاعرا ، ومحدثاً عالما.

وتعلم الرّماية والفروسية ، وتنظيم الجيش وإدارته ، وأساليبه التعبوية والسّوْقيّة ، كما أتقن الأساليب الادارية للجيش : تدريباً وتسليحاً ، وتجهيزاً وتموينا ، وإسكانا وتنقلا ، وتـنظيماً وقيادة .

ولعلّ إعداد جيشه واستحضاراته المتقنة ، وإسكانه وتموينه ، قبل حصار القسطنطينية وبعد حصارها في صفحة (المبادرة) ، خير دليل على ذلك .

ومن المعلوم ، أنّ الخلفاء ، وبخاصة بني أُميّة ، كانوا يعدون اولادهم اعداداً عسكرياً رفيعاً ، وذلك بثلاث مراحل : التدريب العملي على الرماية والفروسية وتحمل المشاق ، فاذا قضوا هذه المرحلة بنجاح بدأوا المرحلة الثانية ، وهي مرحلة مرافقة القادة المشهود لهم بالكفاية في الحروب ، للاطلاع عن كثب على أساليب إدارة المعارك من الناحيتين الادارية والتعبوية ، والتشبّع بجو المعارك والقتال .

فاذا انتهت هذه المرحلة التي غالباً ما تصل ذروتها في سن العشرين ، بدأوا مرحلة تحمل المسئولية في القيادة الفعلية للجيوش .

ومن الطبيعي أن الذي لا يثبت جدارته في تحمل المسئولية بكفاية ومقدرة ، لا يتولى المناصب القيادية ، فما كلّ أبناء الخلفاء وأهل بيتهم تولوا مناصب قيادية ، وقسم منهم لم يمارس هذه المناصب أبدا .

وقد مرّ مسلمة بهذه المراحل الثلاث في عهد أبيه عبدالملك بن مروان (١) ، الذي كان رجل بني أُميّة بحق في القضايا العسكرية ، بالاضافة إلى مزاياه الأخرى .

واستطاع مسلمة أن يجتاز هذه المراحل بتفـّوق باهر ، فأصبح موضع ثقة والده عبدالملك ، فقال فيه وهو على فراش الموت في وصيته بنيه وآل بيته : « .... وانظروا مَسْلَمة، فاصدروا عن رأيه ، فانه نابكم (٢) الذي اليه تفترون(٣) ، ومِجَنّكم(٤) الذي عنه تَرْمُون ... » (٥) ، وما أعظمها من شهادة وما أضخمها من ثقة وما أكبرها من تقديـــر .

إنه يقول : مسلمة أسدّكم رأياً وأرجحكم عقلا ، فلا تخالفوه في شيىءٍ . وهـــو سيّدكم الذي يشيع فيكم السكينة والأمن الاطمئنان ، وهو حاميكم من كل سوء في أيام الحرب والسّلام ، ولا أظن أنّ هناك والداً بلغت ثقته بولده ما بلغت ثقة عبدالملك بمسلمة ، وهذا هو منتهى النجاح الذي حقّقه مسلمة على يد والده ومعلّمه الأول قائداً وإدارياً وإنساناً .

فلا عجب أن يردّد مؤرخوه بأنه كان أحق أبناء عبدالملك بالخلافة ، لولا أنه ابن أمة ، ولم يكونوا يولّون الخلافة لبني أمهات الأولاد !

أما التجربة العملية قائداً ، فقد تولى القيادة سنة ست وثمانين الهجرية في أواخر حياة أبيه عبدالملك بن مروان ، ليس لأنه ابن الخليفة حسب ، فمن المعلوم أن قسماً مـــن

---

(١) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح المغرب (٢/٥٩-١٥٢) .

(٢) ناب القوم : سيدهم .

(٣) تفترون : تطمئنون وتسكنون . فتر الى الشئ : اطمأن وسكن . وفي الحديث : « من فتر الى سنتى فقد نجا » .

(٤) المجن : الترس ، وفلان مجنكم : حاميكم .

(٥) ابن الأثير (٤/١١٧-١١٨).

إخوته لم يتولّوا مناصب قيادية ولا شهدوا معركة في حياتهم كلّها قادة أو جنوداً ، منهم على سبيل المثال أبو بكر بن عبدالملك الذي كان اسمه : بَكّاراً (١) ، ومحمد بن عبدالملك وسعيد بن عبدالملك وكانا ناسكَيْن (٢) .

كما أن أي خليفة أو ملك أو رئيس لا يمكن أن يولّي أولاده المناصب القيادية إلاّ إذا كانوا قادرين على تحمل أعبائها بكفاية ، لأن توليتهم مثل هذه المناصب تؤدي حتماً إلى التضحية برجالهم في مجزرة لا تعرف نتائجها الوخيمة دون مسوِّغ معقول أو منطقي ، مما يزعزع أركان سلطانهم ويلحق بسمعهم أفدح الأضرار . ومن المحتمل أن يولوهم مناصب إداريّة مع إعانتهم برجال قادرين يستعينون بهم في تسيير أعمالهم ، أما أن يولوهم مناصب قيادية ، فلا !

ومن المعلوم أنّ المرء يكون قادراً على حمل السِّلاح وخوض غمار الحرب وممارسة القتال في سن العشرين من عمره كمعدل نسبيّ ، وقد يكون المرء جاهزاً لذلك قبل سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر جندياً ، أما أن يكون قائداً له مسئولياته القيادية ، فلا يتولى القيادة قبل العشرين من عمره ، إلاّ نادراً كما هو الحال بالنسبة لأسامة بن زيد رضي الله عنه ومحمد بن القاسم الثقفي اللذين توليا منصب القيادة قبل أن يبلغا العشرين ، وهذا أمر يعتبر شاذاً ، ولا قياس على الشواذ .

ومضى مسلمة من سنة ست وثمانين الهجريّة حتى تقاعد سنة اربع عشرة ومئة الهجرية قائداً دون توقف إلاّ سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة ، وأحسب أن توقفه في هذه السنة كان لأسباب مرضيّة ، كما أحسب أن تقاعده بعد سنة أربع عشرة ومئة الهجرية حتى توفّاه الله سنة عشرين ومئة الهجريّة أو سنة إحدى وعشرين الهجريّة ، كان لمرضه ومعنى هذا أنه أمضى كل سني حياته قائداً، فاذا توفي عن عمر يناهز الرابعة والخمسين كما ذكرنا سابقاً ، وتولى القيادة بعد أن بلغ العشرين من عمره ، فانه كان قادراً على تولّي القيادة أربعاً وثلاثين سنة ، مارس منها القيادة سبعاً وعشرين سنة ، وأقعده المرض عن ممارسة الجهاد سبع سنوات فقط !

---

(١) انظر المعارف (٣٥٨) .

(٢) جمهرة أنساب العرب (٨٩) .

ولا أعتقد أنّ هناك قائداً مارس القيادة أربعة أخماس سني حياته في ساحات القتال ، وتخلّف خمس سني حياته عن تلك السّاحات مضطرا .

إنّ مسلمة قضى أكثر حياته في التجربة العملية قائدا ، وكان بمقدوره أن يتولّى إمارة الأمصار واليا ، فينعم بالسلطة والراحة بعيداً عن أهوال القتال ، ولكن مسلمة خلق ليكون غازياً لا ليكون واليـــا .

٤ — فماذا عن مسلمة القائد في رسم الخطط العسكرية ؟

من المعلوم أنّ الخطّة العسكرية قسمان : قسم إداري ، وهو الجانب الاداريّ من الخُطّة : حشداً للمصادر البشريّة ، وتجهيزها ، وتموينها ، وإسكانها ، ونقلها ، وطياتها ، وتسليحها ، ومرتّباتها . وقد برز مسلمة في ذلك بشكل ملموس في حصار (القسطنطينية) كما ذكره المؤرخون بالتفصيل في تلك الملحمة ، مما يدل على كفايته الفذّة في هذا المجال .

والواقع أنه اهتمّ بأدق التفاصيل من الجانب الاداري لخطّته في حصار (القسطنطينية) بمعاونة سليمان بن عبدالملك ، ومن الانصاف أن نسجّل لسليمان تلك المعاونة الصّادقة السخيّة بالتقدير والاعجاب .

وليس معنى إغفال المؤرخين للجانب الاداري من خطط مسلمة العسكريّةالأخرى ، أنه أهملها ولم يعرها اهتمامه البالغ وعنايته الفائقة فلو أنه أهملها لما انتصر أبدا .

أما قسم العملّيات في رسم الخطّة العسكرية ، فيبدو أنه كان ماهراً في تطبيق مبدأ (المباغتة) وهي أهمّ مبادئ الحرب على الاطلاق .

فقد تحرّك سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م)على رأس قوّاته إلى (إرمينية) ، و (أذربيجان) بعد استشهاد قائدها وأميرها الجرّاح بن عبدالله الحَكَميّ وتمزيق جيش المسلمين فيها ، فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك الذين قتلوا الجرّاح ومزّقوا جيشه — في شتاء شديد ، حتى جاز (الباب) في آثارهم ، وبذلك باغت الترك المنتصرين مباغتة كاملة ، فقلب نصرهم إلى هزيمة ، لأنّ الترك لم يكونوا يتوقعون أن يقاتلهم المسلمون شتاء في مناطق قارسة البرد ، فكانت حركة مسلمة في شتاء مباغتة في الزمان للترك .

والمباغتة إما أن تكون بالزمان : في وقت لا يتوقّعه العدو وإما أن تكون بالمكان ، من اتجاه لا يتوقّعه العدو ، واما أن تكون بالاسلوب : ! إسلوب قتالي لا يتوقّعه العدو ، إما أن تكون بالسّلاح ، باستخدام سلاح جديد لا يتوقّعه العدو .

ومن الأمثلة على تطبيق مَسْلمة مبدأ (المباغتة) بالأسلوب ، ما نفذَه سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠ م) في الانسحاب أمام تفوّق الخزر العدديّ ، إذ أمر أصحابه بايقاد النيران، وترك خيامهم وأثقالهم ، ثم قدّم الضعفاء وأخرّ الشجعان ، وطوى المراحل: كل مرحلتين في رحلة واحدة ، وبذلك أنقذ قوّاته بهذا الأسلوب في الانسحاب من خطر مطاردتها وإلحاق الخسائر الفادحة بها،وحرم الخزر من إحراز إنتصار ساحق على جيشه .

لقد وجد الخزر نيران المسلمين مضرمة ، وخيامهم قائمة وأثقالهم باقية ، فحسبوا أنّ قواتهم الضاربة في مكانها ، بينما أخلى مسلمة الضعفاء ، وأبقى الشجعان ليغطوا حركة الانسحاب السريع المنظّم ، فلما اكتشف الخزر انسحاب المسلمين كان الوقت المناسب للقيام بمطاردة المسلمين فد فات ، وبهذا باغت مسلمة أعداءه بالأسلوب .

ولم يتحدّث المؤرخون عن انسحاب مسلمة من محاصَرة (القسطنطينية) ، ولكنهم لم يتحدثوا عن مطاردة الروم للمسلمين بعد انسحابهم ، مما يدل على أنّ مسامة انسحب بالمسلمين وفق خطّة مرسومة محكمة ، إلى القواعد المتقدمة ، فحرم الروم من مطاردة توقع أفدح الخسائر بالمسلمين .

وقد كان انسحاب المسلمين من حصار(القسطنطينية) مباغتة للروم بالأسلوب أيضا .

ولعلّ من المفيد أن نذكر ان إدارة معركة الانسحاب ، أصعب بكثير من إدارة معركة مسير الاقتراب ، والدفاع ، والهجوم ، والمطاردة ، لأنّ الانسحاب يؤدى إلى زعزعة المعنويات ، كما أن احتمال تعرض المقاتلين للاخطار عند الانسحاب اكبر من احتمال تعرضهم في صفحات القتال الأربع الأخرى .

فاذا أثبت أي قائد وجوده في معركة انسحابية ، فهو قادر على إدارة أي معركة اخرى تقدماً أو دفاعاً أو هجوماً أو مطاردة .

ولكن مسلمة لم يقتصر على تطبيق مبدأ (المباغتة) من مبادئ الحرب ، بل طبق مبادئ الحرب الاخرى بنفس الكفاية والحرص الذي طبّق بهما مبدأ المباغتة .

فقد كان (يختار مقصده ويديمه) ، فهو دائماً يعرف ما يريد ، ويسعى جاهداً للحصول عليه من أقصر الطرق وبأقل الخسائر المادية والمعنوية .

وكان قائداً (تعرُّضياً) ، لم يلجأ إلى الدِّفاع في معاركه ، وكانت كل المعارك التي خاضها تعرضية ، عدا حصار (القسطنطينية) الذي كان تعرضاً حقيقياً لم يكتب له النجاح ، ولم يمارس (الانسحاب) إلاّ مرتين كما ذكرنا سابقاً ، ولو أن الانسحاب أيضاً لا يتم الاّ بتعرض تعبويّ محليّ ، ويمارسه القائد لانقاذ جيشه من المطاردة ، لذلك اعتبر قسم من أساطين العسكريين الانسحاب تعرضاً معكوسا .

وكان (يحشد) قواته من الناحيتين المادية والمعنوية في المكان والزمان الحازمين ، وقد استطاع حشد عشرين ومئة ألف في غزوة (القسطنطينية) عدا ما وصل إليه من مدد متعاقب متّصل ، وهذا العدد يعتبر ضخماً بالنسبة للحشود في أيامه ، والأرقام التي توردها المصادر التاريخيّة القديمة فيها مبالغة كبيرة في أكثر الأحيان .

وكان يحرص غاية الحرص على (الاقتصاد بالمجهود) ، فلا يستخدم غير القوّات المناسبة للواجب المناسب ، وهذا أدى إلى عدم تكبّد قواته خسائر لا مسوِّغ لها .

وكان يهتمّ كثيراً بمتطلبات (الأمن) ، فيوفِّر الحماية الكافية لقواته لمواصلتها خوفاً من (المباغتة) ، لذلك لم يستطيع أعداؤه أن يباغتوا قوّاته أبدا . وكان يخرج المقدمات والمجنبات في مسير الاقتراب ، ويؤمِّن السَّاقات في الانسحاب ، ويخصِّص القطع العسكرية اللازمة لحماية خطوط مواصلاته وقواعده المتقدِّمة .

وكان (التعاون) من أهدافه في كل معاركه ، فكانت قواته تتعاون فيما بينها ، وكانت تتعاون مع القوات الأخرى التي تقاتل في ساحة القتال من اجل تخفيف الضغط على جيشه ، كما كان يتعاون مع الخلفاء تعاوناً وثيقاً لامداده بالرجال والمعدّات .

وكان (يديم معنويات) رجاله ، ووجوده بين هؤلاء الرجال قائداً ، يرفع معنويات رجاله من جهة ، ويزعزع معنويات عدوه من جهة أخرى .

وقد رأينا كيف تزعزعت معنويات قوّات يزيد بن المهلّب ، بمجرد علمهم بأنه يقود الحملة التي جاءت لحربهم ، مما جعل يزيد بن المهلّب يخطب رجاله في محاولة لرفع معنوياتهم ، ولكن محاولته باءت بالاخفاق .

وقبيل خوضه المعركة الحاسمة ضد يزيد بن المهلب، أحرق الجسر الذي يمثل الشريان الرئيس لخطوط انسحاب قوّات ابن المهلب ، وبذلك زعزع معنوياتهم فهرب أكثرها قبل نشوب القتال .

وحين غزا مسلمة (عَمُّورِيّة) حمل معه نساءه إرادة الجدّ في القتال للغيرة على الحرم (١) ، حتى يديم معنويات قوّاته ويسمو بها إلى أعلى الدرجات .

وحمل النِّساء في الحرب، بالرغم من الأخطار التي يمكن أن تتعرض له، يعتبر دليلاً واضحاً على تحليّ مسلمة بارادة القتال ، التي هي : الرَّغبة الأكيدة في الثبات عند القتال من أجل تحقيق النّصر وتحمل أعباء الحرب بذلاً للأموال والأنفس ، واستهانة بالأضرار والشدائد ، وصبراً في الباساء والضرّاء وحين البأس ، مهما طال الأمد وَبعُدَ الشّوط وكثر العناء وازدادت المصاعب وتكاثرت التضحيات (٢) .

والقائد الذي لا يتحلّى بمزية : إرادة القتال ، قد يهرب عند الصدمة الأولى لينجو بنفسه ، فلا ينتصر أبدا .

والذي يبدو هو أنّ مسلمة يتفق مع خالد بن الوليد في شدته القاسية أثناء القتال ، ويختلف معه في رحمته لأعدائه بعد أن تضع الحرب أوزارها ، فكان يحنو على المغلوبين ويترضىّ المنهزمين ويعفو عن المحاربين كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

وبهذا التسّامح من موطن القوّة لا من موطن الضعف ، جعل أعداءه يأملون بالعفو والحياة الكريمة الرضيّة حتى في حالة هزيمتهم ، إذا استسلموا وأخلصوا للدولة وللحكم القائم ، مما يؤدي الى عدم استقتالهم الى آخر سهم وآخر مقاتل .

كما أنّ مسلمة كان يخرّب لمصلحة إحراز النصر ، ولكنه يعود بعد النصر ، فيعمر ماخرّب ويشيّدها . هدم ويبني ما حطم . وقد علمنا أنه هدم مدينة (باب الأبواب) ليقضي على عصيانها ، فلما استسلمت أعاد بناءها وزاد في عمارها ، وحصّن أسوارها ، فأصبحت أكثر عماراً ، وأقوى تحصينا .

---

(١) فتوح البلدان (٢٢٩) .

(٢) أنظر كتابنا : إرادة القتال في الجهاد الاسلامي ص (١٦) .

إنه يخرِّب لا من أجل الخراب ، ولا من أجل الانتقام ، ولا من أجل ! إخافة سائر الأعداء ، ليكون الخراب عبرة لمن اعتبر ؛ بل كان يخرِّب لضرورة حربية ، فاذا زالت تلك الضرورة عاد فبنى ما خرّب ، وأصلح ما دمر .

وبهذا الأسلوب وهذه الطريقة ، يقضي على الأحقاد والضغائن ، ويجمع الصفوف وينقّي القلوب من الحقد الدفين .

وثمة سمة أخرى تميِّز قيادة مسلمة ، وهي أنه كان يقود بعقله أكثر مما كان يقود بسيفه ، فلا يباشر القتال إلاّ نادرا ، بينما كان خالد بن الوليد يقود بعقله ويقود بسيفه ، ويباشر القتال بنفسه،ويستهدف قائد العدو ، فينقض عليه كالصّاعقة،فيأسره أو يقتله

وقد كان قادة بني أميّة يقودون بعقولهم أكثر مما كانوا يقودون بسيوفهم ، وأقصد بقادة بني أميّة القادة الأُمويين نسبا ، لا القادة الذين تولوا قيادة الجيوش في عهدهم ، فقد كان بين هؤلاء من يقود بعقله وسيفه على حد سواء ، كقتيبة بن مُسلم البّاهِليّ ومحمد بن القاسم الثّقفيّ .

والقادة في رأيي ثلاثة أنواع : قائد يقود بعقله ،وقائد يقود بسيفه ،وقائد يقود بعقلهوسيفه.

أما القادة الذين يقودون بعقولهم ، فهم قادة متميِّزون وليسوا جنوداً متميِّزين ، وأما القادة الذين يقودون بسيوفهم فهم جنود متميزون وليسوا قادة متميِّزين ، وأما القادة الذين يقودون بعقولهم وسيوفهم معاً فهم قادة متميِّزون وجنود متميزون في آن واحد .

والقادة الأُمويون على الأكثر قادة متميِّزون ، وقد يكونون جنوداً متميِّزين أيضاً ، ولكن صفة القيادة المتميِّزة فيهم أظهر وأبرز .

وكان بامكان مسلمة أن يكون قائداً متميِّزاً ، وجندياً متميزاً ، لأنه كان فارساً شجاعاً ، ورامياً بارعاً ، وبطلاً كرّارا ، ومقاتلاً مغوارا ، ولكنه آثر كما آثر بنو أُميّة أن يديروا الأُلوف من رجالهم بعقولهم لاحراز النصر ، لا أن يصبحوا فرداً من بين تلك الالوف . وقد يموت الفرد شهيداً وهو جندي فينقص تعْداد الجيش عدداً من الشهداء قل أو كثر ، فلا تكون تلك الخسائر إلاّ لبنات في صرح النصر . ،ولكن خسارة القائد تؤدى إلى الهزيمة ، وشتان بين استشهاد القائد وهو العقل المدبِّر والرجل المسيطر والعامل المؤثِّر ، وبين استشهاد ، الجنود وهم لبنات النصر وعدّته ، ولا نصر بدون قيادة قادرة وجنود شهداء .

٥ — لقد كان لمسلمة قابليّة على إعطاء القرار السّريع الصائب ، لأنه كان ذكياً ، حاضر البديهة ، عالماً مجرّباً ، لذلك كان القائد الأول في الدولة الأموية بعد محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم والمستشار الأوّل للخلفاء في نفس الوقت .

وكان يتحلىّ بالشّجاعة الشخصيّة ، مقداماً غير هيّاب ، وبطلاً لا يخشى المصاعب والأهوال .

وكان ذا إرادة قويّة ، إذا قرّر أمراً واقتنع به ، ينفذه بحزم وإصرار ، ولا نعرف له موقفاً أبدى فيه تردّدا .

وكان يتحمّل المسئوليّة بلا تردّد أيضاً ، ولا يحاول التملّص منها أو إلقاءها على عاتق الآخرين . وقد قبل مسئوليات ضخمة في أوقات عصيبة ، وأثبت جدارة فائقة في تحمل أعبائها ، وكمثال على ذلك قبوله مسئولية حرب يزيد بن المهلّب في ثورتـه العارمة العاصفة ، بالرغم من مكانة ابن المهلّب داخلياً وخارجياً ، وبالرغم من استفحال أمره في العراق وفارس وخُراسان .

والواقع أنه تحمّل مسئوليات ثقيلة ، كان بعضها يهدّد مصير الدولة بالزوال .

وكان يعرف (مبادئ الحرب) ويطبقها بكفاية ، وحسبنا ما شرحناه في مجال التطبيق

وكان يتحلّى بنفسيّة لا تتبدل في حالة النصر والاندحار : يتقبل النقد بصدر رحب ، ويصغى للناصحين الصادقين ، ويستشير أهل الرأي والفطنة في أموره ، ويفتح أبوابه للناس ، ولا يتعالى على أحد غروراً بانتصاراته أو مكانته الرفيعة بين الحكّام والمحكومين على حد سواء ، أما في حالة الاندحار ، فيسيطر على أعصابه ، ولا ينهار أو يهون أو يتخاذل ، ولا يبدو عليه ضعف ولا تظهر عليه استكانة ، بل يتحرّك بكل وسيلة ممكنة لانقاذ الموقف وتبديله من حال إلى حال .

وكان يسبق النّظر ويُعدّ لكل أمر عدّته ، ويدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات ، حتى لا يُفاجأ بما لا يتوقّعه من أحداث .

ولم يقتصر في سبق النظر على معضلاته العسكرية والادارية ، بل يسبق النظر حتى في قضايا الدولة العليا ، وكمثال على ذلك اقتراحه على الخليفة يزيد بن الملك أن يختار ولياً للعهد من بعده ، فاختار هشام بن عبدالملك ومن بعده الوليد بن يزيد بن عبدالملك .

وكان يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم ، لأنه قضى معظم حياته بينهم ، لأنه كان يخالطهم مخالطة الندّ للندٍّ ، ويقصده كل فرد منهم زائراً أو من أجل قضاء حاجاته لهذا كان يختار الرجل المناسب للعمل المناسب ، كلٌ حسب كفاياته ومزاياه .

وكان يثق برجاله المرؤسين له ، ويثق برؤسائه من الخلفاء ، ويثق به رجاله ورؤساؤه ثقة مطلقة ، نظراً لاخلاصه وأمانته وسجاياه الأخرى .

وكان يحب الخلفاء ورجاله ويحبونه ، فقد كان آلفاً مألوفاً ، يعمل للمصلحة العليا للدولة أكثر مما يعمل لنفسه ، ويسدي العون الخالص لأتباعه ، ويسعى لقضاء حوائجهم وكانت له شخصيّة قويّة نافذة . تطغى حتى على شخصيات الخلفاء من بعد أبيه ، فلا يُرَدّ له طلب ، ويدخل عليهم متى شاء ، ويقدّم النُّصح لهم بالحسنى ، ويأمر المنحرف منهم بالعودة إلى الصّواب . أما أنداده وأتباعه فيهابونه من دون خوف ، ويخشونه من غير رهبة ، يتواضع للصغير ، ويوقر الكبير ، ولا يعصون له أمرا ، وينفذونها بحماسة وبطيبة قلب .

ولم تكن شخصيته ذات أثر في محيطه العربي والاسلامي ، بل فرضها على الروم والترك والفُرس والأقوام الأخرى .

وكانت له قابليّة بدنيّة تعينه على تحمّل المشاق العسكرية إلى درجة ما ، وأحسب أنه لم يكن قوياً جداً بدنياً ، إذ أخذه صداع عظيم حين كان يحاصر القسطنطينية (١) وكان يومها في مقتبل العمر وفي ريعان الشّباب ، وسابق الوليد بن عبدالملك بالخيل بحضور والدهما عبدالملك بن مروان ، فسبقه الوليد كما ذكرنا سابقاً .

وكان لمسلمة ماضٍ ناصع مجيد في المجالين العسكري والاداريّ ، وفي المجال الشخصيّ ، إذ لم يطعن أحد في سلوكه وخلقه واستقامته ونزاهته ، بينما شنّع المؤرخون بالمنحرفين أخلاقياً من بني بيته كما هو معروف (٢) .

لقد كان مسلمة بحق قائداً متميّزاً ، ترك بصماته على الدولة دفاعاً عنها وإخلاصاً لها ودعماً لمكانتها ، كما ترك فتوحاته شاهداً باقياً على كفايته القيادية ، فلا عجب أن

---

(١) البداية والنهاية (٩/٣٢٨) .

(٢) انظر كتابنا : الرسول القائد (٤٢٨) حول الصفات المثالية للقائد .

يترك رحيلة فراغاً هائلاً لم يستطيع ان يملأه غيره من آل بيته ولا من القادة الآخرين(١).

٦ - ولكن لابدّ لنا من ذكر حقيقة قد لا تؤثر في مزايا قيادة مسلمة ، ولكنها تلقى ضوءاً على سبب مهم جداً من أسباب انتصاراته المتوالية في قتال الأعداء الخارجيين الأجانب قائداً فاتحاً ، وفي اقتتاله ضد الأعداء الخارجين على الدولة قائداً إداريا ، وبتعبير آخر ، في القتال الخارجيّ ، وفي الاقتتال الداخلي فاتحاً في القتال وموطّداً للأمن الداخلي من الاقتتال .

هذا السبب ، هو صلته الوثيقة بالخلفاء : الوالد والاخوة وأبناء العم ، وهي الصلة جعلت المجال أمامه مفتوحاً ، لتسخير منابع الدولة كافة بشرية ومالية ومادية ومعنوية ، من أجل تحقيق أهدافه في الفتح خارجياً ، وفي توطيد الأمن داخلياً .

لقد كان يقود جيشاً ضخماً في عَدَده ، متكاملاً في عُدَده ، تتدفق عليه قضاياه الادارية تموينًا وتسليحاً وتجهيزاً ونقلا ، وتصرف عليه الأموال الطائلة رواتب ومكافآت وإسكانا ، وليس من شك في أنّ صلته القريبة با لخلفاء ، واعتمادهم عليه وثقتهم به اعتماداً وثقة بغير حدود ، وتلبية لطلباته واستجابة لرغباته بغير تردّد ، كل ذلك كان له أثر أيّ أثر في انتصاراته خارجياً داخلياً وفي قتاله واقتتاله .

وقد مّر بنا أنّ مسلمة عزله الخليفة عن (العراقَيْن) لأنه تصرف بالواردات دون الرجوع إلى الخايفة ولم يبعث منها الى (دمشق) درهما ولا ديناراً .

وماكان مسلمة محتاجا الى مراجعة الخليفة فيما يأخذ أو يعطي من المال ، لأنه ليس متهما في ذمته ، ولأن منزلته أعلى من منزلة المراجعة والاستئذان .

---

(١) في آثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٨) ، ورد في معرض الحديث عن مدينة (باب الأبواب) : « وخارج المدينة تل عليه مسجد ، في محرابه سيف يقولون : إنه سيف مسلمة بن عبدالملك بن مروان، يزوره الناس، ولايزار الا في ثياب بيض، فمن قصده في ثياب مصبوغة، جاءت الامطار والرياح، وكاد يهلك ما حول التل. وعليه حفاظ يمنعون من يذهب اليه بالثياب المصبوغة » .

وبالرغم من وضوح الأسطورة في هذا الادعاء، إلا أنه يظهر مبلغ الأثر النفسي الذي بقى لمسلمة في تلك المناطق، والواقع انه حصن المدينة وعمرها وأولاها كل اهتمامه ،فكان لاهتمامه في إعمارها وتحصينها أثره الباقي في نفوس سكان المنطقة حتى بعد وفاته لمدة قرون طويلة .

وكما كان الخليفة ينفق من هذا المال دون حسيب أو رقيب ، كان مسلمة كذلك ينفق ما يريد دون حسيب أو رقيب .

لقد كان مسلمة (يأخذ) ولا (يُعْطَى) ، وهذا هو الفرق بينه وبين القادة الآخرين

وكما انتصر مونتكومرى في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩—١٩٤٥) بتفوقه على رومل في شمالي إفريقية بالموارد البشرية والمادية الأخرى ، وعلى كيسرلنك في إيطاليا وعلى رونشتد في غربي أوربا بعد الانزال في نورماندى ، وبالأضافة الى المزايا القيادية لمونتكومرى ، كذلك تغلّب مسلمة على الرُّوم والترك والخزر مقاتلاً ، وعلى الخوارج وابن المهلّب مقتتلا ، بموارده البشرية والمادية الأخرى ، وبالاضافة الى مزاياه القيادية الأخرى أيضاً .

وهكذا تهيّأ لمسلمة قائداً مزايا القيادة الأصيلة ، ومزايا العناصر البشرية والمادية ، مما جعله في عِداد أعظم القادة على عهد بني أميّة .

وإذا كان لي أن أصنف قادة الفتح في عهد بني أميّة إلى طبقات ، فالطبقة الأولى من القادة هم : محمد بن القاسم الثّقَفِيّ وقُتَيْبة بن مُسْلم الباهليّ في الجبهة الشرقية ، وزهير بن قيس البَلَوِىّ (١) وعُقْبَة بن نافع الفِهْرِىّ (٢) وحَسّان بن النُّعمان الغَسّانيّ (٣) وموسى بن نُصَيْر اللَّخْمِي (٤) وطارق بن زياد (٥) في الجبهة الغربية .

أما الطبقة الثانية ، فمسلمة على رأسها بدون استثناء ، ومن هذه الطبقة معاوية بن أبي سفيان (٦) وعبدالملك بن مروان (٧) ومروان بن محمد (٨) آخر خلفاء بني أُميّة في الشام .

وقد انتصر قادة الطبقة الأولى بكفاياتهم وحدها ، وانتصر قادة الطبقة الثانية بكفاياتهم ومواردهم ، والطبقة الأولى جنود متميزون وقادة متميزون ، والطبقة الثانية قادة متميزون حسب .

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في : قادة فتح المغرب العربي (١/١٥٠—١٧٠) .

(٢) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا : عقبة بن نافع الفهرى ، وفي قادة فتح المغرب العربي (١/٩٠—١٣٦)

(٣) انظر تفاصيل سيرته في : قادة فتح المغرب العربي (١/١٧٢—٢٢٠) .

(٤) انظر تفاصيل سيرته في : قادة فتح المغرب العربي (١/٢٢١—٣٠٩) .

(٥) ترد سيرته في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار .

(٦) انظر سيرته في قادة فتح الشام ومصر (٢٢٩—٢٣٥) .

(٧) انظر سيرته في قادة فتح المغرب العربي (٢/٩٥—١٥٢) .

(٨) ترد سيرته في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .

مسلمة في التاريخ

يذكر التاريخ لمسلمة ، أنه كان أوسع الأمويين فتحاً برّاً ، وأعظم قادتهم بعد معاوية بن أبي سفيان (١) .

ويذكر له أنه كان أبرز شخصيّة أموية بعد معاوية بن أبي سفيان وعبدالملك بن مروان .

ويذكر له أنه ، أكثر الأمويين فتحاً في الأنضول ، وأكثر من غير الأمويين الفاتحين في هذه المناطق ، وبذلك أمّن الحدود الشمالية البريّة للدولة وحماها من صولة الرُّوم .

ويذكر له ، أنه كان خليفة بغير خلافة ، وملكاً غير متوّج من بني أميّة .

ويذكر له حماسته الفائقة في جميع الشّمل ورصّ الصفوف ووحدة الكلمة من أجل المصلحة العليا للدولة .

ويذكر له أنه سخّر كفاياته الفذة لخدمة الدولة ، ولم يسخر الدولة لخدمة طموحه الشخصيّ .

ويذكر له التفوق على الخلفاء الذين تولوا الخلافة بعد أبيه ، دون أن يستغل تفوقه في منافسة الخلفاء على السُّلطة .

ويذكر له أنه طهّر الجبهة الشرقية ، والجبهة الشمالية ، والجبهة الشمالية الشرقية ، من أعداء الدولة ، وأخضع تلك المناطق الشاسعة للسُّلطة الشرعيّة .

ويذكر له ، أنه كان رجل دولة بكل معنى الكلمة ، قضى معظم سني حياته مجاهداً من أجل الوحدة وموحِّداً من أجل الجهاد .

ويذكر له أنه كان إدارياً حازماً ، بالرغم من أنه لم يخلق والياً بل خلق غازيا .

ويذكر مزاياه الرفيعة خلقاً وسلوكاً وورعا ، بالأضافة إلى العلم والأدب الشعر والكرم والمروءة .

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (١٧٤-١٩٤) .

ويذكر له أنه قضى أربعة أخماس عمره بعد بلوغه مبلغ الرجال في ساحات الجهاد ، ولم يسقط السيف من يده في السنوات الباقية من عمره إلاّ مضطراً ومكرها .

ويذكر له أنه أعظم من حاصر (القسطنطينية) (٢) من القادة العرب المسلمين .

ويذكر له أنه فتح مدناً وحصوناً كثيرة وبلاداً شاسعة ، لا يزال أثر اللغة العربية فيها باقياً حتى اليوم ، ولا تزال متمسكة بالدين الحنيف .

رحم الله القائد الفاتح ، الاداري الحازم ، الأديب الشاعر ، العالم المحدّث ، المجاهد الأنسان ، مسلمة بن عبدالملك بن مروان .



محمود شيت خطاب

---

(١) أفاض بروكس (E.W. Brooks) في سرد غزوات المسلمين في آسية الصغرى ، مستقياً ذلك من المراجع العربية مع التعليق عليها في بحثه الموسوم : « العرب في آسية الصغرى من سنة (٦٤١م) الى سنة (٧٥٠م) وعنوان هذا البحث : (The Arabs in Asia Minor, 641 To 750) المنشور في مجلة الدراسات الهلنية (Journal of Hellenic Studies) المجلد (١٨) سنة (١٨٩٨م) . وقد عالج موضوع حصار القسطنطينية العظيم في أيام خلافة سليمان بن عبدالملك في مقال نشره في مجلة الدراسات الهلنية أيضاً (المجلد ١٩ لسنة ١٨٩٩ م) بعنوان : حملة سنة ٧١٦ م الى سنة ٧١٨ م بحسب المراجع العربية» (The Campaign of 716 to from Arabis Sources) وتناول هذا الموضوع من الجانب البيزنطي الأستاذ جي بي بوري (J.B. Bury) في كتابه : (Histor of the Later Rooman Empire) المجلد الثاني ص (٤٠١)، انظر الهامش (٩) من كتاب : بلدان الخلافة الشرقية (١٧٠) .

المصـادر والمراجـع

الآلوسي (محمود شكري الالوسي) :

١ – بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب – ط٣ – تحقيق الأستاذ محمد بهجة الأثري – القاهرة ١٣٤٢ هـ .

ابن الأثير (عزالدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم ابن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري) :

٢ – الكامل في التاريخ – بيروت – ١٣٨٥ هـ .

ابن تغرى بردى الأتابكى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى) . :

٣ – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – القاهرة – ١٣٨٣ هـ .

ابن حبيب (أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي) :

٤ – المحبّر – تحقيق ايلزه ليختن شتيتر (الدكتورة) – بيروت – ١٣٦١ هـ .

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني) :

٥ – تهذيب التهذيب – حيدر آباد الدكن – ١٣٢٧ هـ .

ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي) :

٦ – أسماء الخلفاء والولاة – ملحق بجوامع السيرة – القاهرة – بلا تاريخ .

٧ – جمهرة أنساب العرب – تحقيق عبدالسلام هارون – القاهرة – ١٣٨٢ هـ .

ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي) :

٨ – صورة الأرض – ليدن – ١٩٣٨ م .

٩ – صورة الأرض – بيروت – بلا تاريخ .

ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبه) :

١٠ – المسالك والممالك – تحقيق (M. J. De Goeje) – ليدن ١٨٨٩م .

ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون المغربي) :
١١– تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (– بيروت – ١٩٦٦ م) .
ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدم العلائي المعروف بابن دقماق) :
١٢– الانتصار لواسطة عقد الأمصار – تحقيق الدكتور ڤوليرس Vollers بولاق – ١٨٩٣ م .
ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر المعروف بابن رسته) :
١٣– الأعلاق النفيسة – ليدن – ١٨٩٢ م .
ابن سعد (أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري) :
١٤– الطبقات الكبرى – بيروت – ١٣٧٦ هـ .
ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي) :
١٥ – عيون النواريخ – مخطوط في دار الكتب بالقاهرة رقمه (١٤٩) تاريخ .
١٦– فوات الوفيّات – تحقيق محي الدين عبدالحميد – القاهرة – ١٩٥١ م .
ابن شاهين (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري) :
١٧– زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك – تحقيق بولس راويس – باريس – ١٨٩٤ م .
ابن عبدالحكم (أبو محمد عبدالله بن عبدالحكم) :
١٨– سيرة عمر بن عبدالعزيز – القاهرة – ١٣٧٣ هـ .
ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي) :
١٩– العقد الفريد – القاهرة – ١٩٦٢ م .
ابن العبري (غريغوريوس الملطى المعروف بابن العبري) :
٢٠– مختصر تاريخ الدول – بيروت – ١٨٩٠ م .
ابن المعتز (عبدالله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هرون الرشيد) :
٢١– طبقات الشعراء – القاهرة – ١٣٧٥ هـ .
ابن عساكر (أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين بن عساكر) :

٢٢- تاريخ دمشق - مخطوط بدار الكتب في القاهرة رقمه (٤٩٢) تاريخ .
٢٣- تهذيب ابن عساكر - دمشق - ١٣٢٩ هـ .
ابن العماد (أبو الفلاح عبدالحي بن عماد الحنبلي) :
٢٤- شذرات الذهب - القاهرة - ١٣٨٧ هـ .
ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني المعروف بابن الفقيه) :
٢٥- مختصر كتاب البلدان - تحقيق (M. J. De Goeje) - ليدن - ١٨٨٥م .
ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري) :
٢٩- الشعر والشعراء - بيروت - ١٩٦٤ م .
٢٧- عيون الأخبار - القاهرة - ١٣٨٣ هـ .
٢٨- المعارف - تحقيق ثروت عكاشة - ١٩٦٠ م .
ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير) :
٢٩- البداية والنهاية - بيروت - ١٩٦٦ م
أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفدا) :
٣٠- تقويم البلدان - تحقيق رينود والبارون ماك كوكين ديسلان . باريس - ١٨٤٠م
٣١- المختصر في أخبار البشر - القاهرة - بلا تاريخ .
أبو الفرج الأصبهاني (أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني) :
٣٢- الأغاني - طبعة دار الكتب - القاهرة - بلا تاريخ .
أبو نعيم (أبو نعيم الأصبهاني) :
٣٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - القاهرة - ١٣٥١ هـ .
أحمد رضا :
٣٤- معجم متن اللغة - بيروت - ١٣٧٧ هـ .
الأربيلي (عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربيلي) :
٣٥- خلاصة الذّهب المسبوك في مختصر تاريخ الملوك - بغداد - بلا تاريخ .
الأزديّ (أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي) :
٣٦- تاريخ الموصل - القاهرة - ١٣٨٧ هـ .
أسد رستم (الدكتور) :

٣٧– الرُوم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب – بيروت – ١٩٥٥ م .

أسمذارد (ر. ر. اسمذارد) بالاشتراك :

٣٨– الجغرافية العمومية – مراجعة وتنقيح محمد عوض إبراهيم – القاهرة – ١٣٢٧ هـ

الاصطخري (أبو اسحق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي) :

٣٩– الأقاليم – مطبوع على الحجر – تحقيق مدلر .

٤٠– المسالك والممالك – تحقيق الدكتور محمد جابر عبدالعال الحسني – مراجعة شفيق غربال – القاهرة – ١٣٨١ هـ .

الأصفهاني (حمزة بن حسن الأصفهاني) :

٤١– تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء – بيروت – ١٩٦١ م .

البسوي (أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوي) :

٤٢– المعرفة والتاريخ – تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري–بغداد ١٩٧٤م–١٩٧٦م .

البشاري (أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشارى) :

٤٣– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – تحقيق (M. J. De Goeje) ط٢ – ليدن – ١٩٠٦ م .

البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري) :

٤٤– أنساب الأشراف – تحقيق (S. D. F. Goitein) القدس – ١٩٣٦م

٤٥– فتوح البلدان – تحقيق عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع – بيروت – ١٣٧٧ هـ –.

بينز (نورمان بينز) :

٤٦– الامبراطورية البيزنطية – تعريب الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد – القاهرة – بلا تاريخ .

الجاحظ (ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ)

٤٧– البيان والتبيين – تحقيق حسن السندوبي – ط ٤ – القاهرة – ١٣٧٥ هـ .

٤٨– الحيوان – القاهرة – ١٣٦٢ هـ .

٤٩- عظماء من ذوي العاهات خلّدهم التاريخ - القاهرة - ١٣٩٢ هـ .
الجهشياري (أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري) :
٥٠- الوزراء والكتاب - القاهرة - بلا تاريخ .
الخانجي (محمد أمين الخانجي) :
٥١- منجم العمران - القاهرة - ١٣٢٥ هـ .
الخطيب البغدادي(أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب) :
٥٢- تاريخ بغداد - القاهرة - ١٣٤٩ هـ .
خليفة بن خياط :
٥٣- تاريخ خليفة بن خياط - تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري - النجف - ١٣٨٦ هـ .
الذّهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذّهبي) :
٥٤- تاريخ الاسلام - القاهرة - ١٣٦٧ هـ .
٥٥- دول الاسلام - حيدر آباد الدكن - ١٣٦٤ هـ .
٥٦- العبر في خبر مَن غبر - الكويت - ١٩٦٠ م .
الزاوي (طاهر أحمد الزاوي) :
٥٧- ترتيب القاموس المحيط - القاهرة - ١٩٥٩ م .
الزبيدي (محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي) :
٥٨- تاج العروس في جواهر القاموس - القاهرة - ١٣٠٦هـ - ١٣٠٧هـ .
الزبيري (أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري) :
٥٩- نسب قريش - تعليق إ . ليفي بروفنسال - القاهرة - ١٩٥١ - ١٩٥٣ م .
الزركلي (خيرالدين الزركلي) :
٦٠- الأعلام - ط٢ - القاهرة - ١٣٧٣ - ١٣٧٨ هـ .
زيدان (جرجي زيدان) :
٦١- تاريخ التمدن الاسلامي - القاهرة - ١٩١٤ م .
الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) :

٦٢ـ تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .
العجاج (عبدالله بن رؤبة التميمي) :
٦٣ـ ديوان العجاج ـ تحقيق الدكتور عزة حسن ـ بيروت ـ ١٩٧١ .
العصامي (عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكيّ) :
٦٤ـ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
علي صافي حسين :
٦٥ـ مسلمة بن عبدالملك ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .
عنان (محمد عبدالله عنان) :
٦٦ـ مواقف حاسمة ـ القاهرة ـ ١٣٤٥ هـ .
غلوب (جون باحوت غلوب) :
٦٧ـ الفتوحات العربية الكبرى ـ تعريب خيري حماد ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ م .
الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي) :
٦٨ـ القاموس المحيط ـ القاهرة ـ ١٣٠٦ هـ .
القزويني (زكرياء بن محمد بن محمود القزويني) :
٦٩ـ آثار البلاد وأخبار العباد ـ بيروت ـ ١٣٨٠هـ :
القلقشندي (أبو العباس أحمد القلقشندي)
٧٠ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ـ تحقيق إبراهيم الأبياري . القاهرة ـ ١٩٥٩ م .
كردعلي (محمد كرد علي) :
٧١ـ خطط الشّام ـ ط ٢ ـ بيروت ـ ١٣٨٩ م .
كليتى (برناردوين كليتى) :
٧٢ـ فتح القسطنطينية ـ ترجمة شكري محمود نديم ـ بغداد ـ ١٩٦٢ م .
لسترنج (Guy Le Strange) :
٧٣ـ بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ـ بغداد ١٣٧٣م
مجمع اللغة العربية (القاهرة) :

٧٤- المعجم الوسيط - ط ٢ - القاهرة - ١٩٧٣ م ،.
مجهول (مؤلف مجهول) :
٧٥- العيون والحدائق في أخبار الحقائق - تحقيق (M. J. De Goeje) ليدن - ١٨٧١ م
محمود فهمي المهندس :
٧٦- البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر - بولاق - ١٣١٢ هـ .
المرزباني (أبو عبيدالله محمد بن عمران بن موسى المرزباني) :
٧٧- معجم الشعراء - تحقيق عبدالستار أحمد فراج - القاهرة - ١٣٧٩ هـ .
المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي) :
٧٨- التنبيه والاشراف - القاهرة - بلا تاريخ .
٧٩- مروج الذهب ومعادن الجوهر - بيروت - ١٣٨٥ هـ .
المقدسي (مطهر بن طاهر المقدسي) :
٨٠- البدء والتاريخ - شالون - ١٩١٦ م .
النووي (أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي) :
٨١- تهذيب الأسماء واللغات - القاهرة - بلا تاريخ .
هنس (فالتر هنس Wal the Hinz) :
٨٢- المكاييل والأوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري - ترجمه عن الألمانية الدكتور كامل العسيلي - عمان (الأردن) - ١٩٧٠ م .
ولها وزن (يوليوس ولهاوزن) :
٨٣- الدولة العربية وسقوطها - ترجمة يوسف العش - دمشق - ١٣٧٦ هـ .
ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي) :
٨٤- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً - كوتنكن - ١٨٤٦ م .
٨٥- معجم البلدان - القاهرة - ١٣٢٣ هـ .
اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي) :
٨٦- البلدان - ليدن - ١٨٩٢ م .

المراجع الاجنبية

87- Chember's Encyclopedia.

88- Encyclopedia Britannica.

Brooks, E.W :

89- The Arabs in Asia minor, 641-750- Journal of Hellenic Studies - Vol 18-1898

90- Byzantines and Arabs in the Time of early Alasid, 750 to 813 - English Historicab Review - First Part - Octobre - 1900

91- The Compain of 716 to 718 from Arabic Sources - Journal of Hellenic Studies-Vol 19-1899.

92- Arabic Lists of the Byzantine Themes - Journal of Hellenc stadies - Vol 21-1951.

Bury, J.B., :

93- History of the Later Roman Empire from The Ball of Jrene to the Aecession of Basil 1, (8.2—867) — London.

94- History of the Later Roman Empire from Arcedius to Jrane (395—565) — London.

Chei RA, M.A., :

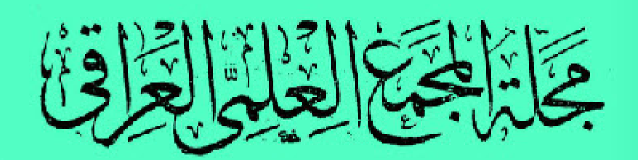
95- La Lutte Arrabes E7 Byzntins-Alexandrie - 1947.

Gibbon, E., :

96- Decilne and Fall of Roman Empir - London - 1897 - 1902.

Vasilieav. A.A., :

97- The Byzantin Empire.

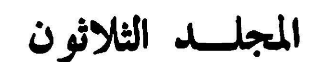


المجلد الثلاثون



١٣٩٩ هـ مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٧٩ م







١٣٩٩ هـ — مطبعة المجمع العلمي العراقي — ١٩٧٩ م

تحقيق سورية ولبنان وفلسطين والأردن
من
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
للشريف الادريسي

الدكتور ابراهيم شوكة

لقد حققت هذه البلاد كي يتم تحقيق الشرق العربي كله من نزهة المشتاق مع العلم ان مستشرقين فاضلين من اوربا وهما دوزى ودى خويه ، قد حققا شمال افريقية ، وترجما تحقيقهما الى الفرنسية ، ولكنه خلو من الخرائط والايضاح التام فجزاهما الله خيرا عنا .

وبتحقيقي هذا يتم تحقيق كل وطننا العربي.ان تحقيق سورية في هذاالبحث يتممه ما حققته ونشرته عن الجزيرة (اي شمال غربي العراق) من نزهة المشتاق ، والذي كان جزءاً من سورية ايام الادريسي .

فيرجى الرجوع الى ذلك البحث الذي نشرته في مجلة المجمع العلمي العراقي بعنوان « تحقيق الجزيرة والعراق من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي »

ان اهم المراجع التي اعتمدت عليها في تحقيقي لهذا الجزء الذي بين يدي القارئ

الكريم ، هي نفس المراجع للابحاث السابقة التي اعتمدت عليها في تحقيق ما جاء في الادريسي عن بلاد العرب (الجزيرة العربية) وتحقيق (العراق والجزيرة) . واهم هذه المخطوطات هي ٢٢٢١ و ٢٢٢٢ من المكتبة الوطنية في باريس ، وقد رمزت اليها بـ (٢١) و (٢٢) في التعليقات ، ومخطوطة بوكوك من اكسفورد وقد رمزت اليها(OX) والمخطوطة المغربية وقد رمزت اليها (م) ، واما المخطوطة الموصلية المختصرة فقد رمزت اليها (ص) . وقد راجعت عدة صور لمخطوطات اخرى لم اذكرها في التعليق . وقد قمت برسم عدة خرائط مع اصلها من المخطوطات المختلفة .

وهذا ما لزم ايضاحه والله الموفق .



(١) R, DOZY – MJ – DE GOEJE

(٢) Description De Lafrigue ET De Lespagne –1866

(٣) مجلة المجمع العلمي العراقي : مجلد ٢٣ لسنة ١٩٧٣ ص ١ — ٧٢

واما حدود(١) فلسطين فهي(٢) اول(٣) احواز الشام وحدودها مما يلي المغرب(٤) مقدار اربعة(٥) ايام وذلك من رفح الى اللجون(٦) وعرضها (٧)من يافا الى اريحا(٨) مسيرة يومين (وزغر) (٩) وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة(١٠) (وجبال الشراة مضمومة اليها وهي منها في العمل الى حدود ايلة وديار قوم لوط) (١١) وزغر(١٢)وبيسان وطبرية تسمى الغور لأنها بقعة بين جبلين . وساير مياه الشام تنحدر(١٣) وتتجمع ويتكون منها (نهر زخار) (١٤) اوله (١٥) من بحيرة طبرية ، يأخذ من طبرية، وجميع الانهار تصب اليه مثل نهر اليرموك ، والحد(١٦) ، وانهار(١٧) بيسان ، وما ينصب من كورمات ، وجبال بيت المقدس وجبل قبر ابراهيم(١٨) (عليه السلام) وجميع ما ينصب ايضاً من نابلس فانه يجتمع الكل فيها(١٩) حتى يقع في بحيرة زغر(٢٠) وتسمى بحيرة سادوم (وعامور(٢١) وهما كانتا مدينتي قوم(٢٢) لوط فغرقهما الله فعاد مكانهما بحيرة منتنة (٢٣)سميت بالبحيرة الميتة) (٢٤) لأنه ما فيها شيءٌ له روح ، لاحوت ولا دابة ولا شيءٌ مما(٢٥) شأنه ان يكون(٢٦) في سائر المياه الراكدة والمتحركة وماؤها حار (٢٧) كريه الرايحة وفيه سفن صغار يسافر بها(٢٨) في تلك الناحية ، وتحمل عليها الغلات (وصنوف(٢٩) الثمر من زغر(٣٠) الى اريحا وساير اعمال الغور)(٣١) وطول هذه البحيرة ستون ميلاً وعرضها اثنا(٣٢) عشر ميلاً. ومن اريحا(٣٣) الى زغر(٣٤) يومان ومن زغر(٣٥) الى جبال الشراة (ومن جبال الشراة)(٣٦)والى آخر الشراة يومان (ومن اريحا(٣٧) الى بيت المقدس مرحلة ومن بيت المقدس الى عمان والبلقاء يومان) (٣٨) ومن الرملة الى قيسارية مرحلة كبيرة[واريحا (٣٩) المذكورة من أجل بلاد(٤٠) الغور وعمتا وبيسان واكثر غلات(٤١) بلاد الغور النيلج(٤٢) واهله يسمونه البلسم (واهله سمر بل هم الى السواد اقرب) (٤٣) .
والحمة(٤٤) بلد من بلاد فلسطين صغير(٤٥) ماؤه حار وهواؤه وخيم . واما مدينة بيسان فصغيرة جداً وبها نخل كثير وينبت بها السامان الذي(٤٧) يعمل(٤٨) منه الحصر السامانية ولا يوجد نباته البتة الا بها وليس في سائر الشام شيءٌ منه .

وفلسطين ماؤها(٤٩) من الامطار والسيول واشجارها قليلة وديار فلسطين حسنة البقاع

بلد ازكى بلاد الشام ومدينتا الشام هما الرملة ثم بيت المقدس . فأما الرملة فهي (٥٠) مدينة حسنة عامرة وبها اسواق وتجارات ودخل (٥١) وخرج منها الى يافا التي على ساحل البحر الملح (٥٢) نصف يوم (ومن الرملة الى نابلس يوم) (٥٣) ومن الرملة الى قيسارية مرحلة كبيرة .ونابلس مدينة السامرية وبها البير التي حفرها يعقوب عليه السلام. وبها (٥٤) حبس (٥٥) السيد المسيح وطلب من المرأة السامرية الماء ليشرب .وعليه الآن كنيسة حسنة ويزعم (اهل بيت (٥٦) المقدس ان السامرية لا يوجد احد منهم الا بهذه المدينة .

وبآخر مدن فلسطين مما (٥٧) يلي الجفار وطريق مصر مدينة غزة وبينهما من الاميال ثلاثون ميلا] (٥٩) ومن فلسطين الى مدينة عسقلان مرحلة كبيرة وبين عسقلان وغزة نحو من عشرين ميلاً [وهي الآن عامرة بأيدي الروم . ومرسى غزة مِيناء] (٦٠) . ومن بيسان (٦١) الى عسقلان شرقاً عشرون ميلاً [والعريش (مدينة) (٦٢) كانت ذات جامعين (مفترقة المباني) (٦٣) والغالب على ارضها (٦٤) الرمال ولها اثمار (٦٥) وجملة فواكه . وهي على مقربة من البحر (ايضاً) (٦٦) وان الطريق من الرملة الى مردود (٦٧) في البر مرحلة الواردة (٦٨) (الى الفرما وهي مدينة مدينة حسنة ذات سورين وبها اسواق وليس لها من خارجها بساتين وليس بها شيٌ من الشجر] (٦٩) . ومن المردودة الى غزة — وقد تقدم ذكرها — مرحلة ومن غزة الى رفح (٧٠) وهي مدينة صالحة مرحلة ومنها الى العريش] (٧١) . ومن العريش الى الواردة (٧٢) وهي منزل (قرب البحر) (٧٣) مرحلة . [واما مدينة عسقلان فهي مدينة حسنة ذات سورين وبها اسواق وليس لها من خارجها بساتين (وليس بها) (٧٤) شيٌ من الشجر استفتحها صاحب القدس بعساكر الروم من الافرنج وغيرهم في سنة ثمان واربعين وخمسماية وهي الآن بأيديهم . وعسقلان معدودة (٧٥) في ارض فلسطين ويقابلها في جهة الجنوب ناحيتان جليلتان وهما جبال وشراة (٧٦) . فاما الجبال فمدينتها تسمى دراب ، وشراة (٧٧) ايضاً مدينتها تسمى ادراج (٧٨) وهما في غاية الخصب وكثرة اشجار الزيتون واللوز والتين والكروم والرمان وعامة سكانها (٧٩) من قيس . وكذلك بين جنوب مدنها وشرق قرية مؤتة (٨٠) ومنها الى عمان تمرفيما بين شعبتي (٨١)

جبل يقال له الموجب(٨٢) وهو واد عظيم عميق(٨٣) القعر ويمر فيما(٨٤) بين هذين الشعبين وليسا بمتباعدين(٨٥) وبذلك (٨٦)يكون (٨٧) مقدار ما يمكن ان يكلم إنسان انسانا (٨٨) وهما واقفان على ضفتي النهر فيسمع (احدهما الآخر فينزل) (٨٩) فيه السالك ستة اميال ويصعد ستة اميال] (٩٠) ومن عسقلان الساحلية (المتقدم)(٩١) ذكرها الى حصن الماحوز(٩٢) الاول على البحر خمسة وعشرون ميلاً ويقابلها(٩٣) في البرية كرم (ونخل) وبيت جبرين(٩٤) وهما(٩٥) محلان ينزل بهما ثم الى الماحوز الثاني خمسة وعشرون ميلاً ومنها الى مدينة يافا . وهي فرضة بيت المقدس وبينهما مرحلتان خفيفتان .

وبيت المقدس مدينة جليلة قديمة البناء(٩٦) فكانت تسمى ايليا . وهي على جبل يصعد اليها من كل جانب . وهي في ذاتها طويلة وطولها من المغرب الى المشرق ومن طرفها الغربي باب المحراب وهذا(٩٧) الباب عليه قبة داود عليه السلام وفي طرفها الشرقي باب(٩٨) تسمى(٩٩) باب الرحمة وهو مغلق لا يفتح إلا في عيد الزيتون لمثله ولها من جهة الجنوب باب يسمى باب صهيون . ومن جهة الشمال باب عمود(١٠٠) الغراب . واذا دخل الداخل من باب المحراب وهو الباب(١٠١) الغربي كما قلنا يسير نحو المشرق في زقاق (١٠٢) شارع الى الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة(١٠٣) ويسميها المسلمون(١٠٤) قمامة وهي الكنيسة المحجوج اليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الارض ومغاربها فيدخل من باب في (١٠٥) غربيها فيجد الداخل نفسه في وسط(١٠٦) القبة التي تشتمل (١٠٧) على جميع الكنيسة وهي من عجائب الدنيا . والكنيسة اسفل ذلك الباب ولا يمكن لاحد(١٠٨) النزول اليها من هذه الجهة ولها باب في جهة الشمال ينزل منه الى اسفل الكنيسة على ثلاثين (١٠٩) درجة ويسمى هذا الباب (باب شنت (١١٠) مريّة (١١١) (وعند نزول الداخل الى الكنيسة تلقاه المقبرة المقدسة المعظمة .. ولها بابان وعليها قبة معقودة (١١٢) قد اتقن بنيانها وحصن تشيدها(١١٣) وأيد تنميقها وهذان البابان احدهما يقابل الشمال حيث باب شنت(١١٤) مريّة(١١٥) والباب الاخر (١١٦) يقابله من جهة الجنوب (ويسمى باب الصلوبية .

وعلى هذا الباب ثنار(١١٧) الكنيسة ويقابلها من جهة الشرق) (١١٨) كنيسة عظيمة كبيرة(١١٩) جدايقدس فيها افرنج الروم ويقربون . وفي شرقي هذه الكنيسة (تلقاء المقبرة المقدسة) (١٢٠) منحرفاً بشيْ يسير الى الجنوب الحبس (١٢١) الذي حبس(١٢٢) فيه السيد المسيح ومكان الصلوبية واما القبة الكبيرة فهي قوراء(١٢٣) مفتوحة للسماء وبها دار(١٢٤)(بها) (١٢٥) الانبياء مصورون (١٢٦) والسيد المسيح والسيدة مريم والدته ويوحنا المعمدان وعلى المقبرة المقدسة من القناديل المعلقة على المكان ثلاثة(١٢٧) قناديل ذهب . واذا خرجت من هذه الكنيسة العظمى وقصدت شرقا الفيت(١٢٨) البيت المقدس الذي بناه(١٢٩) سليمان(١٣٠) بن داود (عليه السلام) (١٣١) وكان مسجدا محجوجا اليه في ايام دولة اليهود ثم انترع من ايديهم واخرجوا عنه الى مدة الاسلام فكان معظما في مدة ملك المسلمين وهذ االمسجد المعظم المسمى بالمسجد (١٣٢)الاقصى(١٣٣) عندهم(١٣٤) وليس في الارض كلها مسجد اعلى قدرا(١٣٥) الا المسجد المعظم(١٣٦) الجامع الذي بقرطبةمن بلاد(١٣٧) الاندلس . وفيمايذكر(١٣٨) ان سقف(١٣٩) جامع قرطبة اكبر من سقف الجامع الاقصى (وصحن المسجد الاقصى اكبر من صحن جامع قرطبة(١٤٠) والمسجد الاقصى في تربيع طوله مايتا باع في عرض مائة وثمانين باعا ، نصفه مما يلي المحراب(١٤١) سقف بقبة(١٤٢) صخر على عمد كثيرة (١٤٣) صفوفا والنصف الثاني صحن لا سقف له وفي وسط الجامع قبة عظيمة تعرف بقبة(١٤٤) الصخرة(١٤٥) (وهذه القبة مرصعة بالقسي المرتب والاعمال الحسنة من بناء خلفاء المسلمين وفي وسطها الصخرة المسماة بالواقعة) (١٤٦) وهو حجر مربع(١٤٧) كالدرقة في وسط القبة رأسها الواحد مرتفع عن الارض مقداره نصف قامة أو اشف من ذلك .

ورأسها الثاني لاصق بالارض وطول هذه الصخرة مقارب لعرضها وتكون(١٤٨) بضعة عشر ذراعا في مثلها وينزل من باطنها واسفلها الى سرداب كالبيت المظلم(١٤٩) طوله عشرة اذرع في عرض خمسة وارتفاع سمكه يشف على القامة ولا يدخل الى هذا البيت الا بمصباح يستضاء به ولهذه(١٥٠) القبة اربعة ابواب والباب الغربي منها يقابله مذبح كان بنو اسرائيل يقربون عليه القرابين وبالقرب من الباب الشرقي من ابواب هذه القبة الكنيسة

(١٥١) المسماة بقدس(الاقداس) وهي لطيفة القدر والقبلي منها يقابله المسقف الذي كان مصلى للمسلمين فلما استفتحها الروم (من ايدي المسلمين) (١٥٢) وبقي(١٥٣) بايديهم الى وقت(١٥٤) تأليفنا لهذا الكتاب(١٥٥) صيروا هذا المسقف من المسجد بيوتا يسكنها الجيل المعروفون(١٥٦) بالراوية(١٥٧) ومعناه خدام بيت الله ويقابل الباب الشمالي بستان حسن مغروس بانواع الاشجار ودايرِ هذا البستان اعمدة رخام مضفورة(١٥٨) بابدع(١٥٩) ما يكون من الصنعة وفي آخر البستان مجلس برسم الغذاء(١٦٠) للقسيسين(١٦١) والمدرجين(١٦٢) وتخرج من هذا المسجد ايضا شرقا تصل(١٦٣) الى باب الرحمة المغلق(١٦٤) كما قدمنا وبالقرب من هذا الباب باب آخر مفتوح يعرف بباب الاسباط عليه الدخول والخروج واذا خرجت من باب الاسباط سرت في حدود مقدار رمية سهم فتجد كنيسة (كبيرة) (١٦٥) حسنة جداً على اسم السيدة مريم ويعرف المكان بالجسمانية وهناك قبرها ينظر(١٦٦) جبل الزيتون وبينه وبين (باب) (١٦٧) الاسباط نحو ميل وفي(١٦٨) طريق الصعود الى هذا الجبل كنيسة اخرى حسنة معظمة متقنة البناء وتسمى كنيسة باتر نصطرة وفيها رجال ونساء محبوسون(١٦٩) يبتغون بذلك اجر الله سبحانه وفي (شرقي(١٧٠) هذا الجبل المذكور منحرفاً(١٧١) قليلاً الى الجنوب قبر اليعازر(١٧٢) الذي احياه السيد(١٧٣) المسيح (١٧٤) وعلى ميلين من جبل(١٧٥) الزيتون القرية التي حمل(١٧٦)منها الاتان لركوب السيد المسيح(١٧٧) عند دخوله اورشليم وهي الان خراب لاساكن بها وعلى قبر اليعازر يأخذ الطريق(١٧٨) الى وادي الاردن وبين(١٧٩) وادي الاردن وبيت(١٨٠) المقدس مسافة يوم واحد ومن قبل ان تصل الى وادي الاردن مدينة اريحا السابق ذكرها وبينها وبين الوادي ثلاثة(١٨١) اميال وعلى الوادي(١٨٢) المسمى الاردن كنيسة عظيمة على اسم شنت (١٨٣) يوحنا يسكنها(١٨٤) رهبان(١٨٥) الاغريقيين(١٨٦) ووادي الاردن يخرج من بحيرة طبرية ويصب في بحيرة سادوم (١٨٧) وعامورا(١٨٨)(اللتين كانتا مدينتي قوم لوط فغرقهما الله بذنوب اهلها)(١٨٩) ومما يلي قبلة وادي الاردن برية متصلة .

واما ما يلي بيت المقدس في ناحية الجنوب فانك اذا خرجت من باب صهيون وسرت مقدار رمية(١٩٠)حجر وجدت كنيسة صهيون وهي كنيسةجليلةحصينة وفيهاالعليّة التي اكل فيها السيد المسيح مع التلاميذ وفيها المائدة باقية الى الآن ولها ميعاد في يوم الخميس ومن باب صهيون تنزل(١٩١) في خندق يعرف بوادي جهنم وفي طرف (١٩٢)الخندق كنيسة على اسم بطرس وفي هذا الخندق عين سلوان(١٩٣) وهي العين التي أبرأ فيها السيد المسيح الضرير الاعمى ولم تكن له قبل ذلك عينان . ومن هذه العين المذكورة الى الجنوب الحقل الذي يدفن فيه الغرباء وهي ارض اشتراها السيد لذلك وبقربها(١٩٤) بيوت كثيرة منقورة في الصخر وفيها رجال قد حبسوا انفسهم فيها عبادة .

واما بيت لحم وهو الموضع الذي ولد فيه السيد المسيح فبينه(١٩٥) وبين القدس(١٩٦) ستة اميال وفي وسط الطريق قبر راحيل ام يوسف وام بنيامين(١٩٧) ولدي يعقوب (عليهم السلام)(١٩٨)وهو قبر عليه اثنا عشر حجرا وفوقه قبة معقودة بالصخر وفي بيت لحم هناك كنيسة حسنةالبناء متقنة الوضع فسيحة مزينة الى ابعد غاية حتى انه ما ابصر (١٩٩) في جميع الكنائس مثلها بناءا وهي في وطء من الارض ولها باب (من جهة المغرب) (٢٠٠) وبها من اعمدة الرخام كل مليح(٢٠١) وفي ركن الهيكل في جهة الشمال المغارةالتي ولد فيها(٢٠٢)(السيد المسيح)(٢٠٣) وهي تحت الهيكل وداخل المغارة المرود(٢٠٤) الذي وجد به فاذا(٢٠٥)خرجت من بيت لحم فنظرت في الشرق منه كنيسة الملائكة(٢٠٦) الذين بشروا الرعاة(٢٠٧) بمولد السيد (المسيح) (٢٠٨) ومن بيت لحم الى مسجد ابراهيم في الجنوب نحو ثمانية عشر ميلاً وهي قرية متمدنة(٢٠٩) وفي مسجدها قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب (عليهم السلام) (٢١٠) وكل قبر من قبورهم تجاه قبر امرأته(٢١١) وهذه المدينة في وهد(٢١٢) بين جبال(٢١٣) كثيفة الاشجار اعني(٢١٤) شجر الزيتون والتين والجميز(٢١٥) وفواكه كثيرة وليس شمال(٢١٦) بيت المقدس شيء من البناء ومن مدينة (٢١٧)بيت المقدس شمالاً الى مدينة (٢١٨) نابلس يومان وكذلك من نابلس(٢١٩) الى الرملة يوم كبير (ومن بيت المقدس الى الرملة يوم كبير) (٢٢٠) ومن بيت المقدس الى عمان والبلقاء يومان وبعض

يوم ومن بيت المقدس الى طبرية تسعون ميلاً وكذلك من طبرية الى الرملة ثلاث مراحل وطبرية (٢٢١) مدينة الاردن الكبرى وهي قصبتها فمنها الى صور يومان كبيران ومنها الى عقبة ابلق(٢٢٢) بعض(٢٢٣) يوم ومنها الى بيسان بعض يوم ومنها الى عمتا(٢٢٤) مدينة الغور الى آخر عمل الاردن ومنها الى موضع يعرف بالجميلة يوم (ومنها الى بيسان بعض يوم) (٢٢٥) ومن طبرية الى عكا يومان خفيفان (وطبرية)(٢٢٦) مدينة جليلة على جبل مطل ، طويلة في ذاتها قليلة العرض وطولها نحو ميلين واسفلها من ناحية المغرب(٢٢٧) بحيرة عذبة الماء طولها اثنا عشر ميلا في عرض مثلها [وبها مراكب سابحة تحمل فيها الغلات الى المدينة ولها سور (٢٢٨) حصين ويعمل فيها من الحصر السامانية كل عجيبة وقليلا ما يصنع مثلها في بلد من البلاد المعروفة وفي هذه المدينة حمامات من غير قار(٢٢٩) يوقد (٢٣٠) لها وهي(٢٣١) حارة(٢٣٢) في الشتاء والصيف وفيها حمام يعرف بحمام الدمامز(٢٣٣) وهو كبير عظيم وماؤه(٢٣٤) في اول خروجه حار تسمط فيه الجدا(٢٣٥) والدجاج ويسلق فيه البيض وماؤه ملح وبها حمام اللؤلؤ أصغر من حمام الدمامز (٢٣٦) وماؤه حار عذب (وهذا الماء الحار يخترق الدور المجاورة له وبه يغتسلون ويتصرفون ومن حماماتها حمام المنجرة وماؤه حار عذب) (٢٣٧) وليس فيه حمام توقد له النار الا الحمام الصغير الذي بها ، وذلك انه بناه احد الملوك الاسلامية في داره ليدخله هو ومن له من اهل وولد وحاشية فلما مات اخرج (جعل) (٢٣٨) للناس (٢٣٩) عامة فهم(٢٤٠) يدخلونه ، وماؤه يسخن بالنار(٢٤١) وحده وفي جهة الجنوب منها حمامات كثيرة مثل عين مرقعين(٢٤٢) ، وعين الشرب (٢٤٣) وغيرها . وتصب(٢٤٤) اليها عيون مياهها حارة مدى الدهر ويقصد اليها من جميع النواحي اهل البلاد من الناس مثل المقعدين والمفلوجين والمرجاجين(٢٤٥) واصحاب القروح والجرب فيقيمون بها في الماء ثلاثة(٢٤٦) ايام فيبرأون باذن الله من ذلك. ومدن سواحل فلسطين منها عسقلان وارسوف(٢٤٧) ويافا وهذه (٢٤٨) كلها مدن تقارب مقدارها وصفاتها واحوال اهلها مع انها لطاف حصينات ، كثيرة العمارات

وفيها(٢٤٩) شجر الزيتون والكروم كثيرة جدا . ويافا في ذاتها مدينة ساحلية وهي فرضة بيت(٢٥٠) المقدس وبينهما ثلاث(٢٥١) مراحل خفاف وبين يافا والرملة عشرون ميلا]

(٢٥٢)(وقيسارية بلد كبير عظيم له(٢٥٣) ربض عامر(٢٥٤) وحصن منيع وبين يافا وقيسارية ثلاثون ميلا](٢٥٥) ومن قيسارية الى نابلس مرحلةوكذلك من قيسارية الى الرملة مرحلتان خفيفتان ومن قيسارية الى مدينة حيفا على الساحل يومان وجيفا تحت طرف (٢٥٦) الكومل وهو طرف خارج في البحر وبه مرسى حسن لارساء الأساطيل (٢٥٧) وغيرها ومدينة حيفا هي فرضة لطبرية (٢٥٨) وبينهما ثلاث مراحل خفاف ومن حيفا الى مدينة عكا(٢٥٩) مرحلة في البر وهي من الاميال ثلاثون ميلا وفي البحر روسية ثمانية عشر ميلا . ومدينه عكا كبيرة واسعة الارجاء كثيرة الضياع ولها مرسى حسن مأمون واهلها اخلاط (وناس شتى) (٢٦٠) ومن عكا الى طبرية(٢٦١) يومان ومن عكا الى حصن الزيت اثنا عشر ميلا وهو حصن حسن على ضفة البحر الملح(٢٦٢)ومنه الى النواقير وهي ثلاثة(٢٦٣) جبال بيض شواهق (٢٦٤) مطلة على ضفة(٢٦٥) البحر نحو من ثمانية عشر ميلا ومن وسط النواقير الى مدينة الاسكندرية خمسة اميال ومن الاسكندرية(٢٦٦) الى مدينة صور خمسة عشر ميلا وهي مدينة حسنة على ضفة البحر [وبها للمراكب ارساء واقلاع وهو بلد حصين قديم والبحر قد احاط به من ثلاثة اركانه وهذه المدينة ربض كبير ويعمل بها جيد الزجاج والفخار وقد يعمل بها من الثياب البيض المحمولة الى كل الافاق . وكل شيءٍ حسن غالي الصفة والصنعة ثمين القيمة وقليلا ما يصنع مثله في ساير البلاد المحيطة بها] (٢٦٧) ومن صور الى طبرية يومان كبيران ومنها الى عدلون وهو حصن منيع على الجبل(٢٦٨) ومنه الى صرفند عشرون ميلا وهو حصن حسن ومنه الى صيدا عشرة اميال وبين صور وصرفند يقع نهر لينطة ومنبعه من الجبال ويقع هناك في البحر (ومن مدينة صور في البر الى طبرية يومان كبيران)(٢٦٩) ،ومن صور الى دمشق اربعة ايام(٢٧٠)ومدينة دمشق من اجل بلاد الشام واحسنهامكاناً واعدلها هواءا وطيبها ثرى واكثر مياها واغزرها فواكه واعمها خصبا واوفرها مالا واكثرها جندا واشمخها(٢٧١) بناءا . ولها جبال ومزارع (٢٧٢) تعرف بالغوطة . وطول الغوطة مرحلتان في عرض مرحلة وبها ضياع كالمدن مثل المزة(٢٧٣) وداريا(٢٧٤) وبردى(٢٧٥ وحرشنة(٢٧٦) وكوكبا(٢٧٧) وايلاس(٢٧٨) وكفر سوسنه(٢٧٩) وبيت الاهرار(٢٨٠) وبها جامع قريب الشبه بجامع دمشق ومن باب دمشق الغربي الى وادي البنفسج(٢٨١)

وطوله اثنا(٢٨٢) عشر ميلا وعرضه ثلاثةاميال وكله مغروس(٢٨٣) بأجناس الثمار تسقيه(٢٨٤)خمسة انهار [ويكون في كل واحدة من هذه الضياع من الفي(٢٨٥) رجل الى الف او اقل او اكثر والغوطة ايضا هي اشجار وانهار(٢٨٦)ومياهها مخترقة تشق البساتين والديارات وبها من انواع الفواكه مالا يحيط به تحصيل ولا يأتي(٢٨٧) بمثله(٢٨٨) تمثيل(٢٨٩) كثرة(٢٩٠) وخصبا وطيبا ودمشق انزه(٢٩١)بلاد الله من خارج] (٢٩٢) .

[ومياه الغوطة الجارية(٢٩٣) بها تخرج من عين الفيجة وهذه العين في اعلى(٢٩٤) جبل وينصب ماؤها من اعلى هذا الجبل كالنهر العظيم له صوت هائل (ودوي عظيم يسمع على بعد ويرى نزول الماء من اعالي الجبل على قرية أيل حتى ينتهي الى المدينة (٢٩٥)فتتفرع منه الانهار المعروفة بها نهر بردي (٢٩٦) ونهر نورة (٢٩٧) وقناة المزةونهر بانياس(٢٩٨)ونهر (سقط)(٢٩٩)ونهر يشكورونهر عادية(٣٠٠)وهذا النهر ليس بمشروب(٣٠١) لان عليه مصبات(٣٠٢)اوساخ المدينة واوزار غسالاتها(٣٠٣)وقنوات صغار. ويشق هذا النهر وسط المدينة وعليه قنطرة يجتاز(٣٠٤) عليها الناس وكذلك أيضاً ساير(٣٠٥)الاودية التي ذكرناها تخرج منها سواقي (٣٠٦) تخترق المدينة ويجري الى دورها وحماماتها واسواقها(٣٠٧)وبساتينها وبها المسجد الجامع الذي ليس على الارض مثله بناء ولا احسن منه صنعة (٣٠٨) ولا اتقن منه احكاما(٣٠٩) ولا اوثق منه عقدا ولا اغرب منه رسما ولاابدع منه تلميعا (٣١٠) بانواع الفصوص (٣١١) المذهبة والآجر المحكوك والمرمر المصقول (وهو في مربعة تعرف بالميزاب) (٣١٢). فمن جاء من ناحية باب جيرون(٢١٣)صعد اليه في درج رخام كبير واسع نحو من ثلاثين درجة .ومن قصده من ناحية باب البريد والقبة الخضراء وقصر المستفهين (٣١٤) وحجر الذهب وباب الفراديس كان مدخله مع الارض بغير درج. وفيه آثار عجيبة منها(٣١٦) الحجران(٣١٧)والقبة التي فوق المحراب عند المقصورة ويقال انها من بناء الصابئة(٣١٨) وكان مصلاهم بها ثم صارت(٣١٩)في ايدي اليونانيين فكانوا(٣٢٠) يعظمون (٣٢١) فيه دينهم ثم صار من بعدهم للملوك من عبادة الاوثان فكان لهم موضعا لاصنامهم ثم انتقل الى اليهود فقتل في ذلك الزمان يحيى بن زكريا فنصب(٣٢٢)رأسه على باب المسجد المسمى باب جيرون ثم تغلبت عليه النصارى فضبطته(٣٢٣)فصار ماكا(٣٢٤)بأيديهم فحولته بيناً يقيمون(٣٢٥)بها(٣٢٦) دينهم ثم استفتحها الاسلام

فصارت لهم(٣٢٧) فاتخذوه جامعا فاما(٣٢٨) كان في ايام الوليد بن عبدالملك من بني امية عمره فجعل ارضه رخاما(٣٢٩) ومعاقد رؤس (٣٣٠) اساطينه ذهبا ومحرابه مذهبا وساير حيطانه مرصعة(٣٣١) بالفضة باشباه الجوهر ودور السقف كله مكتما(٣٣٢) كما يدور بترابع(٣٣٣) جدران(٣٣٤) المسجد مذهباً(٣٣٥) باحسن صنعة وابدع تنميق(٣٣٦) ويقال انه جعل بأعلى السقف حصن(٣٣٧) رصاص محكمة التأليف وثيقة الصنعة والماء يصل اليه في قنوات رصاص فمتى(٣٣٨) احتاج ذلك المسجد الى الغسل فتح اليه الماء(وغسل جميع صحنه بأهون سعي)(٣٣٩) . ويقال ان الوليد بن عبدالملك المقدم ذكره انفق في اتقان هذا المسجد الجامع خراج الشام كله لسنتين(٣٤٠)

ومدينة دمشق محدثة وانها(٣٤١) كانت في القدم(٣٤٢) ومن موضعها (٣٤٣) موضع (٣٤٤) يسمى الجابية وذلك في ايام الجاهلية وبنيت دمشق عليها ولها ابواب شتى فمنها (٣٤٥) باب الجابية وباب توما وباب السلامة وباب الفراديس (٣٤٦) ودير مران يقابله(٣٤٧) (والباب الصغيرة(٣٤٨) .وعرض الارض المعمورة ايامه ستة أميال طول في عزض ثلاثة اميال كل ذلك اشجار وعمارات ويسقيها خمسة انهار (٣٤٩) ومدينة دمشق جامعة لصنوف المحاسن وضروب من الصناعات وانواع من الثياب الحرير كالخز(٣٥٠) والديباج النفيس الثمين (٣٥١) العجيب الصنعة العديم المثال الذي يحمل منها الى كل بلد ويتجهز به منها الى كل الافاق والامصار المصاقبة لها والمتباعدة عنها [ومصانعها في كل(٣٥٢) ذلك عجيبة يضاهي ديباجها بديع ديباج (٣٥٣) الروم ويقارب ثياب دستر(٣٥٤) وينافس اعمال اصبهان ويشف على اعمال طرز نيسابور (٣٥٥) من جليل ثياب الحرير المصمتة وبدايع ثياب تنيس وقد احتوت طرزها على افانين من اعمال الثياب النفسية ومحاسن جمة فلا يعادلها جنس (٣٥٦) ولا يقاومها مثال] (٣٥٧) ولدمشق في داخلها وعلى اوديتها ارحاء كثيرة والحنطة فيها كثيرة جدا وانواع الفواكه واما الحلاوات فيها فلا يوجد بغيرها (٣٥٨) ولا يوصف كثرة وطيبا وجودة (اهلها في خصب عيش واتصال أمن(٣٥٩) وصناعاتها نافقة وتجاراتها رابحة وهي من اعز (٣٦٠) البلاد الشامية (واكملها حسنا)(٣٦١) ومنها الى مدينة بعلبك من جهة المشرق مرحلتان وهي مدينة حصينة على سفح جبل وعليها سور حصين مبني

بالحجارة وسعته عشرون شبرا(٣٦٢) والماء يشق في وسطها ويدخل كثيرا من ديارها وعلى هذا النهر ارحاء ومطاحن وهي كثيرة الغلات نامية الاصابات وافرة الفواكهوالطرق غزيرة الكروم والاشجار خصيبة المأكل والاسعار(٣٦٣)وفيها من عجيب البناء المذكور آثار يجب ذكرها لشماختها(٣٦٤) وصنعها ووثاقيتها(٣٦٥)وذلك ان بها من عجيب البنيان الملعبين وهما الكبير والصغير(٣٦٦)فالكبير يحكى انه بني في ايام سليمان بن داود (عليه السلام) (٣٦٧) وهو عجيب المنظر فيه حجارة يكون طول الحجر منهاعشرة اذرع (واكثر واقل) (٣٦٨)منه(٣٦٩)شيءٌ مبنيعلى عمد شاهقة(٣٧٠)يروع منظرها والملعب الصغير قد تهدم اكثره(٣٧١)وذهبت محاسنه وبقي منه الآن حايط قائم طوله عشرون ذراعا وارتفاعه على الارض عشرون ذراعا وليس فيه إلا سبعة احجار حجر واحد في اسفله وحجران فوقه واربعة احجار فوق الحجرين وفي هذه المدينةمن البناء كل شيءٌ عجيب] (٣٧٢) .

(ومن مدينة دمشق الى بيروت يومان كبيران ومنها الى مدينة صيدا مثل ذلك ومن دمشق الى اذرعات وهي البثنية(٣٧٣)اربع مراحل ومن دمشق الى نابلس ست مراحل غرباً(٣٧٤) (ومن دمشق الى أطرابلس الساحلية خمس مراحل .

واما(٣٧٥)مدينة صيدا فهي على ساحل البحر الملح(٣٧٦) [عليها(٣٧٧) سور حجارة ينسب(٣٧٨)الى امرأة كانت في الجاهلية وهي مدينة كبيرة عامرة الاسواق رخيصة الاسعار محدقة بالبساتين والاشجار غزيرةالمياه واسعة الكور لها اربعة اقاليم وهي متصلةبجبل لبنانوباقليم يعرف بأقليم حريز(٣٧٩)وفيه مجرى وادي الجر وهو مشهور بالخصب وكثرة(٣٨٠) الفواكه واقليم الشرية(٣٨١) وهو اقليم جليل واقليم كفر قيلا(٣٨٢)واقليم الرامي وهو نهر يشق جبالها ويصب الى البحر وجميع هذه الاربعة الاقاليم تشتمل على نيف وستماية ضيعة وشرب أهلها من ماء يجري اليها من جبلها في قناة](٣٨٣) وبهذه المدينة اعني صيدا عينها(٣٨٤) المعروفة (وذلك(٣٨٥) انه ينشأ بها وفي ايام الربيع سميكات على طول الاصبع سواء منها الذكور)(٣٨٦) او الاناث(٣٨٧)ولها علامات تعرف بها إناثها وذكورها فاذا كان وقت سفادها اخذت (٣٨٨) صيداً ثم تجفف فاذا احتيج اليها اخذت منها واحدة فتسحق(٣٨٩)(وتسف)

بالماء فان الرجل ينعظ انعاظا(٣٩٠)قويا ويجامع ماشاء ولا يصيبه عن ذلك عجز ولا فتور . وهذه السميكات صغار على هيئة الوزغ (لها ايد وارجل صغار خفيفة وقد رأيناها غير ما مرة) (٣٩١) .

ومن صيدا الى الحمة(٣٩٢)وهو حصن على البحر ثمانية اميال ومنه الى حصن القلمون(٣٩٣) على البحر خمسة(٣٩٤) اميال [وهذا الحصن على قنطرة والقنطرة على واد وهي عريضة جداً وقد بني الحصن عليها وهو حصن منيع في عطفه جون](٣٩٥) ومنه الى حصن الناعمة وهو كالمدينة الصغيرة سبعة اميال [والناعمة مدينة حسنة واكثر نبات ارضها شجر الخرنوب الذي لا يعرف بمعمور(٣٩٦) الارض مثله قدرا ولا طيبا(٣٩٧) ومنها(٣٩٨) يتجهز(٣٩٩) به الى الشام والى ديار مصر واليها(٤٠٠) ينسب الخرنوب الشامي أما وان كان الخرنوب في الشام طيب(٤٠١) فهو بالناعمة اكثر واطيب] (٤٠٢) ومن حصن الناعمة الى طرف بيروت اربعة وعشرون ميلا [ومدينة بيروت ايضاً مدينة(٤٠٣) على ضفة البحر الملح (٤٠٤) عليها سور حجارة كبيرة واسعة ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد جيد(٤٠٥) يقطع(٤٠٦) ويستخرج منه الكثير ويحمل الى جميع(٤٠٧) بلاد الشام ولها(٤٠٨) غيضة اشجار صنوبر مما يلي جنوبها تتصل الى جبل لبنان وتكسيرهذه الغيضة اثنا عشر ميلا في مثلها وشرب اهلها من الآبار](٤٠٩) ومنها الى دمشق يومان . ومن مدينة بيروت الى حصن المرداسية(٤١٠) ثمانية اميال ومنه الى(٤١١) نهر الكلب ستة اميال وهو(٣١٢) على البحر حصن صغير ومنه الى جونية (٤١٣) اربعة اميال (وجونية حصن كبير على البحر واهل(٤١٤) هذا الحصن (٤١٥) نصارى يعاقبة) (٤١٦) ومنه الى عطفة سلام (وهو جون كبير طوله (٣١٧) عشرة اميال) (٤١٨) ومنه الى ماحوز(٤١٩) جبيل وهو حصن حصين ثم الى موقع نهر ابراهيم ثلاثة اميال ومن النهر الى مدينة جبيل خمسة اميال (وهي مدينة حسنة على البحر لها سور من حجر حصين ولها كورة واسعة واشجار(٤٢٠) وفواكه وكروم وليس لها ماء جار وانما (٤٢١) يشرب اهلها من مياه الابار وبها ارساء وحط)(٤٢٢) ومن مدينة جبيل على البحر الى حصن بثرون عشرة اميال وهو حصن حسن ومنه الى

انف الحجر(٤٢٣) على البحر خمسة اميال ومن حصن انف الحجر الى مدينة طرابلس الشام ثمانية اميال [ومدينة طرابلس الشام مدينة عظيمة عليها سور من حجر منيع ولها بساتين(٤٢٤) واكوار وضياع جليلة وبها شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وانواع الفواكه وضروب الغلات(والوارد والصادر اليها كثير)(٤٢٥) والبحر يأخذها من ثلاثة وجه وهي معقل من معاقل الشام مقصود اليها بالامتعة وضروب(٤٢٦) الغلات(٤٢٧) وصنوف التجارات ويضاف اليها عدة (٤٢٨) حصون وقلاع معمورة(٤٢٩) داخلة في اعمالها(٤٣٠)مثل انف الحجر المتقدم ذكرها وحصن القلمون وحصن ابي العرس(٤٣١) وارموسية ولها من امهات الضياع المشهورة المذكورة اربعة فمنها القرية(٤٣٢) المعروفة بالشقيقة(٤٣٣) — والزيتورية(٤٣٤) والراعبية (٤٣٦) والحدث واميون وبها من شجر الزيتون وانواع الفواكه (اكثر مما في غيرها) (٤٣٧) ومنها من جهة الجنوب حصن بناه ابن سهيل(٤٣٨) الافرنجي ومنه افتتح(٤٣٩) أطرابلس وبينهما اربعة اميال وهو حصن منيع جداً وهو بين واديين](٤٤٠) ويقابل أطرابلس اربع جزائر في صف فأولهامما يلي . البر جزيرة النرجس(٤٤١) (وهي صغيرة خالية) (٤٤٢) ويليها(٤٤٣) جزيرة العمد ثم تليها جزيرة الراهب ثم تليها(٤٤٤) جزيرة اوذكون(٤٤٥) . ومن مدينة طرابلس على الساحل الى رأس الحصن (وهو مدينة صغيرة عامرة آهلة) (٤٤٦) وهي على طرف جون(٤٤٧) وهذا الجون طوله(٤٤٨) روسية خمسة عشر ميلا وتقديرا مع الساحل ثلاثون ميلا ويسمى جون عرقة(٤٤٩) وفي وسط هذا الجون ثلاثة حصون تتقارب بعضها من بعض احدها مما يلي : طرابلس نويدروس(٤٥٠) والآخرباسميه (٤٥١) وهو على نهر جار يسمى باسية(٤٥٢) (الحصين) (٤٥٣) والثالث [يسمى حصن الحمام (وهي تتقارب بعضها من بعض) (٤٥٤) ومنه الى عرقة (٤٥٥) وهي مدينة عامرة (بالخلق (٤٥٦) حسنة في سفح جبل قليل العلو وسطها حصن على قلعة عالية ولها ربض كبير وهي عامرة بالخلق) (٤٥٧) كثيرة(٤٥٨) التجارات واهلها مياسير وشربهم من ماء يأتيهم من قناة(٤٥٩) مجلوبة من نهرها . ونهرها جار ملاصق لها وبها بساتين كثيرة وفواكه وقصب سكر (وبها مطاحن على نهرها المتقدم ذكره)(٤٦٠) وبينها وبين البحر ثلاثة اميال (حصنها كبير وعيش)(٤٦١) اهلها خصيب رغد وبناؤها بالجص والتراب(والخير بها

كثير](٤٦٢) واما(٤٦٣) ارض حمص(٤٦٤) فان مدينتها حمص [وهي مدينة حسنة في مستو من الارض وهي عامرة بالناس والمسافرون يقصدونها(٤٦٥) بالامتعة والبضائع (٤٦٦) من كل فن واسواقها قائمة ومسرات(٤٦٧) اهلها دايمة(٤٦٨) وخصبهم رغد (ومعايشهم رخيصة) (٤٦٩) وفي نسائهم جمال وحسن بشرة (٤٧٠) وشرب اهلها من ماء يأتيهم(٤٧١) من قناة من قرية تعرف بجوسمية(٤٧٢) والمدينة منها على مرحلة مما يلي دمشق ونهر الارنط(٤٧٣) المسمى المقلوب يجري على بابها بمقدار رمية سهم او اشف(٤٧٤) قليلا ولهم عليه قرى متصلة وبساتين واشجار وانهر(٤٧٥) كثيرة .ومنها تجلب الفواكه الى المدينة وكانت في مدة الاسلام من اكثر البلاد كروما فتلف(٤٧٦) اكثرها وثراها اطيب للزراعات واقنى(٤٧٧) للغلات واهواؤها اعدل من(٤٧٨) هواء يكون بمدن الشام] (٤٧٩) وهي مطلسمة لا تدخلها حية ولا عقرب(٤٨٠) ومتى دخلت على باب المدينة هلكت في الحال (٤٨١) . وبها على القبة العالية الكبيرة(٤٨٢) التي في وسطها صنم نحاس على صورة الانسان الراكب يدور مع الريح حيث (٤٨٣) دارت . وفي حائط القبة حجر عليه صورة عقرب فاذا جاء انسان ملدوغ او ملسوع (٤٨٤ طبع في ذلك الحجر الطين الذي يكون معه ثم يضع الطين على اللسعة فتبرأ للحين [وجميع ازقتها مفروشة بالحجر الصلد وزراعتها(٤٨٥) مباركة كثيرة وزروعها(٤٨٦) (تكفي باليسير من المطر)(٤٨٧) او السقي وبها مسجد جامع كبير اكبر جوامع(٤٨٨) الشام] (٤٨٩) ومن مدينة حمص الى حلب خمس(٤٩٠) مراحل(٤٩١) ومن حمص الى انطرسوس على البحر مرحلتان والطريق من عرقة الى انطرسوس على الساحل تخرج من مدينة عرقة الى الحصن المسمى (شبخ) (٤٩٢) ثم الى مدينة انطرسوس (وهي في آخر) (٤٩٣) جون كبير وعلى اكثره جبال ممتدة(٤٩٤) ويقطع هذا الجون روسية خمسة عشر ميلا (ومدينة انطرسوس مدينة صغيرة على البحر لها سور وحصن على مقربة منها في البحر جزيرة (ارواد) (٤٩٥) وهي جزيرة كبيرة تقابل مدينة مرقية وهي على الساحل البحر وبينها وبين جزيرة ارواد نحو رميتي من قوس . وهذه الجزيرة فتحت من ايدي الافرنج(٤٩٦) في ايام الملك الناصر بن قلاوون وهي اليوم لا عامر بها وكذلك خلت

مدينة مرقية فانتقل اهلها الى الجبل خوفا من الافرنج وهي اليوم خلاء باقع(٤٩٧) غير ان بيوتها ودورها عامرة الى الآن وكذا معصرة السكر الذي خارجها من جهة الشرق](٤٩٨) ومدينة انطرسوس مدينة صغيرة على البحر لها سور(٤٩٩) حصين وعلى مقربة منها في البحر (جزيرة ارواد وهي) (٥٠٠) جزيرة كبيرة فيها كنيسة كبيرة [معمورة متقنة البناء] (٥٠١) شاهقة منيعة ذات ابواب حديد وهي كالمحرس) (٥٠٢) ومن انطرسوس من جهة الجنوب في البر الى حصن الخوابي على اعلى الجبل خمسة عشر ميلا [وهذا الحصن منيع واهله حشيشية(٥٠٣) خوارج عن(٥٠٤) الاسلام لا يعتقدون شيئا(٥٠٥) من البعث ولا القيامة من بعد الموت لعنوا(٥٠٦) بمذهبهم . وانطرسوس فرضته حمص] (٥٠٧) ومن حمص الى دمشق خمس مراحل وكذلك من اطرابلس الشام الى دمشق خمس مراحل والطريق من دمشق الى مدينة يثرب ، تخرج من دمشق الى منزل على نهر صغير ومنه الى درعة(٥٠٨) مرحلة ومنه الى ذات المنازل(٥٠٩) وهي قرية عامرة ومنه الى تبوع(٥١٠) مرحلة ومنه الى البثنية مرحلة ومنه الى دمنة(٥١١) مرحلة وهي قرية (عامرة) (٥١٢) ومنها الى مدينة تبوك ثم الى المحدثة ثم الى الاقرع ثم الى الحنيفية ثم منها (٥١٣) الى الحجر مرحلة وهو حصن منيع بين جبال (٥١٤) في ديار ثمود [ومنه الى وادين (٥١٥) بلد صغير على نهر صغير](٥١٦) ومنه الى الرحبة ثم الى ذى المروة(٥١٧)ثم الى المر ثم(٥١٨)الى السويدا(٥١٩) ثم الى ذى خشب ثم الى المدينة يثرب . والطريق من دمشق الى الرقة نحو من ثماني عشرة مرحلة [والشام أتم بجملة(٥٢٠) بلاد واكوار مثل بلاد فلسطين التي منها اطباق . والقدس وكورة عمواس(٥٢١) وكورة لد وكورة بيتا(٥٢٢) وكورة يافا وكورة قيسارية وكورة نابلس وكورة سبسطية(٥٢٣)وكورة عسقلان وكورة غزة وكورة بيت جبرين . وفي جنوب (هذه البلاد) (٥٢٤) فحصن التيه وهي الارض التي هام فيها(٥٢٥) بنواسرائيل اربعين(٥٢٦) سنة لم يدخلوا مدينة ولا آووا الى بيت ولا بدلوا ثوبا ولا ازداد احد منهم في قدره وطول هذا الحصن الذي (هو اول) (٥٢٧) ارض التيه نحوا(٥٢٨) من ستة ايام . ويلي كورة فلسطين من(٥٢٩) كور المشرق كورة الاردن واكبر بلادها مدينة

طبرية ومنها اللجون وفيها كورة السامرية وهي نابلس وبيسان واريحا(٥٣٠) وزغر(٥٣١) وعمتا(٥٣٢) وخنس(٥٣٣) وجردايل(٥٣٤) وسوسنة(٥٣٥) ومموينه(٥٣٦) وكورة عكا وكورة الناصرة(٥٣٧) وكورة صور ويليها من جهة المشرق ارض دمشق ومن كورها الغوطة وارض بعلبك(٥٣٨) والبقاع وارض(٥٣٩) لبنان وكورة حولة وكورة اطرابلس وكورة جبيل وكورة بيروت وكورة صيدا وكورة البثنية وكورة جول وكورة جولان وكورة ظاهرة(٥٤٠)وكورة البلقاء وكورة جبرين(٥٤١) الغور وكفر طاب وكورة عمان وكورة الشراة وبصرا والجابية . ويلي هذه(٥٤٢) الارض من جهة المشرق ارض البادية ويليها من ناحية الجنوب ارض السماوة وارض عاد . ويلي ارض دمشق ارض العواصم وارض قنسرين (وسنذكرها ايضاً في امكنتها)(٥٤٣) ومدينة دمشق قطب ومدار لمدنها والى بعلبك مرحلتان ومنها الى حمص خمسة ايام ومن دمشق الى طبرية اربع مراحل ومن دمشق الى اطرابلس على بحر الروم مسيرة (٥٤٤) خمسة ايام . ومن دمشق الى اقصى الغوطة يوم وهناك تتصل بطرق البادية . ومن دمشق الى بيروت يومان ومن [دمشق الى صيدا يومان] (٥٤٥) ومن دمشق الى اذرعات وهي البثنية اربعة ايام ومن دمشق الى الجول (٥٤٦) يومان . والشام اول طوله من ملطية الى رفح . والطريق من ملطية الى (٥٤٧) منبج (٥٤٨) وبينهما (٥٤٩) أربع مراحل (٥٥٠) ومن منبج(٥٥١)الى حلب يومان (ومن حلب)(٥٥٢) الى حمص خمسة ايام ومن حمص الى دمشق خمسة ايام ومن دمشق الى طبرية اربعة ايام ومن طبرية الى الرملة ثلاثة ايام ومن الرملة الى رفح(٥٥٣) يومان فذلك خمس وثلاثون مرحلة . (وهنا انتهى ذكر هذا الجزء من هذا الاقليم والحمد لله كثيرا كما هو اهله والصلاة والسلام على سيد المرسلين) (٥٥٤) .

(١) تضاف (حدود) في OX ، ٢١ ، وذلك بعد (وأما)
(٢) وهي OX
(٣) اقل ٢٢ ، OX ، وذلك بعد أول
(٤) المغرب OX ، الغرب ٢٢
(٥) لربعه OX ، ٢٢
(٦) الحون م ، الحون OX
(٧) عرضه ٢١ ، م
(٨) يريحا ٢٢ ، ريحا OX ، حريحا ٢١
(٩) زعرا ٢٢ ، OX ، زغرا ٢١
(١٠) الميته ٢١
(١١) ما بين القوسين سقطت من ص والزيادة من ٢١ وOX ، والزيادة هي(وجبال الشراة مضمومة اليه منها في العمل الى حدود ايلة وديار قوم لوط) .
(١٢) زعرا ٢١ ، زعر OX
(١٣) فتنحدر OX
(١٤) نهراً OX ، زخاراً ٢٢
(١٥) الى أول ٢٢ ، ٢١
(١٦) الحدن ٢١
(١٧) فأنهار OX
(١٨) لا براهيم OX
(١٩) لكل منهما ٢٢ ، الكل منها OX
(٢٠) زعرا OX ، ٢١ ، ٢٢
(٢١) عامورا ٢٢ ،OX ، غامور ٢١
(٢٢) لقوم ٢٢
(٢٣) ميتة ٢٢
(٢٤) وقد سقطت الجملة من (عامورا وهما كانتا ... الى وسميت بالبحيرة الميتة) من ٢١ .
(٢٥) قبل ما ٢١
(٢٦) فيكون ٢٢ ، يتكون ٢١
(٢٧) حار OX ، ٢١
(٢٨) فيها ٢٢ ، OX
(٢٩) صنوف ٢٢ ، فنون OX ، م
(٣٠) زغرا م ، زعرا ٢٢ ، OX
(٣١) ما بين القوسين (وصنوف الثمر .. اعمال الغور) سقط من ص
(٣٢) اثنى عشر ٢٢
(٣٣) ريجا ٢١

(٣٤) زعرا OX ، زغره ٢٢
(٣٥) زعرا OX ، زغرا ٢٢
(٣٦) سقطت العبارة (ومن جبال الشراة) من OX ، والزيادة من ص
(٣٧) ريحـــا ٢١
(٣٨) سقطت العبارة (ومن اريحا .. والبلقاء يومان) من ص
(٣٩) ريحـــا ٢١
(٤٠) بقاع ٢٢
(٤١) غلات ٢١ ، غلة ٢٢
(٤٢) الهليلج ٢١ ، العيلج OX
(٤٣) العبارة التي بين القوسين (واهله سمر بل هم ..) وزيادة في م
(٤٤) الجى م ، OX ، الحنى ٢١
(٤٥) صغير ، م ، OX ، صغيرا ٢٢
(٤٦) هواوه OX ، ٢٢
(٤٧) الذي ٢١ ، ٢٢ ، م
(٤٨) تعمل ٢١ ، ٢٢ ، م
(٤٩) ماوه OX
(٥٠) بعد الرحلة كلمة فهي ، OX ، فمبنى ٢١
(٥١) يدخل ٢٢
(٥٢) الملح من ٢١
(٥٣) العبارة التي بين القوسين سقطت من ص ، و ٢٢
(٥٤) به ٢١
(٥٥) جلس OX
(٥٦) بيت اهل ٢٢
(٥٧) مما ٢٢ ، مـــا OX
(٥٨) الجفار في ٢١
(٥٩) العبارة التي بين القوسين (واريحا المذكورة من اجل ... وبينهما من الاميال ثلاثون ميلا) سقطت من ص و OX
(٦٠) العبارة التي بين القوسين (وهي الآن عامرة .. غزة ميناه) سقطت من ص
(٦١) تيمان OX ، ميسان ٢١ ، بيسان ٢٢
(٦٢) حذفت في ٢٢ ، و م
(٦٣) متفرقة المباني في OX ، و ٢٢
(٦٤) اهلها في OX
(٦٥) اثمار في ٢٢ ، آثار في OX
(٦٦) ايضا في OX ، ٢١ ٢٢

(٦٧) ملى ريحا OX
(٦٨) بردود ٢١ ، الوارد ٢٢
(٦٩) ما بين القوسين (الى الفرما .. شيءٌ من الشجر) زيادة في ٢٢
(٧٠) رفخ ٢١
(٧١) العبارة التي بين القوسين (والعريش مدينة كانت ذات جامعين .. مرحلة ومنها الى العريش) سقطت من ص
(٧٢) الوراده في OX ، وفي ٢١
(٧٣) عبارة قرب البحر سقطت من ٢١
(٧٤) (لا بها) في ٢١
(٧٥) مغروزة في OX
(٧٦) وسراة في OX ، ومسراة في ٢٢
(٧٧) وسراة في OX ، ٢٢
(٧٨) ادراج في OX ، م ، ادرح في ٢١
(٧٩) سكانها من قيس م ، و في ٢١
(٨٠) قرنة موته في OX ، قرية موزه في ٢٢
(٨١) شعبي ٢٢ ، ٢١
(٨٢) المرجب في OX
(٨٣) عين في OX
(٨٤) فيا في OX
(٨٥) متباعدتين في ٢٢
(٨٦) وذلك في م
(٨٧) ان يكون في ٢١
(٨٨) انسان ان يكلم انساناً في OX
(٨٩) بعضهما بعضاً فينزل في ٢١ ، ٢٢
(٩٠) العبارة التي بين القوسين (وأما مدينة عسقلان فهي مدينة .... يصعد ستة اميال) سقطت من ص
(٩١) المتقدم سقط من ص
(٩٢) الماخوز في ٢١
(٩٣) يقابله في ٢١ ، م
(٩٤) جريل في OX
(٩٥) وهما في م ، ٢١
(٩٦) البنا في OX ، ٢١
(٩٧) وهذه ٢١ ، OX
(٩٨) باب محذوفة في م
(٩٩) تسمى في OX

(١٠٠) عمود محذوفة في OX
(١٠١) الباب ٢١ ، ص
(١٠٢) رقاع في م
(١٠٣) القيامة في م ، OX ، ص
(١٠٤) المسلمين في OX
(١٠٥) كلمة في من OX ، م ، ٢١
(١٠٦) داخل في م
(١٠٧) تشتمل في ٢١
(١٠٨) أحد في م
(١٠٩) ثلثين في ٢١ ، و OX
(١١٠) شنت في ٢١ ، م
(١١١) مريه في OX ، ٢١
(١١٢) معفرة في OX
(١١٣) تشييدها في ٢١
(١١٤) شنت ٢١ ، م
(١١٥) مريه في OX
(١١٦) الآخر في OX ، م ، ٢١
(١١٧) فبتنار في م ، قيتناد في ٢١ ، قبتنار في ص
(١١٨) العبارة التي بين القوسين (ويسمى باب .. الشرق) سقطت من ص
(١١٩) سقطت كلمة كبيرة من ص
(١٢٠) ما بين القوسين (تلقاء المقبرة المقدسة) محذوفة في ص
(١٢١) الجنس في م
(١٢٢) حبس في م
(١٢٣) قوره في م
(١٢٤) وبها دارها في OX ، م
(١٢٥) وبها دار في ٢١
(١٢٦) مصورو في OX
(١٢٧) ثلثه في ٢١ ، و OX ، ثلاثة في م
(١٢٨) الفيت في م ، وقد حذفت هذه الكلمة في OX
(١٢٩) تبناه في ٢١ ، OX
(١٣٠) سليمن في م
(١٣١) عليه السلام محذوفة في OX
(١٣٢) المسجد في OX ، ٢١
(١٣٣) بالاقصى في ٢١

(١٣٤) عندهم في OX ، ٢١
(١٣٥) على قدره في OX ، ٢١
(١٣٦) المعظم في OX
(١٣٧) ديار في ٢١
(١٣٨) يذكره في OX
(١٣٩) مسقف في OX
(١٤٠) العبارة التي بين القوسين (وصحن المسجد .. جامع قرطبة) سقطت من ص
(١٤١) محرا في OX
(١٤٢) باقيا في OX
(١٤٣) كثير في م
(١٤٤) فيه في م
(١٤٥) الصخر في م
(١٤٦) العبارة التي بين القوسين (وهذه القبة مرصعة ... المسماة بالواقعة) سقطت من ص ، وفيOXالرافقة بدل الواقعة .
(١٤٧) مرتفع في OX
(١٤٨) يكون في م
(١٤٩) معظم في OX
(١٥٠) هذه في ٢١ ، بهذه في OX
(١٥١) الكنيسة في ٢١
(١٥٢) عبارة (من ايدي المسلمين) زيادة من OX
(١٥٣) بقيت في OX
(١٥٤) وقت من ٢١
(١٥٥) الكتب في م
(١٥٦) المعرفون في OX
(١٥٧) بالزاوية في م ، الدواويه في OX
(١٥٨) مظفورة في ٢١
(١٥٩) بابرع في م ، ٢١ ، بانواع في OX
(١٦٠) الغدا في OX ، الغذاء في ٢١
(١٦١) للقشيين في OX
(١٦٢) المدرجين في OX
(١٦٣) يتصل في OX ، فتصل في م
(١٦٤) المغلوق ٢١ ، المغلق في OX
(١٦٥) كبيرة سقطت من م
(١٦٦) ينصر في OX، بنصر في ٢١

(١٦٧) كلمة باب من OX ، و ٢١

(١٦٨) وفي سقطت من OX

(١٦٩) محبوسين في OX

(١٧٠) كلمة شرقي في ٢١

(١٧١) منحرفاً في ٢١

(١٧٢) مهند القادر في OX

(١٧٣) السيد في ٢١

(١٧٤) المسيح في OX

(١٧٥) جيل في OX

(١٧٦) جلب في ٢١ ، حلب في OX

(١٧٧) المسيح في OX

(١٧٨) الطريقة الى في OX

(١٧٩) كلمة بين في OX

(١٨٠) كلمة بيت حذفت في OX

(١٨١) ثلثه في OX ، ثلاثة في ص

(١٨٢) الواد في م ، الوادي في ٢١

(١٨٣) شيت في OX ، شنت في م

(١٨٤) سكنها في ص

(١٨٥) عباد في م

(١٨٦) الاغرين في OX

(١٨٧) شادوم في ٢١

(١٨٨) عامور في OX

(١٨٩) العبارة التي بين القوسين (اللتين كانتا .. بذنوب اهلها) سقطت من ص

(١٩٠) مايه في OX

(١٩١) تنزل في ٢١

(١٩٢) طريق في م

(١٩٣) السلوان في ٢١

(١٩٤) وبقربها في OX ، وفي ٢١

(١٩٥) فبينه في OX

(١٩٦) كلمة القدس من OX ، و ٢١ ، م

(١٩٧) بنيامين في OX

(١٩٨) عليهما في OX

(١٩٩) أبصر في OX

(٢٠٠) العبارة التي ما بين القوسين (من جهة المغرب) سقطت من ص

(٢٠١) مليحة في ص
(٢٠٢) بها في OX ، وفيها في م
(٢٠٣) (السيد المسيح) زيادة في م
(٢٠٤) المذود في ص
(٢٠٥) وإذا في ص
(٢٠٦) المليكة في ص
(٢٠٧) الرعات في ص
(٢٠٨) المسيح زيادة في م
(٢٠٩) ممدنه في ص
(٢١٠) عليهم السلام سقطت من ص
(٢١١) امرأته في OX ، صاحبه في ٢١
(٢١٢) وهذه في ٢١
(٢١٣) جبلين في م ، جبال في ص
(٢١٤) كلمة اعني في ٢١
(٢١٥) الجبيز في ٢١
(٢١٦) بشمال في ص
(٢١٧) كلمة مدينة زيادة في ص
(٢١٨) كلمة مدينة زيادة في ص
(٢١٩) بابلس في ص
(٢٢٠) العبارة التي بين القوسين(ومن بيت المقدس .. يوم كبير)سقطت من ص ، وكذلك سقط منOX ، ومن ٢١
(٢٢١) الطبرية في ٢١
(٢٢٢) أفيق في ٢١ ، وابلق في م
(٢٢٣) نحو في ٢١
(٢٢٤) عمثا في ٢١ ، عنباط في م
(٢٢٥) العبارة التي بين القوسين (ومنها الى بيسان بعض يوم) زيادة في OX
(٢٢٦) كلمة وطبرية من OX
(٢٢٧) الغرب في OX ، المشرق في م
(٢٢٨) صور في OX
(٢٢٩) نار في OX ، وفي ٢١
(٢٣٠) توقد في OX ، وفي ٢١
(٢٣١) فهي في ٢١ OX
(٢٣٢) حارة في OX ، حماه في ٢١
(٢٣٣) الدماقر في OX

(٢٣٤) وطينه في ٢١
(٢٣٥) الجدا في OX ، وفي ٢١
(٢٣٦) الديناقر في OX ، الدمامز في ٢١
(٢٣٧) العبارة التي بين القوسين (وهذا الماء الحار ... حار عذب)زيادة في OX
(٢٣٨) كلمة جعل سقطت من OX
(٢٣٩) الى الناس في OX
(٢٤٠) كلمة فهم سقطت من OX
(٢٤١) بلا نار في ٢١ ، بالنار في OX
(٢٤٢) مرتعين في OX
(٢٤٣) الشرق في OX
(٢٤٤) تصب في OX
(٢٤٥) المرياجين في OX
(٢٤٦) ثلثه في ٢١
(٢٤٧) ارسوب في OX
(٢٤٨) هن في ٢١
(٢٤٩) وبها في OX ، وفي ٢١
(٢٥٠) لبيت في OX ، وفي ٢١
(٢٥١) ثلث في ٢١ ، وفي OX أيضاً
(٢٥٢) الكلام الذي بين القوسين (وبها مراكب سابحة تحمل .... وبين يافا والرملة عشرون ميلا) سقط من ص
(٢٥٣) لها في OX
(٢٥٤) عظيم في OX
(٢٥٥) انتهى من الأصل
(٢٥٦) كرم الطرفا في OX ، وفي ٢١ كرما
(٢٥٧) المسطيل في OX
(٢٥٨) الطبرية في OX
(٢٥٩) عكه في ٢١
(٢٦٠) ناس شتى في OX
(٢٦١) فمن طبرية الى عكا في ٢١
(٢٦٢) الملح سقط من ص
(٢٦٣) ثلثه في ٢١ ، ثلاثة في م
(٢٦٤) شاهقة في ص
(٢٦٥) ضفة سقطت من OX
(٢٦٦) اسكندرية في ص

(٢٦٧) الكلام ما بين القوسين (وبها للمراكب ارساء ... البلاد المحيطة بها) سقط من ص والزيادة من
(٢٦٨) البحر في ص وفي OX ، وفي ٢١
(٢٦٩) الكلام ما بين القوسين (ومن مدينة صور .. كبيران) سقط من ص والزيادة من ٢١
(٢٧٠) أيام سقطت من ص
(٢٧١) اشمخها من OX ، م
(٢٧٢) طروع في OX
(٢٧٣) المرة في OX
(٢٧٤) داريا في م ، OX ، وديارها في ص
(٢٧٥) فردا في OX ، فردا في ٢١ ، ص
(٢٧٦) حرشه في م ، حرشفة في OX
(٢٧٧) كوكيا في OX
(٢٧٨) يلاس في ٢١ ، وفي م
(٢٧٩) سرسنة في م ، شرشنة في OX
(٢٨٠) الاهرار في OX
(٢٨١) وادي البنفسج في ٢١ ، وادي بنفسج في OX
(٢٨٢) اثني في OX وفي م
(٢٨٣) مغروس سقطت من ٢١
(٢٨٤) تشقه في OX ، م ، ٢١
(٢٨٥) وبقى في OX
(٢٨٦) انهار واشجار في OX
(٢٨٧) يليق في OX
(٢٨٨) به في ٢١
(٢٨٩) تمتيل في OX
(٢٩٠) كثيرة في OX
(٢٩١) اتره في OX
(٢٩٢) الكلام بين القوسين (ويكون في كل ... بلاد الله من خارج) سقط من ص والزيادة من OX
(٢٩٣) انجارنه في OX
(٢٩٤) اعلى ٢١ ، م
(٢٩٥) ينتهي الى المدينة سقط من ٢١ ، والزيادة من OX
(٢٩٦) بريد في ٢١ ، يزيد في م
(٢٩٧) نورة في ٢١
(٢٩٨) باباس في م ، باياس في OX
(٢٩٩) تسقط في OX
(٣٠٠) عادية في OX ، وفي ٢١ ، وفي م

(٣٠١) بمشروب منه في ٢١ ، OX ، م
(٣٠٢) مضعات في OX ، مصفات في م ، معبقات في ٢١
(٣٠٣) وأوزار غسالاتها في ٢١ ، م فاودار عمالاتها في OX
(٣٠٤) يجتاز في ٢١ ، م
(٣٠٥) لساير في OX
(٣٠٦) اسواق في OX ، م ، سواقي في ٢١
(٣٠٧) امعواقما في OX
(٣٠٨) صفة في OX
(٣٠٩) احكاماً في م ، ٢١ ، امكاناً في OX
(٣١٠) تلميعاً في OX ، ٢١ ، ص
(٣١١) الفص في م ، الفصفص في ٢١ ، الفصوص في OX
(٣١٢) العبارة بين القوسين (وهو في مربعة تعرف بالميزاب)زيادة من OX
(٣١٣) جيرون في ٢١
(٣١٤) المستفمين في OX ، النقيس في م ، البغيين في ٢١
(٣١٥) مدخله في OX ، م
(٣١٦) فمنه في ٢١ ، فمنها في م
(٣١٧) الجرار في م
(٣١٨) الصابيه في OX
(٣١٩) صار في OX
(٣٢٠) فكانوا في OX ، وكانوا في ٢١
(٣٢١) يعظمون فيه في OX ، ٢١
(٣٢٢) نصبت في ٢١ ، ثبت في OX ، فنصب في م
(٣٢٣) فضبطته سقطت من ٢١
(٣٢٤) ملكاً زيادة من م
(٣٢٥) يعظمون في OX ، يقيمون في م
(٣٢٦) به في ٢١
(٣٢٧) فصار لهم في م
(٣٢٨) فلما في ٢١ ، م
(٣٢٩) رخاماً في ٢١ ، م
(٣٣٠) رويس في ، روس في م ، ٢١
(٣٣١) مرصعة في OX ، وفي ٢١
(٣٣٢) مكتماً في OX ، مكتياً في م
(٣٣٣) ترابيع في م
(٣٣٤) جدار في م ، جدران في ٢١

(٣٣٥) مذهبا في ٢١
(٣٣٦) تنسيق في م ، تنميق في OX
(٣٣٧) حصر في م و ٢١ ، حصن في OX
(٣٣٨) فمتى في م ، و في ٢١ ، فما في OX
(٣٣٩) ما بين القوسين (وغسل جميع صحنه باهون سعي) زيادة من OX
(٣٤٠) ستتين في OX
(٣٤١) فانما في OX ، وانما في ٢١
(٣٤٢) القديم في OX
(٣٤٣) موضعها في ٢١ ، فتح ايله في OX
(٣٤٤) فوضع في ٢١
(٣٤٥) في OX زيادة أيضاً
(٣٤٦) الفراديس زيادة في OX
(٣٤٧) ودير مران يقابله زيادة في م
(٣٤٨) فالباب الصغير في OX
(٣٤٩) ما بين القوسين (وعرض الارض ... خمسة انهار) زيادة في م
(٣٥٠) كالخز في OX ، ٢١ ، م
(٣٥١) الثمن في ص ، OX ، ٢١
(٣٥٢) كلمة الكل سقطت من OX
(٣٥٣) ديباجة في OX
(٣٥٤) دشق في OX
(٣٥٥) طرز لينابور في OX
(٣٥٦) حسن في OX
(٣٥٧) ما بين القوسين (ومصانعها في كل ذلك ... ولا يقاومها مثال) الزيادة من
(٣٥٨) ما بين القوسين (فلا يوجد بغيرها) زيادة من ٢١
(٣٥٩) ما بين القوسين (واهلها في خصب واتصال أمن) زيادة من OX
(٣٦٠) اعز في OX ، ٢١ ، م
(٣٦١) عبارة (واكملها حسناً) زيادة في ٢١ ، م ، و OX
(٣٦٢) شبراً في ٢١ ، م
(٤٦٣) الاسعار في ٢١ ، و OX ، م
(٣٦٤) لشماختها في ٢١
(٣٦٥) ووثاقيتها سقطت من ٢١ ، والزيادة من OX ، م
(٣٦٦) الصغير والكبير في ٢١ ، م
(٣٦٧) عليه السلام ، سقطت في OX ، وفي ص
(٣٦٨) أقل واكثر في OX ، أقل في م

(٣٦٩) منه في ٢١
(٣٧٠) شاهقة في OX ، م ، ٢١
(٣٧١) اكثره في ٢١ ، OX ، م
(٣٧٢) الكلام بين القوسين (مياه الغوطة الجارية بها تخرج ... ...وفي هذه المدينة من البناء كل شيء عجيب)
سقط من ص
(٣٧٣) البثينية في ص
(٣٧٤) ما بين القوسين (ومن مدينة دمشق ... مراحل غرباً) سقط من م
(٣٧٥) فأما في ص
(٣٧٦) الملح في ٢١ ، م
(٣٧٧) وعليها في OX ، ٢١
(٣٧٨) وهي تنسب في ٢١
(٣٧٩) حرير في م ، جريز في OX
(٣٨٠) الكثير في م ، كثير في ٢١
(٣٨١) الشرية في ٢١ ، الشويه في م
(٣٨٢) قيلا في OX ، قبلا في م
(٣٨٣) الكلام بين القوسين (عليها سور حجارة ... من جبلها في قناة) سقط من ص
(٣٨٤) عليها في OX
(٣٨٥) كذلك في OX
(٣٨٦) ما بين القوسين «(وذلك ان ينشأ ... منها الذكور) زيادة في م
(٣٨٧) ذكور واناث في ص
(٣٨٨) اخذت في OX
(٣٨٩) فتسحق في م ، وفي OX
(٣٩٠) انعاطاً في OX
(٣٩١) ما بين القوسين (لها ايد وارجل .. غير مامرة) سقط من ص
(٣٩٢) الجمة في OX ، وفي ص ، الجية في ٢١
(٣٩٣) القاون في OX
(٣٩٤) ستة في OX
(٣٩٥) ما بين القوسين (وهذا الحصن ... عطفة جون) سقط من ص
(٣٩٦) في معمور في ٢١
(٣٩٧) طيب في م
(٣٩٨) منه في ٢١
(٣٩٩) يتجهز به في OX ، ٢١ ، م
(٤٠٠) اليه في ٢١
(٤٠١) طيب في م ، كثيراً طيباً في ٢١

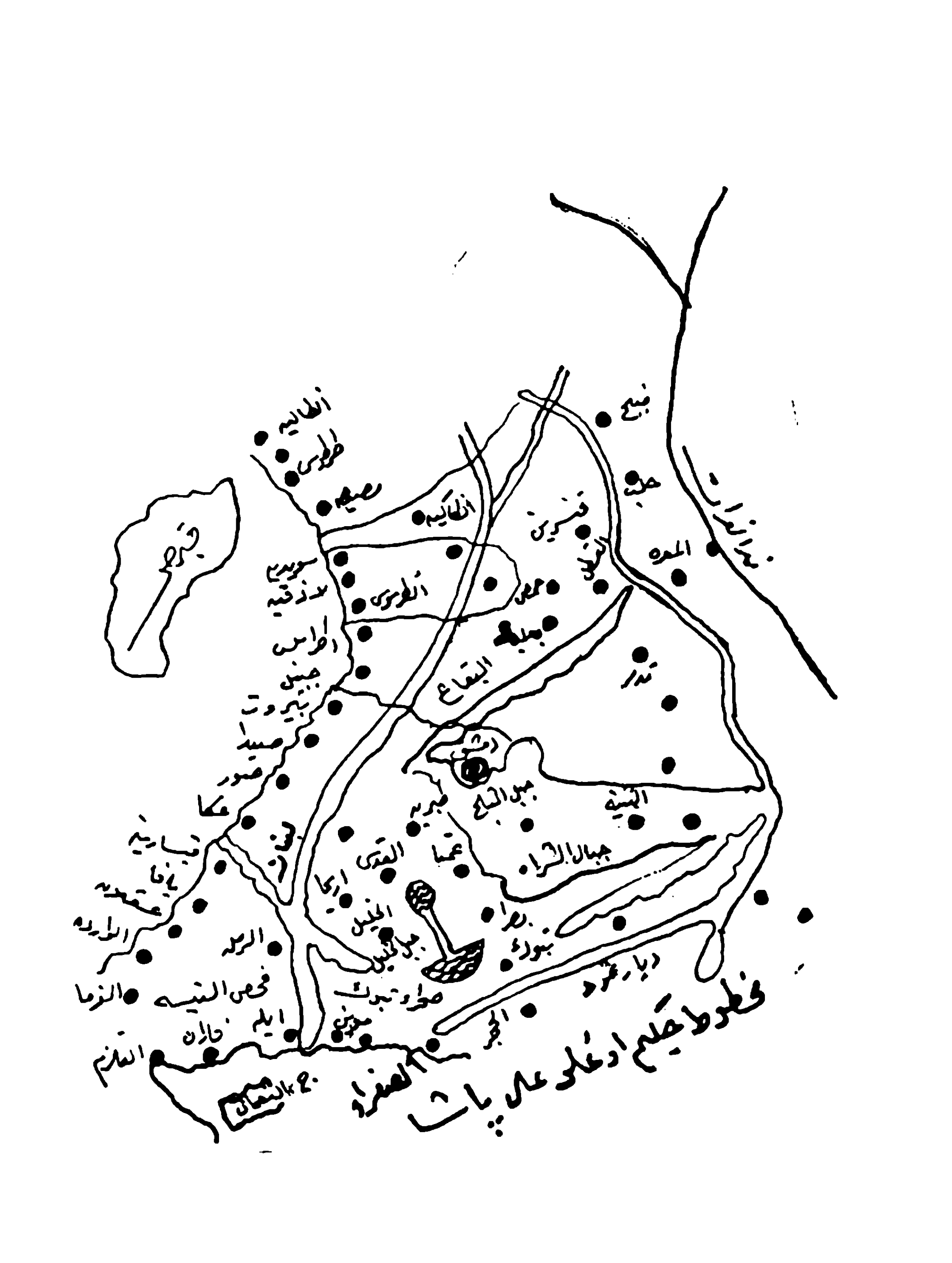
(٤٠٢) ما بين القوسين (والناعمة مدينة حسنة ... بالناعمة اكثر واطيب) سقط من ص
(٤٠٣) مدينة في ٢١
(٤٠٤) الملح في ٢١
(٤٠٥) طيب في م
(٤٠٦) تقطع في م
(٤٠٧) جميع في ٢١
(٤٠٨) لها في ٢١
(٤٠٩) ما بين القوسين (ومدينة بيروت ايضاً ... وشرب اهلها من الآبار) سقط من ص
(٤١٠) المرادسية في ص
(٤١١) الى سقطت من ص
(٤١٢) وهو محذوفة من ٢١
(٤١٣) حونيه في ص ، جونية في ٢١ ، م
(٤١٤) واهله في م
(٤١٥) هذا الحصن ، محذوفة من ٢١
(٤١٦) ما بين القوسين (وجونية ... نصارى يعاقبة) سقط من ص
(٤١٧) طوله في ٢١ ، م
(٤١٨) ما بين القوسين (وهو جون كبير طونه عشرة اميال) سقط من ص
(٤١٩) ماخوز في م ، ماجور في ٢١
(٤٢٠) واشجار في OX ، م ، ٢١
(٤٢١) وانما في ٢١ ، م ، OX
(٤٢٢) ما بين القوسين (وهي مدينة حسنة ... وبها أرساء وحط) سقط من ص
(٤٢٣) الحجر محذوفة من ٢١
(٤٢٤) رساتيق في OX ، م
(٤٢٥) ما بين القوسين(والوارد والصادر إليها كثير)حذفت في م،والزيادة في ٢١ ،والصادر والوارد في OX
(٤٢٦) الاميال في ٢١
(٤٢٧) الغلات محذوفة في ٢١
(٤٢٨) عدة في م ، ٢١ ، OX
(٤٢٩) مغمورة في ٢١
(٤٣٠) اعمالها في OX ، م
(٤٣١) الغرس في م
(٤٣٢) الضيعة في م و ٢١
(٤٣٣) الشقيفة في OX ، السقيقية في ٢١
(٤٣٤) الزيتورية في م ، الرتبورية في ٢١
(٤٣٥) العاربية في م

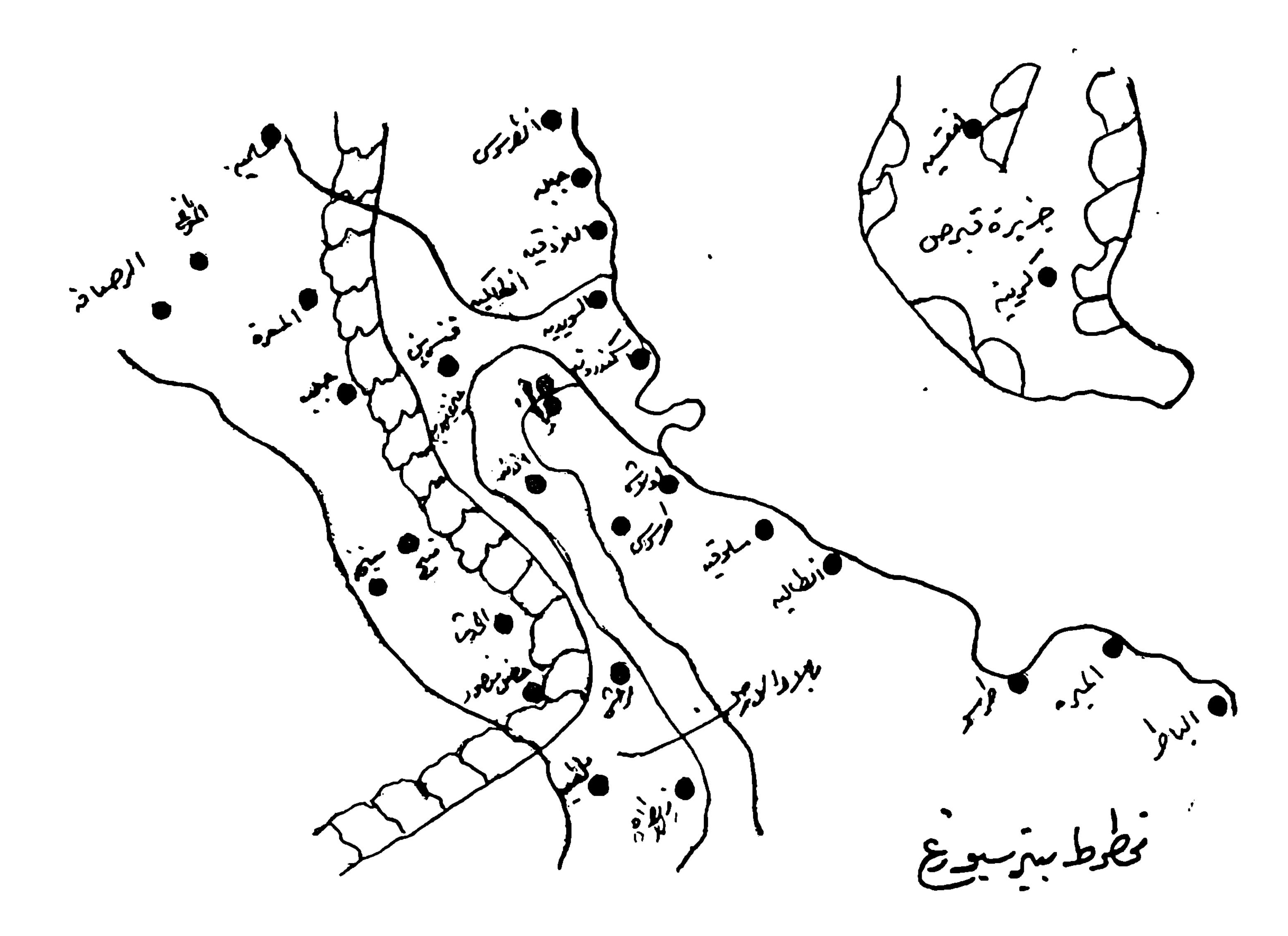
(٤٣٦) الحدث في م ، والجدث في ٢١ ، وفي OX
(٤٣٧) (أكثر مما في غيرها) وردت في OX ، ٢١ ، م
(٤٣٨) بن سهيل في OX ، جنجيل في ٢١ ، م
(٤٣٩) افتتح في م ، OX
(٤٤٠) ما بين القوسين (ومدينة طرابلس الشام ..... منيع جداً وهو بين واديين) سقط من ص
(٤٤١) النرجس في OX ، ٢١
(٤٤٢) وهي صغيرة خالية سقطت من ص ، والزيادة من م
(٤٤٣) إليها في ص
(٤٤٤) إليها في ص
(٤٤٥) ارذكون في ٢١
(٤٤٦) مابين القوسين (وهو مدينة صغيرة عامرة آهلة) سقط من ص
(٤٤٧) جون في OX ، م ، ٢١
(٤٤٨) طوله في ٢١ ، OX
(٤٤٩) عرقة في م ، غدقة في OX ، دعرقة ٢١
(٤٥٠) نويدروس في OX ، لوقوروس في م ، لوتورس في ٢١ ، لدنور قوس في ص
(٤٥١) باسميه في OX ، بيتيه في ٢١ ، بانينه في ص
(٤٥٢) باسية في OX ، باتبيه في ٢١ ، بانيتيه في ص
(٤٥٣) الحصين سقط من ص
(٤٥٤) (وهي تقارب بعضها من بعض) زيادة في م ، ٢١ ، OX
(٤٥٥) غزقة في OX
(٤٥٦) بالخلق في OX
(٤٥٧) ما بين القوسين (بالخلق حسنة ... عامرة بالخلق) زيادة في OX ، م
(٤٥٨) كثرة في ٢١
(٤٥٩) في قناة في OX ، م
(٤٦٠) وبها مطاحن على نهرها المتقدم ذكره ، زيادة في ٢١
(٤٦١) (حصنها كبير وعيش) في OX ، م ، ٢١
(٤٦٢) (والخير بها كثير) في م ، و OX
(٤٦٣) ما بين القوسين (يسمى حصن الحمام ... والخير بها كثير) سقط من ص
(٤٦٤) خمس في ص
(٤٦٥) يقصدونها في ٢١ ، OX ، م
(٤٦٦) من في ٢١
(٤٦٧) مسرات في م ، OX
(٤٦٨) دايمية في م ، ب
(٤٦٩) معايشهم رخيصة في OX ، معاينتهم رفيقة ، في م

(٤٧٠) بشارة في م
(٤٧١) ياتي اليهم في ٢١
(٤٧٢) تعرف جوسمية في م ، خبوشية في ٢١
(٤٧٣) الاربط OX ، الارنط في م ، ٢١
(٤٧٤) أشف في م
(٤٧٥) انهار في م
(٤٧٦) فتلف في م وفي OX
(٤٧٧) أقتنا في ٢١
(٤٧٨) من سقطت من ٢١ ، ومن OX
(٤٧٩) ما بين القوسين (وهي مدينة حسنة في مستو .... يكون بمدن الشام) سقط من ص
(٤٨٠) عقرب ولا حية في م
(٤٨١) الحال في OX ، م ، ٢١
(٤٨٢) الكبيرة في م ، ٢١
(٤٨٣) كيف في OX
(٤٨٤) ملسوع سقط من OX
(٤٨٥) زراعاتها في ٢١
(٤٨٦) زروعها في OX ، ٢١
(٤٨٧) (تكفي باليسير من المطر) في OX ، م ، وفي ٢١ ، وردت (حسبها باليسير من السقي
(٤٨٨) جوامع في OX ، م ، ٢١
(٤٨٩) ما بين القوسين (وجميع ازقتها ... اكبر جوامع الشام) سقط من ص
(٤٩٠) خمسة في OX
(٤٩١) مراجل في OX
(٤٩٢) شنج في ص
(٤٩٣) (وهي في آخر) سقط من ٢١
(٤٩٤) اكثر الجبال الممتدة ، في OX
(٤٩٥) ما بين القوسين (ومدينة انطرسوس ... جزيرة ارواد) سقط من ص و OX ، و ٢١
(٤٩٦) الافرنج في OX
(٤٩٧) بلقع في OX
(٤٩٨) ما بين القوسين (ارواد وهي جزيرة ... من جهة الشرق) سقط من ص
(٤٩٩) صور في OX
(٥٠٠) جزيرة ارواد وهي ، في OX
(٥٠١) (معمورة متقنة البناء) الزيادة من OX ، ٢١
(٥٠٢) ما بين القوسين (معمورة ... وهي كالمحرس) سقط من ص
(٥٠٣) حشيشة في ٢١

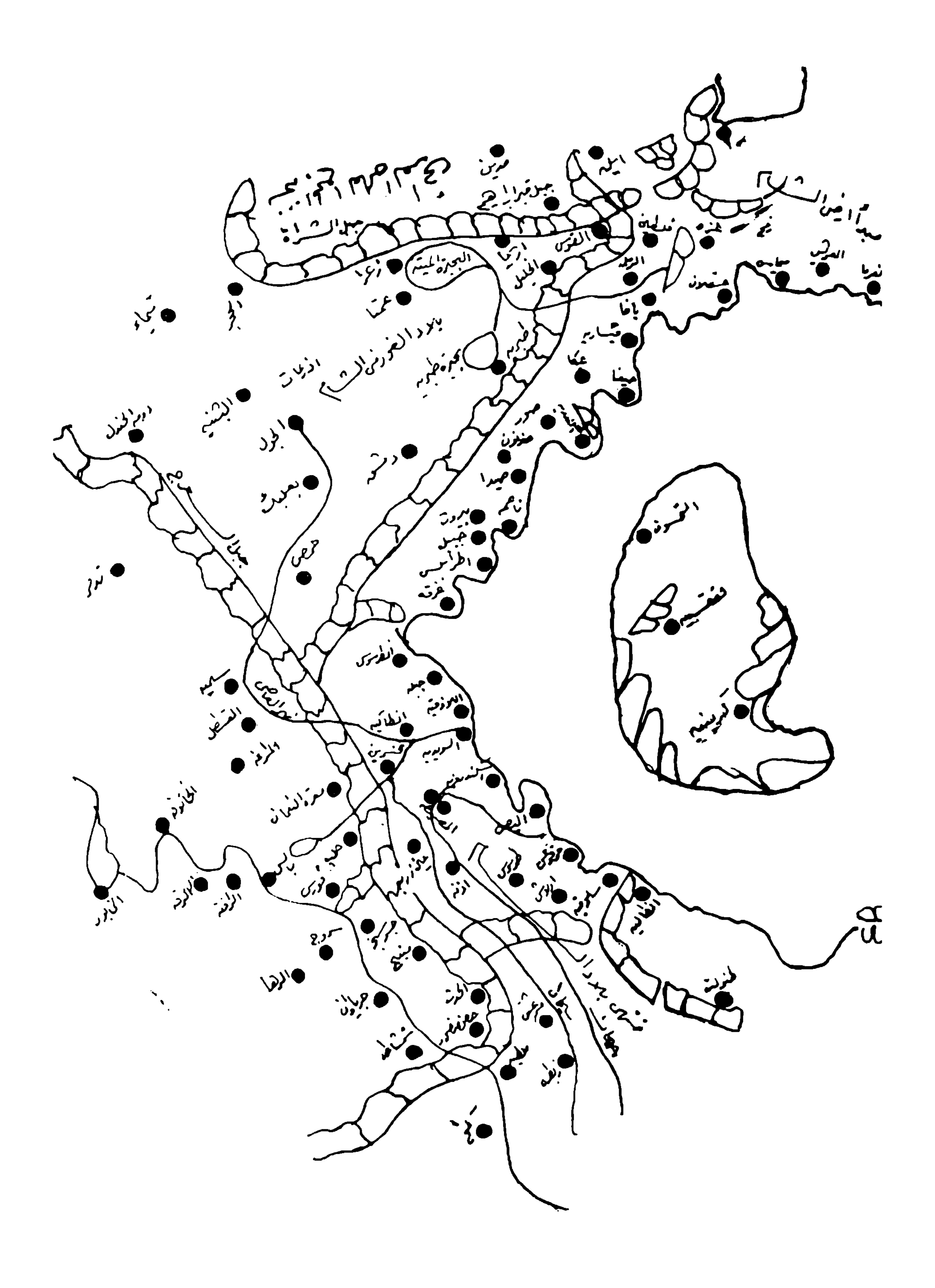
(٥٠٤) كلمة في من OX
(٥٠٥) شيئاً في ٢١
(٥٠٦) تعنوا في ٢١
(٥٠٧) ما بين القوسين (وهذا الحصن ... فرضته حمص) سقط من ص
(٥٠٨) حصه في م
(٥٠٩) المنازل في OX ، م
(٥١٠) تبوع في OX ، بيوع في م
(٥١١) دميه في م ، مة في ٢١
(٥١٢) (عامرة) في OX
(٥١٣) منها في ٢١
(٥١٤) جبال في OX
(٥١٥) وادين في م ، الى وادي وهي مدينة صغيرة في ٢١
(٥١٦) ما بين القوسين (ومنه الى وادين .. صغير) سقط من ص
(٥١٧) المرقة في م
(٥١٨) المر في ٢١
(٥١٩) السويدا في م ، ٢١
(٥٢٠) بجملته في OX
(٥٢١) غمراس في OX ، عمراس م ، عمراسي ٢١
(٥٢٢) بيتا في OX ، بنيا في م
(٥٢٣) سبطه في م ، سبسطه في ٢١ ، وسقطت من OX
(٥٢٤) هذه البلاد سقطت في م وكذلك في OX
(٥٢٥) فيها سقطت في OX
(٥٢٦) اربعون في م
(٥٢٧) (هو أول) من ٢١
(٥٢٨) نحو في ٢١
(٥٢٩) جهة في ٢١
(٥٣٠) اريحا في OX ، م
(٥٣١) زعزا في OX ، م ، ٢١
(٥٣٢) عمثا في م ، ٢١
(٥٣٣) حنس في ٢١ ، حبش في OX
(٥٣٤) خدروايل في ٢١ ، حراويل في OX
(٥٣٥) سوسه في م وفي OX ، سوسنه في ٢١
(٥٣٦) مونيه لا توجد في م ، ولا في OX وكذلك لا توجد في ٢١
(٥٣٧) قاصوه في OX

(٥٣٨) يعلى بك في OX
(٥٣٩) اقليم في ٢١
(٥٤٠) ظاهراً في ٢١
(٥٤١) جيرين في ٢١
(٥٤٢) هذه في ٢١
(٥٤٣) ما بين القوسين (وسنذكرها أيضاً في امكنتها) في ٢١
(٥٤٤) مسيرة في م ، سير في OX
(٥٤٥) ما بين القوسين (دمشق الى صيدا يومان) في OX ، ٢١ ، م
(٥٤٦) الجول في ٢١ ، م
(٥٤٧) على في OX ، م
(٥٤٨) يبج في ٢١
(٥٤٩) وبينهما في م
(٥٥٠) أيام في ٢١ ، م
(٥٥١) منبح في ٢١
(٥٥٢) (ومن حلب) في م ، ٢١
(٥٥٣) رفحه في م
(٥٥٤) ما بين القوسين (وهنا انتهى ذكر ... سيد المرسلين) سقط من ٢١

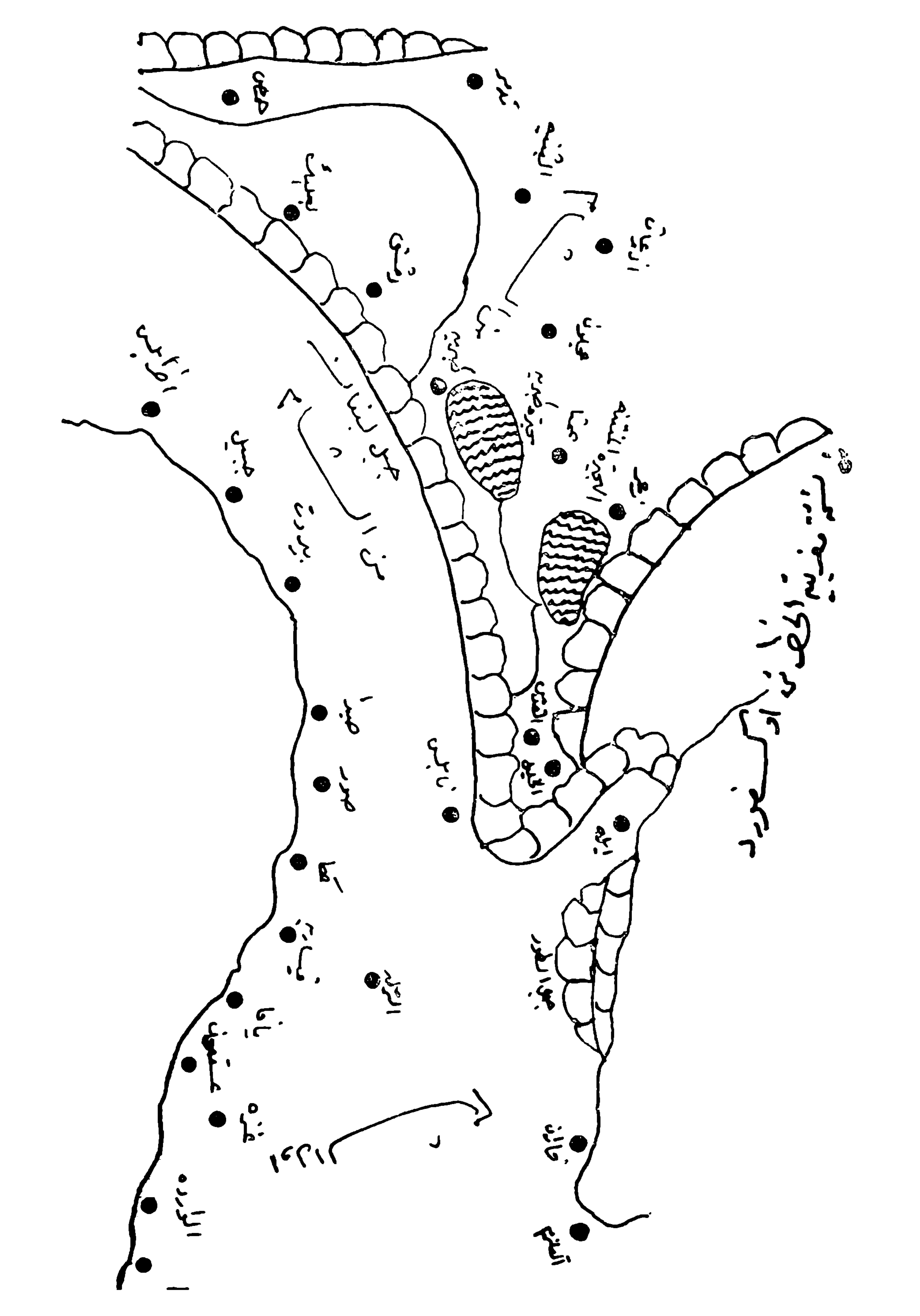

قبرص
طرسوس
المصيصة
انطاكية
سويدية
لاذقية
اطرابلس
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
قيسارية
يافا
الرملة
فحص التيه
القلزم
ايلة
فاران
مدين
صحراء تبوك
الخليل
اريحا
القدس
عمان
طبرية
جبل الثلج
دمشق
البقاع
بعلبك
حمص
قنسرين
حلب
منبج
المعرة
تدمر
البثنية
جبال الشراة
تبوك
ديار ثمود
الحجر
الشمال

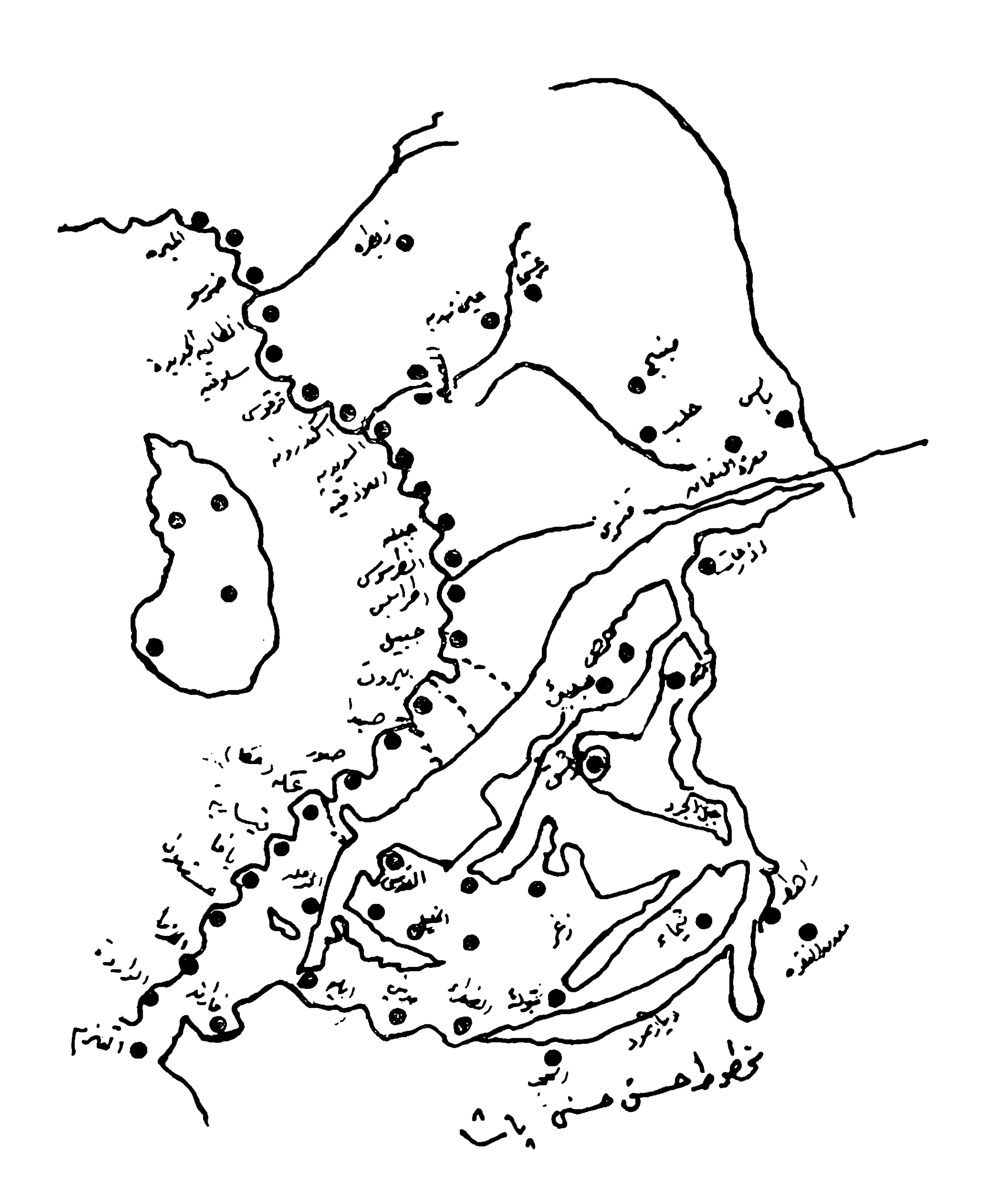

مخطوط بترسبورغ
جزيرة قبرص
الرصافة
المعرة
انطرطوس
جبلة
اللاذقية
انطاكية
السويدية
سلوقية
انطالية

نسخة سان بيتر سبورغ



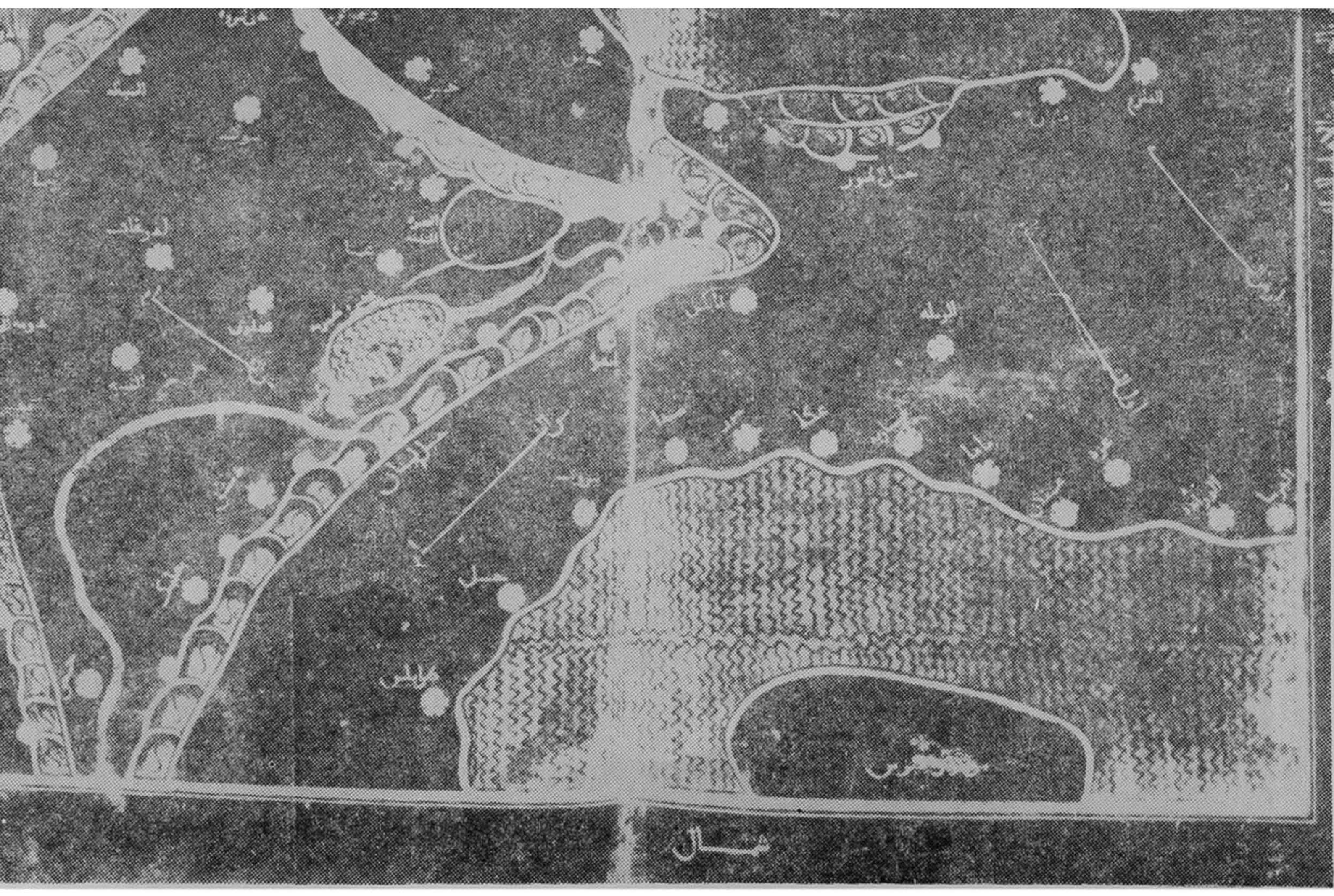
مدين
ايله
جبال الشراة
البحيرة الميتة
زغر
عمان
الرملة
يافا
قيسارية
عكا
صور
صيدا
بيروت
جبيل
اطرابلس
عرقه
دمشق
بعلبك
حمص
تدمر
انطرسوس
جبلة
اللاذقية
انطاكية
السويدية
قنسرين
حلب
بالس
الرقة
منبج
سروج
الرها
ملطية




زبطرة
منبج
حلب
بالس
معرة النعمان
اذرعات
حمص
دمشق
جبلة
انطرسوس
اطرابلس
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
يافا
القدس
تيماء
تبوك
الحجر
ديار ثمود
سلوقية
اللاذقية
مخطوط احسن منه باشا



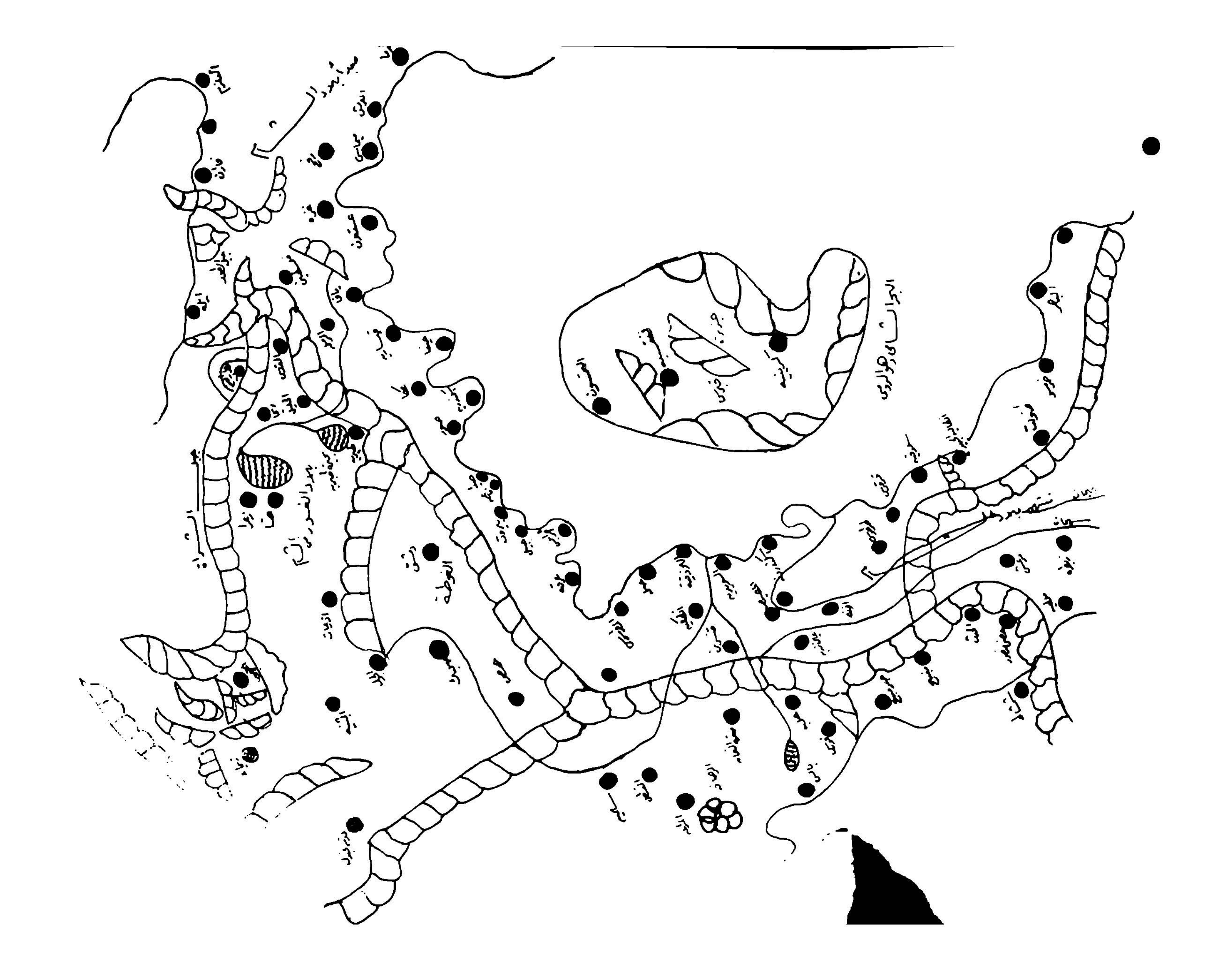


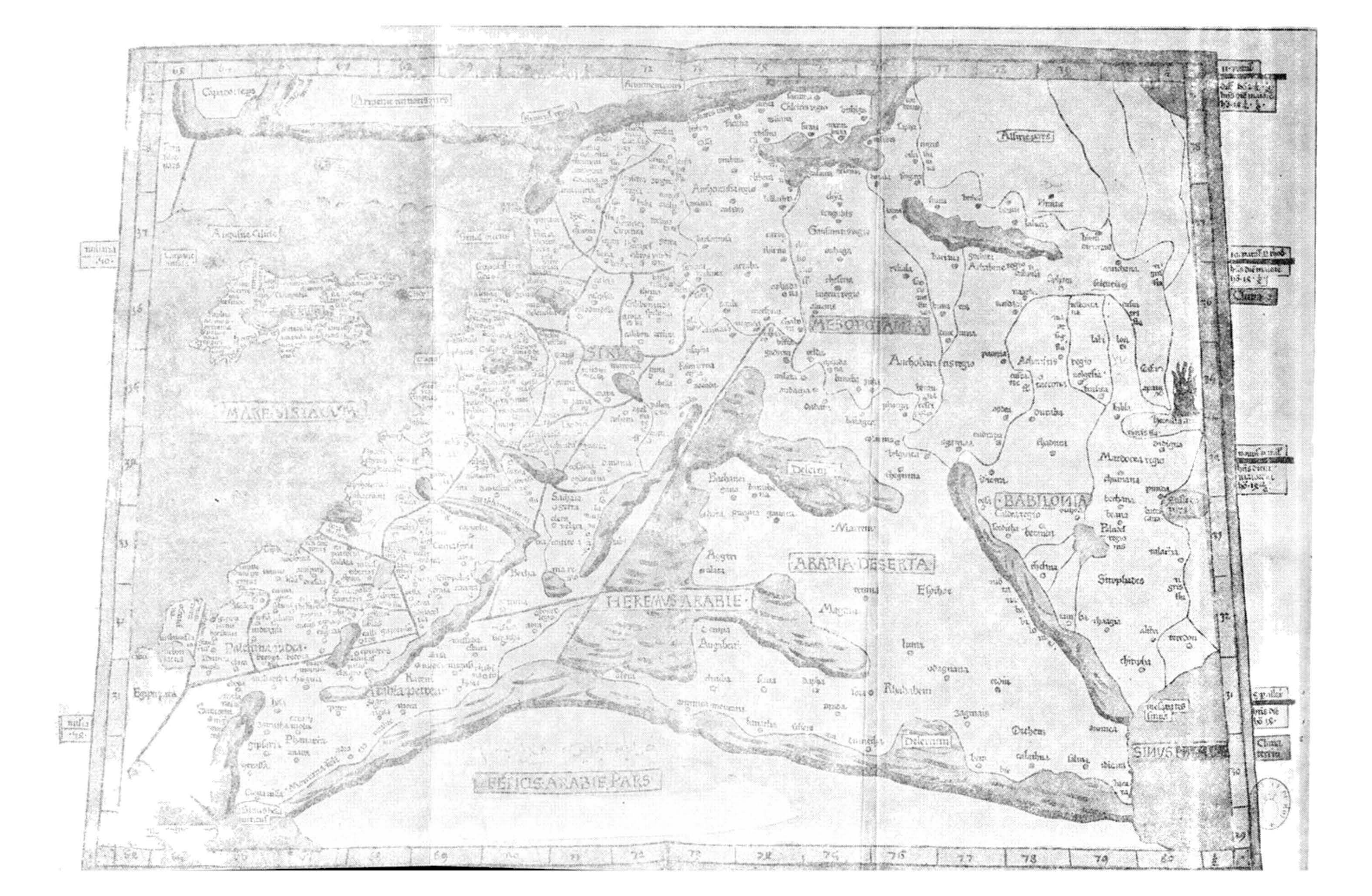


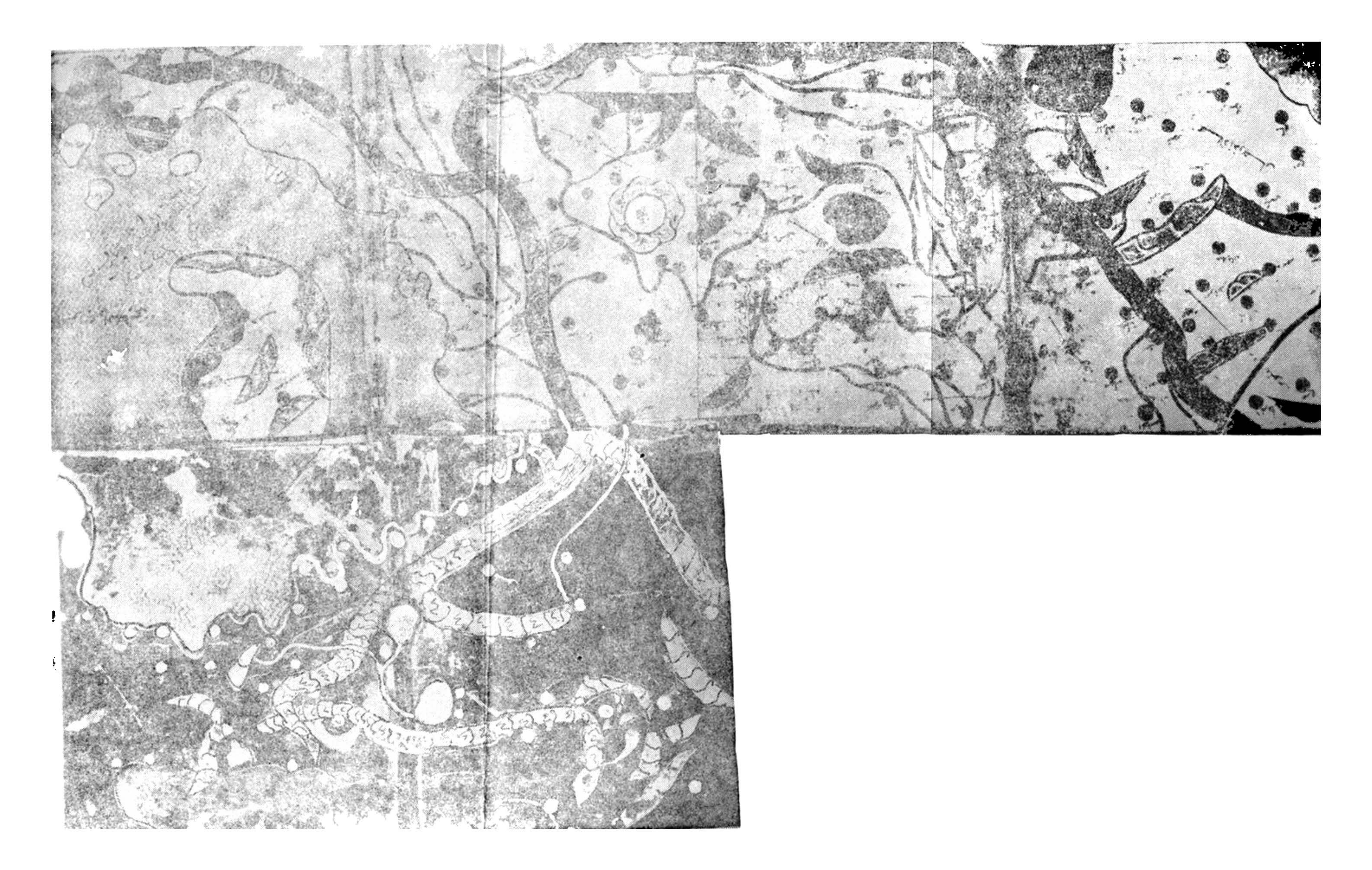
مخطوطة اوكسفورد الثانية



مخطوطة القسطنطينية (اسطنبول)




MESOPOTAMIA
SIRIA
MARE SIRIACUM
BABILONIA
ARABIA DESERTA
HEREMUS ARABIE
FELICIS ARABIE PARS
Arabia petrea
Palestina iudea
Mardocea regio
Auchobari regio



عمر بن الخطاب

في توجيهه للأدب والنقد الأدبي

— ٣ —

الدكتور جميل سعيد

استاذ بكلية الآداب — جامعة بغداد

عمر والكلام البليغ

وعمر يعجبه الكلام البليغ الحسن اللائق في موقعه . وقد ينظر الى الرجل ويراه ضئيلاً دميماً ، وعمر يعجبه من الرجل ان يكون ضخماً ذا مهابة ، قالوا : وكان اذا نظر الى عمرو بن معد يكرب ، وكان الرجل ضخماً كالجمل في جسامته ، قال : الحمد لله الذي خلقنا وخلق عَمْراً » تعجّباً من عظم خَلْقه (١) ، وشكراً لله . نقول : كان يعجبه الرجل الضخم المهيب ، وتتجافى نفسه عن الرجل الضئيل الدميم ، وما هو إلاّ ان يتكلّم الرجل الضئيل الدميم ويعجب عمر بكلامه حتى يغيرّ عمر رأيه فيه ، وينظره بغير العين التي نظره بها . نظر الى علباء (٢) بن الهيثم السدوسي ، وكان علباء اعور دميماً ، فلم يعجب عمر منظره . وكلّمه عِلباء ، وكان بارعاً بيّناً . فلما رأى براعته وسمع بيانه راح يصعّد بصره فيه ويُحدره ؛ كأنه يتعجّب من منطقه ، فلما خرج علباء ، قال عمر :

« لكل اناس في جُمَيْلهم خُبْرُ »

وهذا البيت تمثّل به عمر هو الشطر الثاني من البيت :

فآليت لا اشرى بعيراً بغيره — لكلّ اناس في جميلهم خبرُ

---

(١) الأغاني ١٥/٢١٣ .

(٢) علباء بن الهيثم السدوسي : شجاع من الفصحاء ، شهد الفتوح في عهد عمر ، وسكن الكوفة ، وكان سيداً بها . وهو اول من دعا الى علي بن ابي طالب ، واستشهد في وقعة « الجمل » . الإصابة ؛ ت : ٦٤٥١ .

وهكذا تراه غيّر رأيه في الرجل حين اعجبه منطقه(١) .

ويقول الجاحظ (٢) : « ونظر عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – الى هَرِم (٣) ابن قُطْبَه، ملتفاً(٤)في بت في ناحية المسجد ،ورأى دمامته وقلّته في منظره . وكان يعرف تقديم العرب له في الحكم والعلم ، فأحبّ ان يكشفه ويسبر ما عنده ، فقال : أرأيتَ لو تنافرا اليك اليوم ، أيّهما كنت تنفر ؟ يعني : علقمة (٥) بن عُلاثة وعامر بن الطُّفَيل(٦) ، فقال : يا امير المؤمنين .لو قلت فيهما كلمةً لأ عدتها جَذَعَة . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد اعجبته بداهته : « لهذا العقل تحاكمت العرب اليــــك »

ويقول الجاحظ (٧) ايضاً : « ونظر عمر الى الأحنف وعنده الوفد (٨) ،والأحنف(٩) ملتف في بتّ له ، فترك جميع القوم واستنطقه فاما تبعّق منه ما تبعّق (١٠) ، وتكلّم بذلك الكلام البليغ المصيب ، وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء . ثم صار الى أن عقد له الريّاسة ثابتاً له ذلك الى ان فارق الدنيـــا »

---

(١) انظر الجاحظ ؛ في « البيان والتبيين » ؛ ١/٢٣٨ .

(٢) انظر الجاحظ ؛ في « البيان والتبيين » ؛ ١/٢٣٧ .

(٣) هرم بن قطبة بن سيار الفزارى : من قضاة العرب في الجاهلية . اسلم في عهد النبي وثبت في الردة . كان من الخطباء البلغاء ، والحكام الرؤساء . وكان اذا حكم بين الخصمين او المتنافرين سمع في كلامه « الأعلام للزركلي » .

(٤) البت : كساء غليظ مربع .

(٥) علقمة بن علاثة بن عوف الكلابى العامري . كان في الجاهلية من اشراف قومه . قالوا : وفد على قيصر . ونافر عامر بن الطفيل . واسلم ثم ارتد في زمن ابى بكر .... وعاد الى الإسلام . ولاه عمر « حوران » فنزلها الى أن مات . وكان كريماً . للحطيئة قصيدة في مدحه . الزركلي : ٥/٤٨ . والإصابة ؛ ت : ٥٦٧٧ .

(٦) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري : فارس قومه واحد فتاك العرب وشعرائهم . ولد ونشأ بنجد ، وادرك الإسلام شيخاً . وفد على الرسول الكريم فدعاه الى الاسلام فاشترط ان يجعل له نصف ثمار المدينة وان يجعله ولي امره من بعده ، فرده الرسول الكريم – فات في طريقه قبل ان يبلغ قومه . الأعلام – للزركلي : ٤/٢٠

(٧) البيان والتبيين : ؛ ١/٢٣٧ .

(٨) الوفد : هو وفد اهل العراق ؛ البصرة والكوفة . وخبر هذا الوفد ، وبه حديث الأحنف في كتاب العقــد الفريد لابن عبد ربه ؛ ج : ٢ ص : ٦٤ .

(٩) الأحنف : هو الأحنف بن قيس : سيد تميم ، واحد العظماء الشجعان الفاتحين . يضرب به المثل في الحلم . شهدالفتوح في خراسان . وفد على عمر في المدينة ، وتكلم عنده ... فقال عمر : هذا والله – السيد !هذا والله السيد ! . قال الأحنف : فا زلت اسمعها بعد . وتوفي سنة : ٧٢ هـ .

(١٠) تبعق ؛ في القاموس : « الانبعاق : ان ينبعق عليك الشيئُ فجأة وانت لا تشعر . وانبعق المزن : انبعج بالمطر . وانبعق في الكلام : اندفع فيه ، كتبعق وانبعق » .

ويبدو ان الجاحظ اهمل ايراد حديث الأحنف هذا ، لشهرته بين الناس ، وان الجاحظ نفسه كان معجباً بحديث هؤلاء الثلاثة . وحسبك من اعجابه بحديث الأحنف أن يقول في وصفه : « فلما تبعّق منه ما تبعّق وتكلّم بذلك الكلام البليغ المصيب ... » ولعلَّ الجاحظ لم يجد ابلغ من عبارته هذه في إطراء كلام الأحنف هذا .

ورووا أنّ عمر سمع قول طرفة بن العبد (١) ، وقد بيّن اموراً ثلاثة هي التي تحبّب اليه الحياة ، ولولاها لم يحفل متى قام عُوّده عنه ، ومات ، سمع قوله :

ولولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى
وجدّك لم احفِل متى قام عُوّدي (٢)

فمنهنّ سبقي العاذلات بشربة
كُميت متّى ما تعلَ بالماء تُزبد

وكرّي اذا نادى المضافُ مُحنّباً
كسِيد الغضا نبّهته المتوّرد

وتقصير يوم الدجن ، والدجْنُ مُعجبٌ
ببهكَنَة تحت الطِرّاف المعَمّد

فقال عمر ، حين سمع هذا ذاكراً مايحبّب اليه الحياة : « لولا أني اسير في سبيل الله ، واضع جنبي في الترا ب ، واجاور قوماً يلتقطون طيّب القول كالملتقط طيّب الثمر لأ حببت أن اكون قد لحقت بالله » (٣) . هذا هو مقام الكلام الجميل عنده ، وهو واحد من امور ثلاثة هي احبّ ما في الحياة اليـه ..

وتقرأ سيرة المسلمين الأوائل ، ولا تكاد تجد بينهم من اسلم على النحو الذي اسلم عليه عمر .. كان — رضي الله عنه — من اشد المعاندين للاسلام والمسلمين ، وما هو

---

(١) ابن الجوزي ؛ سيرة عمر بن الخطاب ؛ ص : ١٦٣ .

(٢) شرح القصائد العشر — للتبريزي ؛ ص : ٣٤ طبعة كارلس لايل . قام عودى ؛ عوده : من يحضر عند موته في مرضه وينوح عليه . والكميت من الخمر : التي تضرب الى السواد في لونها . ومتى ما تعل بالماء تزبد : اي متى ما تمزج به تزبد؛ لأنها عتيقة . والمضاف : من اضافته الهموم . والمجنب : فرس اقنى الذراع ؛ وهي من صفات الجيد من الخيل . والسيد : الذئب . والغضا : شجر ، وذئابه اخبث الذئاب . ونبهته : هيجته . والمتورد : الذي يطلب أن يرد الماء .

والدجن ؛ قيل هو الندى والمطر الخفيف ، وقيل : هو الباس الغيم السماء . والبهكنة : الجارية التامة الخلق . وتحت الطراف ؛ ويروى : تحت الخباء . والمعمد : اي ذى العمد .

(٣) ابن الجوزي ؛ ص : ٩ .

الا ان استمع للقرآن الكريم حتى فعل في نفسه ما لا يفعله السحر . يروون عنه انـــه قال : « خرجت اتعرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم – قبل ان اسلم – فوجدته قــد سبقني الى المسجد فاستفتح « الحاقّة » فجعلت اتعجّب من تأليف القرآن ، : قال : والله هذا شاعر كما قالت قريش ، قال : فقرأ : « إنه لقولُ رسولٍ كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون » قال : « فقلت : كاهن » ، قال : « ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون ، تنزيل من رب العالمين » ... الى آخر السورة قال : فوقع الإسلام في قلبي » (١) .

ولك ان تنظر في تعبيره : « خرج يتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم » يريد ان نفسه حميت بل غليت بالعداوة للرسول الكريم وللإسلام ، حتى خرج يتعرَّض للرسول – صلوات الله عليه – ويبدو انه كان يعرف اين يلقاه ، فقصد المسجد لعلمه انه سيلقاه هناك .

وتنظر في حديثه حين سمع الرسول الكريم قد استفتح « بالحاقّة » قد اخذته روعة القرآن ، ونسيَ انّه إنما خرج ليتعرَّض للرسول الكريم ، قالوا : « فسكت وخنس حتى اتمّ الرسول الكريم السورة ، اوكاد » .

ويروون في سبب اسلامه روايات اخرى (٢) منها : انه قرأ صدراً من سورة « طه» عند اخته فاطمة ، وكانت اسلمت هي وزوجها قباه – حتى اذا انتهى الى قوله تعالى : « ... إنني انا الله لا اله إلاّ انا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى » قال : دلّوني على محمد! ولا نعجب ان نراه يؤخذ بتأثير هذه السورة الكريمة التي تبدأ بحرفين منقطعين هما : طا – ها ؛ يقرعان السمع بنغم يتّسق مع نغم السورة في فواصلها ، ويوحيان بشئ من الغموض يبهت السامع ويوقفه موقف المنصت المتحيرّ ، المنتظر لما يجئ بعدهما مما عساه يكشف للسامع بعض هذا الغموض المحيّر ... ثم يجيئ بعدهما ما يعذر القارئ على خشوعه وحيرته من هذا القرآن الذي سمع . إنه تذكرة لمن يخشى وانه تنزيل ممن خالــق الأرض والسموات العُلى ... وايّ عظمة وراء هذه العظمة !؟ . لقد مرَّ بنا ان نفس

---

(١) انظر سيرة ابن هشام : ٣٦٤/١ ، وابن الجوزي ؛ في : « سيرة عمر بن الخطاب » ؛ ص : ٩–١٣ .
(٢) انظر مقالنا السابق عن « عمر بن الخطاب في سيرته الأدبية ، في المجلد السادس والعشرين .

عمر يعجبها العظيم الشجاع من الناس ، وقد اعجبته خِلقة عمرو بن معد يكرب ؛ لعظمته وشجاعته ، فكيف بإعجابها بهذا العظيم الذي خلق الأرض والسموات العُلى !؟ .

ثم انظر الى هذا العظيم الذي كانت الرحمة اولى صفاته ، وأنّه « الرحمن » . وصفة الرحمة هذه هي الصفة التي يحبّها عمر . ونحن نقرأ اخبارها في سيرته من أول حياته ، الى ان فارق الدنيـــا . . .

ثم تتوالى الآيات بمعان تفصيلية تزيد في صفات هذا الرحمن الجبّار قوةً وجلالاً « له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى » ثم يزيد سبحانه — بأنه فوق أن يملك كلّ شيئٌ ، انه عالم بما في النفوس ؛ انه عالم بالسّر وما هو اخفى من السرّ « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى » ... ثم وراء هذا انَّ صفة الألوهيّة قد اختصت به وحده . ثم تأخذ السورة الكريمة بقصص يأخذ السامع بما فيه من حيرة موسى ، وبعظمة الله جلّ جلاله ... ولعلَّ عمر رأى في حيرة موسى شبيهاً بحيرته .. قالوا : حتى اذا بلغ من التلاوة : « إنني انا الله لا اله الا انا فاعبدني »صاح : دلّوني على محمد ! فقال له خبّاب(١)بن الأرتّ — وكان معهم .—هو في بيت عند الصفا ، معه نفرمن اصحابـــه (٢) .

عمر والقرآن

وكان عمر يحفظ القرآن ، وكان حفّاظه قريبين من نفسه . « وعن الزهرى : كان جلساء عمر اهل القرآن؛ كهولاً كانوا او شبّاناً»(٣)

وفي العقد الفريد (٤) : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ايها الناس تعلّموا كتاب الله تعرفوا به ، واعملوا به ، تكونوا من اهله » . وكتب الى سعد بن ابى وقّاص يوم القادسيّة ان يعطى الناس على قدر حفظهم من القرآن . ويبدو ان بعض المسلمين ، ممن أبلى البلاءالحسن في الحرب ، كان دون غيره في حفظ القرآن الكريم ، ومن هؤلاء عمرو بن معد يكرب . قالوا : قال له سعد : ما معك من حفظ القرآن ؟

(١) خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد التميمي . اسلم سادس ستة ، وهو اول من اظهر اسلامه . شهد المشاهد كلها ونزل الكوفة ، ومات بها وهو ابن ٧٣ سنة . روى له البخاري ومسلم ٣٢ حديثاً .

(٢) سيرة ابن هشام ؛ ١/٣٦٧ . وابن الجوزي ؛ ص ١٣ .

(٣) ابن الجوزي ؛ ص : ١٦٤ .

(٤) العقد الفريد ؛ لابن عبد ربه ؛ ٢/٢٢٢ .

قال : إني اسلمت ثم شغلت بالغزو عن حفظ القرآن . قال : إن امير المؤمنين كتب اليّ أن اعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن ، فقال : عمرو محتجاً :

لئن قُتِلنا ومــا يبكى لنــا احــدٌ
قالت قريش : ألا تــلك المقاديــر
نُعطى السويّــة في طعن لــه نفذٌ
ولا سويّة اذ تُعطى الدنــانــير !؟

قيل : وأتاه بشر بن ربيعة ، فقال له سعد : ما معك من حفظ القرآن ؟ قال : معي بسم الله الرحمن الرحيم . فضحك القوم منه ، وقال سعد : ما لك في هذا المال من شيئٌ ولا من نصيب (١) .

وكتب سعد بهذا ، وبأبيات عمرو الى عمر ، فكتب اليه عمر : ان يعطى الناس على مقاماتهم في الحرب (٢) ايضاً .

عمر والشعر وعمر يعدّ التفقّه بالدين والقرآن في المقدّمة عنده . وقد بيّنا ان هذه الناحية هي التي استولت على تفكِيره ، وصبغته بصبغتها ، فهو لا يحبّ من الأمور الا ما أمر به الإسلام ، ولا يحبّ من القول الا ما وافق القرآن وروح الإسلام .

وكان بعد هذا يرى الثقافة العملية ، ولا سيمّا ما كان منها متعلّقاً بالجهاد والحرب ، اولى الثقافات الواجبة التعلّم والتعليم . وقد كتب الى الأمصار : « اما بعد فعلّموا اولادكم العوم والفروسيّة ، وزوّدوهم ما سار من المثل وحسن من الشعر (٣) فتراه يبدأ ، من الناحية العملية بأولاها بالتعلّم لهم ؛ فالعرب عامة يحسنون ركوب الخيل في صحرائهم ، لكثرة معاشرتهم لها ، وكثرة غاراتهم وحروبهم . اما السباحة فحظهم منها ليس بذاك ؛ لقلّة انهارهم ، ولبعدهم عن البحار ، ولعدم احتياجهم اليها . فلما صاروا يحاربون الفرس والرومان على عهد عمر ، صارت السباحة من اولى حاجاتهم

---

(١) عيون الأخبار ؛ ١٢٩/١ .
(٢) العقد الفريد ٦٦/٢ .
(٣) البيان والتبيين : ١٧٩/٢ .

في الحروب . وقد احسن الحجّاج ابن يوسف ، حين قال لمعلّم وِلْده ؛ وكأنه يشرح له قول عمر هذا : « علّمْ وِلدي السباحة قبل الكتابة ؛ فإنهم يصيبون من يكتب عنهم، ولا يصيبون من يسبح عنهم». اما الفروسيّة فقد جعلها عمر في المرتبة الثانية ؛ لأنها على اهميّتها الكبيرة – كانت في طبع العرب ، وهم يروون ان خالد ابن سعيد بن العاص ، قُتل حين غشيه العدو ، واراد الركوب فلم يستطيع ولم يجد من يحمله على فرسه (١) . وقد مرَّ بنا ان عمر نفسه كان اذا اراد ان يركب جمع جراميزه وامسك باذن فرسه ، قالوا : فكأنّما خُلق على ظهره (٢) ويأتي بعد هذا عنده ما سار من المثل وحسن من الشعر . فالمثل السائر له اثره في المواقف مستحبّة وغير مستحبّة . واما ما حسن من الشعر ، فلا نشكّ ان حسنه وقبحه عند عمر منوطان بما يبيحه الدين . وكلُّ مالا يبيحه الدين ، مهما حسن ، قبيح عند عمر .

ولا نشك في ان عمر – وهو يعني بالناحية العملية من التربية اولاً – يقدّم الشعر للفائدة ، ثم للمُتعة ؛ يقول « من خير صناعات العرب الأبيات يقدّمها الرجل بين يدي حاجته ؛ يستنزل بها الكريم و يستعطف بها اللئيم (٣) » ويقول : « الشعر جزلٌ من كلام العرب يُسكّن به الغيظ وتُطفأ به الثائرة ، ويتبلّغ به القوم في ناديهم ، ويُعطى به السائل » (٤) . فتراه في حديثه هذا يشير الى المتعة التي يحتويها الشعر ، مع اشارته الى الفائدة .

ولا نراه هنا تعلّل من امر المتعة في الشعر حين يجعلها تتلو الفائدة . وكيف يكون هذا ، وهو الذي يجد في الشعر متعته وسلوته وراحته . ولكننا نراه يسلك في حديثه هذا مسلكه في الحديث عن السباحة والفروسية .إنّه يدري أن الشعر متعة العرب، بل لعلّه اولى مُتعهم ؛ لقد كان الشعراء الجاهليون يغشون الأسواق ، التي هي مجتمع الناس ؛ كسوق عكاظ والمجنّة في الجاهلية . وفي الإسلام صاروا يستمعون للشعر ، يستمتعون به في مجالسهم . وفي العقد الفريد : قيل لبعض اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) البيان والتبيين ؛ ٢٣/٣

(٢) البيان والتبيين ؛ ٢٤/٣

(٣) العقد الفريد ؛ ٢٨١/٥

(٤) البيان والتبيين ؛ ٣٢٠/٢

ما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم في مجالسكم ؟ قال :« كنّا نتناشد الأشعار (١) » . بل كان المسجد من الأماكن التي يستمع بها المسلمون للشعر (٢) :

وفي طبقات ابن سعد قال جابر (٣) بن سمرة : جالستُ رسول الله صلى الله عليه وسلم اكثر من مائة مرة فكان اصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد. وروى عن هشام بن (٤) عروة عن أبيه عن عائشة : ان الرسول الكريم بنى لحسّان منبراً في المسجد يُنشد عليه الشعر . ويروون أنّ كعب بن زهير أنشد قصيدته :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيّم إثرَها لم يُفدَ مكبول

في المسجد ، وان اصحاب الرسول الكريم ، ضجّوا من نشوة ما عراهم من الاستحسان حين استمعوا الى مديحه للرسول صلّى الله عليه وسلم :

إنّ الرسول لنورٌ يُستضاء به
مهنّدٌ من سيوف الله مسلول

وانّ الرسول الكريم طلب اليهم أن يهدأوا ، ويستمعوا ... ويرى المتحدثّون عن قصيدة كعب هذه ، أنّه انما عنى عمر بن الخطّاب ، بقوله :

في فتيةٍ من قريش قال قائلهم
ببطن مكّة لمّا أسلموا : زولوا

نقول : ولعلّ من الأسباب ، بل من اهمّ الاسباب التي جعلت عمر يُعنى بالشعر ، ويوصي بروايته وحفظه أنّه رأى الرسول الكريم يُعنى به . وفي رواية انه صلى

---

(١) العقد الفريد ؛ ٢١٠/٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ؛ ٩٥/١ .

(٣) جابر بن سمرة بن جنادة : صحابى ؛ كان حليف بني زهرة . وله ولأبيه صحبة . نزل الكوفة . وابتنى بها داراً وتوفي في ولاية بشر على العراق. روى له البخارى ومسلم ١٤٦ حديثاً . الاصابة ؛ ت : ٢١٢ . وتهذيب التهذيب : ٣٩/٢، والأعلام – للزركلي : ٩٢/٢ .

(٤) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام . تابعى من أئمة الحديث ، من علماء المدينة ، ولد وعاش فيها . زار الكوفة ودخل بغداد وافداً على المنصور العباسي ، فكان من خاصته روى نحو اربعمئة حديث . وفيات الأعيان ؛ ١٩٤/٢ وتأريخ بغداد ؛ ٣٧/١٤ والزركلي – الأعلام ؛ ٨٦/٩ .

الله عليه وسلم استمع الى عمرو بن كلثوم وهو ينشد في سوق عكاظ ، قصيدته (١) :

ألا هُبّي بصحنك فاصبحينا
ولا تبقي خمور الأندرينا

وانه في مجلس الخزرج – بعد الإسلام – استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم : (٢)

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب
لعَمْرة وحشاً غير موقف راكب(٣)

وانه استمع الى شعر اميّة بن ابي الصّلت (٤) . وفي رواية أنه اُنشد مائة قصيدة منه ، وانّه كان يستمع اليه ، ويقول – صلى الله عليه وسلّم – : « هيه ! » استحساناً لما يسمع .

ونعود الى الحديث عن عمر فنقول : إنّ عمر كان ينظر الى الشعر بعين الإعظام لفائدته العملية ، ولمتعته وسلوته للنفوس ، ولحرص النبيّ الكريم على استماعه والإستزادة منه . وكان يقول : « ان الشعر كان علم قوم لم يكن لهم علم اصحّ منه » وكفى بهذا شهادة منه على قيمة الشعر وعلى رأيه فيه . ويُروى عنه قوله : « إن الإسلام جاء فتشاغلت العرب عن الشعر بالجهاد ، وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته » (٥) .

واراد عمر ان يجمع الشعر ، وخاصة هذا الذي قيل في الإسلام منه ، فكتب الى المغيرة بن شعبة ، ولعله كتب الى غيره ايضاً ، والمغيرة على الكوفة : « أنْ استنشد من

---

(١) الأغاني ؛ ٥٤/١١ .

(٢) قيس بن الخطيم بن عدى الأوسى : شاعر الأوس ، واحد صناديدها في الجاهلية . له اشعار كثيرة في وقائعهم مع الخروج أدرك الاسلام وتريث في قبوله فقتل قبل ان يدخل فيه . ومن الأدباء من يفضل شعره على شعر حسان – رضى الله عنه . الأغاني ؛ ١٥٤/٢

(٣) الأغاني ؛ ٧/٣

(٤) امية بن ابى الصلت . شاعر مخضرم عاش في الجاهلية والإسلام . قالوا : إنه ادرك وقعة بدر ورثى من مات فيها ، وقالوا : إنه مات كافراً ايام حصار الطائف ولم يسلم . وكان ذلك في السنة الثامنة للهجرة . وهو اشد شعراء ثقيف . وشعره تغلب عليه الروح الدينية ، وهو يتحدث فيه عن الجنة والنار والبعث ... انظر « امية ابن ابى الصلت – حياته وشعره » لبهجة عبدالغفور الحديثي – طبعة وزارة الإعلام ببغداد .

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى . والعقاد في كتابه : « عبقرية عمر » ص : ٢٨٨ .

قبلك من شعراء مصرك ، ما قالوا في الإسلام » (١) قالوا : « فأرسل المغيرة الى الأغلب العجلي (٢) ، فقال له : أنشدني ! فقال الأغلب :

أرجزاً تريد أم قصيدا

لقد طلبتَ هيّناً موجودا

ثم ارسل الى لبيد بن ربيعة ،وكان قد انقطع عن الشعر بعد اسلامه ،حتى رووا انه لم يقل في الإسلام إلاّ بيتاً واحداً ، هو :

الحمدلله أنْ لم يأتني أجلي

حتى لبست من الإسلام سِربالا

ارسل اليه ، فقال لبيد : إن شئت ما عُفي عنه ؛ يعنى ما كان في الجاهلية ! فقال المغيرة : لا ، أنشدني ما قلتَ في الإسلام . قالوا : « فانطلق لبيد فكتب سورةالبقرة في صحيفة ثم أتى بها ، وقال : ابدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر » .

وكتب المغيرة الى عمر بما كان من امرهما . وطبيعيّ أنّ عمر — على حبّه للشعر وعنايته به — سرّه موقف لبيد ؛ لإن عمر لا يعاو عنده على الاسلام والقرآن شيئ .

قالوا : فكتب الى المغيرة ان ينقص من عطاء الأغلب خمسمائة ويجعلها في عطاء لبيد . فكتب إليه الأغلب: اتنقص عطائى يا أمير المؤمنين أن اطعتك ؟! قالوا : فردّ عايه عطاءه وأقرّ ما زاده في عطاء لبيد . (٣)

هذا هو موقف عمر ، وهو الخليفة من الشعر عامة : يرى العناية به تلى العناية بالقرآن الكريم . وحسبنا بهذا منزلة للشعر عنده .

عمر وحفظه للشعر وكان عمر كثير الحفظ للشعر . وقد مرّ بنا انه استمع للنابغة الجعديّ ، وهو خليفة ، وحين أتمّ النابغة قصيدته في الإنشاد ، قال له عمر إنه طالما تغنىّ بها خلف جمال الخطّاب .

---

(١) الأغاني ؛ ١٥/٣٦٩ .

(٢) الأغلب بن عمرو بن عبيدة .. من بني عجل من ربيعة : شاعر راجز معمر . ادرك الجاهلية والإسلام . توجه مع سعد غازياً فنزل الكوفة . واستشهد في واقعة نهاوند وهو اول من اطال الرجز . قال الآمدى : هو ارجز الرجاز . توفي سنة ٢١ هـ .

(٣) الأغاني ؛ ١٥/٣٧٠

ويبدو ان عمر كانت له ذاكرة سريعة الحفظ . لقد استمع في حرب احد – وقد غُلب المسلمون – لهند وهي ترتجز بهم فأثّر رجزها في نفسه . وفي الأغاني (١) : أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال لحسّان : يا ابن الفريعة (٢) لو سمعتَ ما تقول هند(٣) ! ورأيتَ اشرها قائمة على صخرةٍ ترتجز بنا ، وتذكر ما صنعتْ بحمزة !؟ قال له حسّان : اسمعنى بعض قولها اكفكموها . قال : فأنشده عمر بعض ما قالت، فقال حسان يهجو هنداً :

أَشــرتْ لكاعِ ، وكان عــادتهــا
لؤمــاً اذا أشــرتْ مــع الكفــر

والأبيات كثيرة ، يفحش فيها حسّان – رضى الله عنه – ولعلّه ثارت ثائرته من رجز هند الموجع ، الذي اسمعه بعضه عمر .

ويقول ابن الأثير ، في الكامل (٤) في حديثه عن ردّة بنى عامر وهوازن وسليم ، وحربهم مع خالد بن الوليد ، يقول : « .. واما خبر ابى شجرة بن عبد العزّى السلمي وهو ابن الخنساء ، فإنه كان قد ارتدّ فيمن ارتدّ من سُليم ، قال حين ارتدّ :

صحــا القلــب عن ميٍّ هواه وأقصرا
وطاوعَ فيهــا العــاذلــين فأَبصرا
الا أيُّهــا المــدلي بكــثرة قومــه
وحظّك منهــم أنْ تُضام وتقهــرا
ســلْ الناس عنّــا كلّ يوم كريهةٍ
اذا مــا التقينــا دارعين وحُسّــرا

---

(١) الأغاني : ١٩٨/١٥ .

(٢) ابن الفريعة ؛ في القاموس : « وحسان بن ثابت يعرف بابن الفريعة – كجهينة ؛ وهي امه » .

(٣) هند : هند بنت ربيعة ، امالخليفة معاوية . كانت فصيحة جريئة ؛ تقول الشعر الجيد . ومن شعرها رثاؤها لقتلى « بدر » من مشركى قريش وفي وقعة « احد » وقد غلب المسلمون كانت ممن مثل بقتلاهم . وكانت ممن اهدر النبي الكريم دماءهم يــوم فتح مكة وامر بقتلهم ولو وجدوا تحت استار الكعبة . وقد جاءته فأعلنت اسلامها ، فرحب – صلوات الله عليه – بها . شهدت « اليرموك » وحرضت على قتال الروم . وتوفيت سنة ١٤ هـ . طبقات ابن سعد ؛ ١٧٠/٨ .

(٤) الكامل : ٢٣٧/٢ طبعة الاستاذ منير الدمشقي .

ألســنا نعاطــي ذا الطماح لجامــه

ونطعن في الهيجا اذا الموت اقصرا !؟

فروّيتُ رمحي من كتيبة خـــالــدٍ

وإني لأَرجــو بعدهــا أن اعمّــرا

قال ابن الأثير : « ثم ان ابا شجرة أسلم ، فلما كان زمن عمر ، قدم المدينة فرأى عمر وهو يقسم في المساكين ، فقال : اعطني ، فإني ذو حاجة . فقال عمر : ممن انت !؟ فقال : انا ابو شجرة بن عبدالعزّى السُلَميّ . قال : أي عدوّ الله ! لا والله ! أَلستَ الذي تقول :

فروّيــت رمحي مــن كتيبة خالــدٍ

وإني لأرجو بعدهــا أنْ اعمــرّا

وجعل يعلوه بالدرّة في رأسه ، حتى سبقه عدواً الى ناقته ، فركبها ولحق بقومه . وهم يذكرون له ابياتاً في حادثته هذه مع عمر .

وفي صحيح الإمام البخاري ؛ في باب الركوب على الدابّه الصعبة ، من « كتاب الجهاد : كان بالمدينة فزع فاستعار النبيّ صلى الله عليه وسلّم فرساً لابى طلحة ، يقال له : مندوب ، فركبه ، وقال : مارأ ينا من فزع ، وإن وجدناه لبحراً » اي واسع الجرى . قالوا : فقال عمر بن الخطّاب – رضى الله عنه – : « كذب الحطيئة حيث يقول :

وإنّ جيــاد الخيــل لا تســتفزّنــا

ولا جاعــلات الريْــط فــوق المعاصم(١)

وقد يستشهد عمر ببعض البيت من الشعر ، فيكون كالمثل ؛ كتب اليه ابو عبيدة جواب كتابه في امر الطاعون بالشام ، فقرأ عمر الكتاب واسترجع ، فقال له المسلمون : مات ابو عبيدة !؟ قال عمر : لا ، وكأن قدِ ... » يشير الى قول النابغة :

ازف الترحــُلُ غــير ان ركابنـــا

لمّا تزل برحالنا وكأن قدِ

---

(١) الريط : جمع ريطة ؛ وهي كل ملاءة غير ذات لفقين كلها نسج واحد ، او هي كل ثوب لين رقيق .

القول : فبالاضطرار اما ان ينتهي الامر الى عالم ازلي بالشخص او بتسلسل . واذا وجب قطع التسلسل فقطعها بهذا العالم ازلي ، اعني بانزاله واحدا بالعدد ازليـــا .

وهذا جدل من ابن رشد لا يؤدي الى يقين فلننتقل الى الدليل الرابع وبه نختم الحديث في مشكلة قدم العالم .

٤ـ قالوا : كل حادث فالمادة التي فيه تسبقه ، اذ لا يستغني الحادث عن مادة ، فلا تكون المادة حادثة ، وانما الحادث الصور والاعراض والكيفيات على المواد . وبيانه ان كل حادث فهو قبل حدوثه لا يخلو اما ان يكون ممكن الوجود ، او ممتنع الوجود ، او واجب الوجود ، ومحال ان يكون ممتنعا ، لان الممتنع في ذاته لا يوجد قط . ومحال ان يكون واجب الوجود لذاته لا يعدم قط ، فدل انه ممكن الوجود بذاته ، فاذن امكان الوجود حاصل له قبل وجوده ، وامكان الوجود وصف إضافي لا قوام له بنفسه فلا بد له من محل يضاف اليه ، ولا محل الا المادة فيضاف اليها .

كما نقول هذه المادة قابلة للحرارة والبرودة او السواد والبياض ، او الحركة والسكون اي ممكن لها حدوث هذه الكيفيات ، وطريان هذه التغيرات ، فيكون الامكان وصفا للمادة والمادة لا يكون لها مادة فلا يمكن ان تحدث ، لو حدثت لكان امكان وجودها سابقا على وجودها ، وكان الامكان قائما بنفسه غير مضاف الى شيْ ، مع انه وصف اضافي لا يعقل قائما بنفسه .

ولا يمكن ان يقال ان بعض الامكان يرجع الى كونه مقدورا وكون القديم قادرا عليه ، لأنا لا نعرف كون الشيْ مقدورا الا بكونه ممكنا ، فنقول هو مقدور لانه ممكن ، وليس بمقدور لانه ليس بممكن .

فان كان قولنا هو ممكن يرجع الى انه مقدور فكأنا قلنا هو مقدور لانه مقدور ، وليس بمقدور لانه ليس بمقدور ، وهو تعريف الشيْ بنفسه ، فدل ان كونه ممكنا قضية اخرى في العقل ظاهرة ، بها تعرف القضية الثانية وهي كونه مقدورا .

ويستحيل ان يرجع ذلك الى علم القديم بكونه ممكنا ، فان العلم يستدعي معلوما فالامكان المعلوم غير العلم لا محالة . ثم هو وصف اضافي فلا بد من ذات يضاف

اليها وليس الا المادة ، فكل حادث فقد سبقه مادة ، فلم تكن المادة الاولى حادثة بحال . (تهافت الفلاسفة ٣٨–٧٠) والغزالي وقد ساق هذا الدليل يعترض عليه بان يقال : الامكان الذي ذكروه يرجع الى قضاء العقل فكل ما قدر العقل وجوده فلم يمتنع عليه تقديره سميناه ممكنا ، وان امتنع سميناه مستحيلا ، وان لم يقدر على تقدير عدمه سميناه واجبا . فهذه قضايا عقلية لا تحتاج الى وجود حتى تجعل وصفا له فان الامكان لو استدعى شيئا موجودا يضاف اليه ويقال انه امكانه لاستدعى الامتناع شيئا موجودا يقال انه امكانه ،وليس للممتنع وجود في ذاته ، ولا مادة يطرأ عليها الحال حتى يضاف الامتناع الى المادة (تهافت الفلاسفة ٧٠–٧١) .

وابن رشد يرى في اعتراض الغزالي هذا مغالطة لا معنى لاعتبارها هنا ويقول : اما ان الامكان يستدعي مادة موجودة فذلك بين ، فان سائر المعقولات الصادقة لابد ان تستدعي امرا موجودا خارج النفس ، اذ كان الصادق كما قيل في حده : انه الذي يوجد في النفس على ماهو عليه خارج النفس .

فلا بد في قولنا في الشيْ انه ممكن ان يستدعي هذا الفهم شيئا يوجد فيه هذا الامكان ... وكذلك الممتنع يستدعي موضوعا مثل ما يستدعي الامكان ، وذلك بين لان الممتنع هو مقابل الممكن .

والاضداد المتقابلة تقتضي ولا بد موضوعا ، فان الامتناع هو سلب الامكان ، فان كان الامكان يستدعي موضوعا ، فان الامتناع الذي هو سلب ذلك الامكان يقتضي موضوعا ايضا . مثل قولنا : ان وجود الخلاء ممتنع ... وهذا كله بيِّن بنفسه (تهافت التهافت ١٠٣ بويج ، ١٢ دنيا) .

* * *

ولا بد لنا ان نشير بعد ان عرضنا وجهة نظر الغزالي وابن رشد في هذه المشكلة التي ليس من السهل ان يقوم عليها دليل عقلي قاطع الى ان ابن رشد يرى ان ادلة المتكلمين على حدوث العالم ، كما حكاها الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة ليست برهانية ولا يقينية، وكذلك الادلة التي حكاها عن الفلاسفة للاستدلال بها على قدمه،وابن رشد

نفسه لم يقدم فيما نرى دليلا برهانيا يقينيا على ما يدعيه هو والفلاسفة من قدم العالم . وانما هي اقوال جدلية لا تبلغ مرتبة اليقين . على انه يوحي بأنه يملك الدليل اذ يصرح بان كتابه تهافت التهافت ليس محل التقدم بهذا النوع من الدليل (ص ٤٧ ، ٦٠ ، ٦٩ بويج) وان على من يريد البرهان الحق ان ينظره في مواضعه الاخرى .

٢ ـ وجود الله وصدور العالم عنه

اراد الغزالي ان يثبت ان الفلاسفة لا يريدون الحقيقة حين يقولون ان الله صانع العالم فقال في ص ٩٥ من تهافت الفلاسفة : وقد اتفقت الفلاسفة سوى الدهرية على ان للعالم صانعا ، وان الله هو صانع العالم وفاعله ، وان العالم فعله وصنعه وهذا تلبيس على اصلهم ، بل لا يتصور على مساق اصلهم ان يكون العالم من صنع الله من ثلاثة اوجه : وجه في الفاعل ، وجه في الفعل ، ووجه في نسبة مشتركة بين الفعل والفاعل .

أـ اما في الفاعل فهو انه لا بد ان يكون مريدا مختارا عاما بما يريد ، حتى يكون فاعلا لما يريد . والله تعالى عندهم ليس مريداً بل لا صفة له اصلا ، وما يصدر عنه فيلزم منه

والثالث ان الله واحد عندهم من كل وجه ، والواحد لا يصدر منه عندهم الا واحد من كل وجه ، والعالم مركب من مختلفات فكيف يصدر عنه

وكلام الغزالي هذا يجعل من اليسير حصر الخلاف بين المتكلمين والفلاسفة على النحو الاتـــي :

ما هو الفاعل ؟ وما هو الفعل ؟ وما المراد بما ذهب اليه الفلاسفة من ان الواحد لا يصدرعنه الا واحد ؟ فالغزالي يرى ان الفاعل ، لكي يكون فاعلا ، يجب ان يكون عالما بما يفعل ، ومريدا له عن اختيار . ويفرق بين مجرد السبب لشيء ، كالشخص للظل والشمس للضوء والحرارة ، وبين ما يكون سببا على وجه مخصوص وهو على وجه الارادة والاختيار ، فالاول ليس فاعلا ولا صانعا . والثاني هو الفاعل حقا ما دام يعلم ما يفعل ويريده . اي ان الاول ان سمي فاعلا كان ذلك بطريق المجاز لا الحقيقة فان من القى انسانا في نار فمات يقال هو القاتل دون النار التي ليست الا سببا لا فاعلا حقا .

ويريد الغزالي بهذا كله ان يقرر ضرورة عنصر الارادة والاختيار بالفعل حتى يكون من صدر عنه فاعلا حقا . وما دام العالم صدر عن الله بالضرورة عند الفلاسفة ، يكون الله غير مريد ، واذاً فلا يكون فاعلا ولا خالقا للعالم ، ويكون اطلاق وصف الفاعل او الصانع عليه اطلاقا غير حقيقي ، يراد به موافقة ما جاء به الاسلام (تهافت الفلاسفة ص ٩٧ وما بعدها) .

وفي الرد على ذلك يبدأ ابن رشد بالقول بان اشتراط الارادة والاختيار في الفاعل للعالم كلام غير معروف بنفسه ، وحد غير معترف به في فاعل العالم الا لو قام عليه برهان ، أو صحّ نقل حكم الشاهد فيه الى الغائب .

وذلك انا نشاهد الاشياء ، الفاعلة صنفين :

صنف لا يفعل الاشيئا واحدا فقط ،وذلك بالذات مثل الحرارة تفعل الحرارة، والبرودة تفعل البرودة ، هذه هي التي تسميها الفلاسفة فاعلات بالطبع .

والصنف الثاني اشياء لها ان تفعل الشيْ في وقت وتفعل ضده في وقت آخر وهذه هي التي نسميها مريدة ومختارة . وهذه انما تفعل عن علم ورويـّة .

والفاعل الاول سبحانه منزه عن الوصف باحد هذين الفعلين على الجهة التي يوصف بها الكائن الفاسد عند الفلاسفة ، وذلك ان المختار والمريد هو الذي ينقصه المراد والله سبحانه لا ينقصه شيْ يريده ، والمختار هو الذي يختار احد الافضاين لنفسه والله لا يعوزه حالة فاضلة ، والمريد هو الذي اذا حصل المراد كفت ارادته .

وبالجملة فالارادة هي انفعال وتغير والله سبحانه منزه عن الانفعال والتغير فكيف يقال اذا ان الفاعل الحق هو من يفعل عن ارادة واختيار ويجعل هذا الحد مطردا في الشاهد والغائب (تهافت التهافت ص ١٤٨ بويج ، ص ٢٥٤ ـــ ٢٥٦ دنيا) .

واذا كان الله ليس فاعلا بالطبع ، ولا بالارادة والاختيار على النحو المعروف في الشاهد ، فعلى اي نحو هو فاعل عند ابن رشد . انه في مذهبه ومذهب الفلاسفة امثاله ، مخرج العالم من العدم الى الوجود ، وحافظه على وجه اتم واشرف مما هو في الفاعلات الشاهدة ، فان فعله صادر عن علم ، ومن غير ضرورة داعية اليه لا من

ذاته ، ولا لشيْ من خارج ، بل لمكان فضله وجوده . وهو ضرورة مريد مختار في اعلى مراتب المختارين ، اذا لا يلحقه النقص الذي يلحق المريد في الشاهد . (تهافت التهافت ص ١٥١ بويج) . ولذلك فهو علة لوجود العالم لولاه لما وجد ، وكل من كان علة لشيْ فهو فاعل له .

ومع خلق الله العالم على هذا النحو ، فهو الذي يحفظه دائما موجودا على اتم وجه ، ولولاه لما استمر وجوده طرفه عين ، فهو لهذا احق بوصف الفاعل باطلاق . وذلك بان الفاعلين من يستغنى عنه الفعل متى وجد عنه كوجود البيت بالنسبة للبناء . ومن يظل الفعل محتاجا اليه لدوام وجوده وحفظه ، كالعالم بالنسبة لخالقه وموجده وهذا الصنف الثاني هو احق باسم الفاعل الحق (تهافت التهافت ص ٢٦٤) .

وهذا كله معناه ان الله فاعل للعالم على نحو لا يصح ان يقال فيه بالطبع ولا بالاختيار على ما هو معروف في الشاهد ، بل بارادة لا تشبه في شيْ ارادة البشر كما يقال انه يعلم الامور بعلم لا يشبه عام البشر .

ب – اما فيما يختص بالفعل فالغزالي يرى ان معناه اخراج الشيْ من العدم الى الوجود باحداثه ، واذا كان العالم موجودا في القدم فلا يتصور احداثه ، لان الموجود لا يمكن ايجاده ، فاذا شرط الفعل ان يكون حادثا ، والعالم قديم عندهم فكيف يكون فعلا لله ؟ (تهافت الفلاسفة ص ١٠٣) .

فحجة الاسلام الغزالي كما اشترط في الفاعل الحقيقي ان يكون مريدا مختارا اشترط في الفعل ان يكون اخراجا من العدم الى الوجود .

وابن رشد في الجواب عن ذلك يفرق بين القديم بذاته فلا يحتاج في وجوده الى غيره وهو الله تعالى الذي لا يتعلق به « الاحداث » من الغير لانه موجود فعلا بذاته ، وبين من لم يكن كذلك كالعالم ، فانه ليس لحدوثه اول فهو لهذا قديم ولكنه مع هذا في حدوث متجدد . وهذا الحدوث في حاجة دائمة الى محدث (انظر بين الدين والفلسفة ص ٢٠٨) .

واذاً فلا تناقض ، ولا عجب في ان يكون العالم وهو شأنه ، محدثا عن الله تعالى ، فان الذي افاد الاحداث الدائم احق بوصف الخلق والاحداث من الذي افاد الاحداث المنقطع ، وهذا مثل البناء بالنسبة الى البيت .

ومعنى هذا ان ابن رشد يجعل الفعل « الكائن من الله للعالم هو الخلق او الاحداث الدائم ، وان لم يكن بعد عدم ، اي وان لم يكن له اول (تهافت التهافت ص ١٦٢) . والنتيجة ان يكون العالم فعلا لله تعالى ، ويكون حاله مع الله غير حال المصنوعات مع الصانع فهذه المصنوعات اذا وجدت لا يقترن بها عدم تحتاج من اجله الى فاعل يستمر به وجودها (تهافت التهافت ص ١٦٥) .

ج – اما فيما يتعلق بمبدأ ان الواحد لا يمكن ان يصدر عنه الا واحد ، فان الغزالي يقرر استحالة كون العالم فعلا لله على اصلهم بشرط مشترك بين الفاعل والفعل . فالعالم مركب من مختلفات فلا يتصور ان يكون فعلاً لله بموجب اصلهم (تهافت الفلاسفة ص ١١٠) .

وهنا نرى ان ابن رشد يقرر انه « اذا سلم هذا الاصل والتزم فيعسر الجواب عنه لكنه لم يفعله الا المتأخرة من فلاسفة الاسلام (تهافت التهافت ص ١٧٣) ومعنى هذا ان ابن رشد لا يرى ان هذا الاصل صحيح ، واذاً فليس ما يمنع من هذه الجهة ان يكون العالم فعلا صادرا عن الله باعتباره خالقا له .

وابن رشد يبحث هذه القضية « ان الواحد لا يصدر عنه الا واحد » ويقول هي قضية اتفق عليها القدماء من الفلاسفة حين كانوا يفحصون عن المبدأ الاول للعالم بالفحص الجدلي ، وهم يظنونه الفحص البرهاني ، فاستقر رأي الجميع منهم على ان المبدأ واحد للجميع ، وان الواحد يجب ان لا يصدر عنه الا واحد .

فلما استقر عندهم هذان الاصلان طلبوا من اين جاءت الكثرة ، فبعضهم زعم ان الكثرة انما جاءت من قبل الهيولى . وبعضهم زعم ان الكثرة انما جاءت من قبل كثرة الآلات . وبعضهم زعم ان الكثرة انما جاءت من قبل المتوسطات . وهو لا يوافق على

هذا المبدأ ، بل يقول واما المشهور اليوم فهو ضد هذا وهو ان الواحد الاول صدر عنه صدورا اولا جميع الموجودات المتغايرة (تهافت التهافت ص ١٧٨)

وابن رشد بعد ان يرد على الغزالي ويقول ان اعتراضاته على المشائين لا تلزمهم يعود الى نقد الفلاسفة من اهل الاسلام كابي نصر الفارابي وابن سينا فقال : انهم لما سلموا لخصومهم ان الفاعل في الغائب كالفاعل في الشاهد ، وان الفاعل الواحد لا يكون منه الا مفعول واحد ، وكان الاول عند الجميع واحدا بسيطا ، عسر عليهم كيفية وجود الكثرة عنه ، حتى اضطرهم الامر ان لا يجعلوا الاول هو محرك الحركة اليومية .

بل قالوا : ان الاول هو موجود بسيط ، صدر عنه محرك الفلك الاعظم ، وصدر عن محرك الفلك الاعظم الفلك الاعظم ، ومحرك الفلك الثاني الذي تحت الاعظم ، اذ كان هذا المحرك مركبا عن ما يعقل من الاول ، وما يعقل من ذاته .

ويرد ابن رشد على ذلك بقوله : وهذا خطأ على اصولهم ، لان العاقل والمعقول هو او الفاعل والمفعول ، هو شيء واحد في العقل الانساني فضلا عن المعقول المفارقة .

ثم حاول ان يشرح ذلك ، فقال ، : الجواب في هذا على مذهب الحكيم (اي ارسطو) ان الاشياء لا يصح وجودها الا بارتباط بعضها مع بعض ، مثل ارتباط المادة مع الصورة ، وارتباط اجزاء العالم البسيطة بعضها مع بعض ، فان وجودها تابع لارتباطها واذا كان ذلك كذلك فمعطي الرباط هو معطي الوجود .

واذا كان كل مرتبط بمعنى فيه واحد ، والواحد الذي به يرتبط انما يلزم عن واحد هو معه قائم بذاته ، فواجب ان يكون ههنا واحد مفرد قائم بذاته وواجب ان يكون هذا الواحد انما يعطي معنى واحدا بذاته . وهذه الوحدة تتنوع على الموجودات بحسب طبائعها. ويحصل عن تلك الوحدة المعطاة في موجود موجود وجود ذلك الموجود الذي يوحده وهو به واحد .

وتترقى كلها الى الوحدة الاولى كما تحصل الحرارة التي في موجود موجود من الاشياء الحارة عن الحار الاول الذي هو النار وتترقى به .

وبهذا جمع ارسطو بين الوجود المحسوس ، والوجود المعقول ، وقال : ان العالم واحد صدر عن واحد ، وان الواحد هو سبب الوحدة من جهة وسبب الكثرة من جهة .

ولما لم يكن من قبله وقف على هذا ، ولعسر هذا المعنى لم يفهمه كثير ممن جاء بعده ، (تهافت التهافت ص ١٧٨) وهذا يعني ان العالم بجميع اجزائه مرتبط بعضه ببعض ، وان وجوده تابع لهذا الرباط الذي يؤلف بين اجزائه،وان هذا الرباط هو الذي يوجب كون هذه الاجزاء معلولة بعضها عن بعض ، وجميعها لمعلول عن المبدأ الاول . وانه ليس يفهم من الفاعل والمفعول والخالق والمخلوق في ذلك الوجود الا هذا المعنى فقط (تهافت التهافت ص ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٦) .

وهكذا يرى ابن رشد ان العالم بجميع اجزائه المختلفة فعل لله وصادر عنه باعتباره خالقا له ، لانه هو الذي اعطاه الرباط الذي يؤلف بين اجزائه ويجعلها وحده بعضها معاول عن بعض ، ومعطي الرباط هو معطي الوجود .

وانه اخيرا قد صح له القول بان الله هو خالق العالم بارادته واختياره وحقيقة لا مجازا ولا تلبيسا ، كما اتهم الغزالي الفلاسفة ، وان كان العالم قديما مساوقا لله تعالى في الوجود وان كان ايضا مختلف الاجزاء .

يتبع

سليم النعيمي

فهرس المجلد الثلاثون

من مجلة المجمع العلمي العراقي